الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل إدريس

Propriétanre - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا ـ رأس الخندق الغميق ـ بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية أو بريدية

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

الآداب في عامها الثاني عشر

نستقبل عامنا الثاني عشر ونحن نتساءل : أي دور قامت به « الآداب » في حياتنا الادبية الحديثة ؟

وانما نحن نطرح السؤال لاننا نعي وعيا حقيقيا أهمية الدور الذي ينبغي ان يضطلع به الادب في النهضة القومية الحاضرة ، ونطرحه كذلك لنمارس النقد الذاتي الذي به وحده تتوفر امكانات سد التقصير وتجاوز الذات .

لقد استجاب القارىء العربي « للآداب » لانها حاولت ، وما تزال تحاول ، ان تعكس الهموم والشواغل الموضوعية والشكلية ، التي يحملها نتاجنا المعاصر . وقد ألحت الحاحا خاصا على الجانب القومي الملتزم من هذا النتاج ، لان النزعة القومية هي السمة الرئيسية لتاريخنا الحاضر . وهي في ذلك لم تكن تفعل الا ان تسجل واقعا ، لا ان تقتسر اتجاها ، خلافا لبعض المجلات اللبنانية التي جعلت رسالتها محاربة النزعة القومية في الادب ، بحجة انها نزعة مصطنعة متكلفة ، فكانت أبعد ما تكون عن تمثيل الفكر العربي الصحيح ـ بما فيه اللبناني ـ هذا الفكر الذي لا يستطيع ان يهمل الاتجاه القومي او يلغيه من غير أن يهمل نفسه ذاتها او يلغيها .

ويستطيع المؤرخ الادبي ان يسجل ، بكل اطمئنان ، ان « الآداب » كانت « شاهدا » و « وثيقة » على هذه الفترة من تاريخنا النابض ، بما حملته من نتاج الاجيال الادبية الجديدة ، تعبيرا عن همومها وانفعالاتها امام الاحداث والوقائع . ولقد يقال ان الادب الذي يعبر عن الانفعالات التي تخلفها الاحداث ليس هو الادب الخالد ، وانه يزول بزوال تلك الاحداث . ونعتقد ان هذا اطلاق في القول يخالف المنطق والواقع ، لان الانفعال حين يكون صادقا ، وحين يعبر عنه صاحبه التعبير « الفني » الصحيح ، يصبح الادب الحقيقي . فليس ثمة أدب « خالد » الا بمقدار ما يعبر عن واقع محسوس بالشكل الفني الملائم . وليس كل انفعال مادة سيئة للتعبير الادبي ، فالحق ان كثيرا من روائع الآثار الادبية هي حصيلة انفعال صادق بالحدث ، وانما المعوَّل عليه في ذلك ان يوفَّق الاديب الى القالب الفني الذي يصب فيه انفعاله .

واذن ، فلكي نحكم على قيمة كل نتاج ، وعلى ما نشرته « الآداب » في سنواتها الماضية ، فينبغي ان نعتمد مقياسا واحدا ، هو مقياس الجودة في التعبير عن الموضوع . وحرصا من المجلة على مراعاة هذا المقياس . خلقت باب « قرأت العدد الماضي » الذي يتناول فيه الناقد المختار المادة المنشورة ليقيِّمها التقييم الحقيقي . وقد بعث هذا الباب الجديد ، الذي قلدته بعض المجلات الاخرى ، حركة نقدية ناشطة كان أهم ما حققته انها هدمت هالة التقديس التي كان بعض الادباء يحيطون بها أنفسهم ، وأعادت الاعتبار للحكم النقدي الذي عرفه تاريخ أدبنا القديم : « من ألّف فقد استهدف » ووضعت الكتّاب امام مسؤوليتهم في ان يجوِّدوا المادة التي يصنعونها ، والا يستخفوا بالقارىء ولا الناقد اللذين يجدان المجال واسعا هنا لممارسة النقد والتقييم .

ولا بد من ان نعترف هنا بأن « الآداب » فقدت من جراء ذلك عددا من الادباء الذين كانوا يشاركون في تحريرها ، والذين شق عليهم ان ينصب من يراقبهم ويحاسبهم . ولئن كنا نقر بأن اختيار النقاد لم يكن دائما موفقا (ولعل من اسباب ذلك ندرتهم) فان امتناع الادباء عن تقبل النقد يدل على ضيق صدر ينبغي ان يترفع عنه الاديب الحق الذي يعي مسؤولية الكلمة .

ثم ان « الآداب » تفخر بأنها فتحت صدرها لجيل جديد من الشعراء والقصاصين والناقدين . جيل من الشباب ولد وترعرع ونما على صفحاتها ، ولم يلبث ان احتل مقاما محترما في الاوساط الادبية على اختلافها .

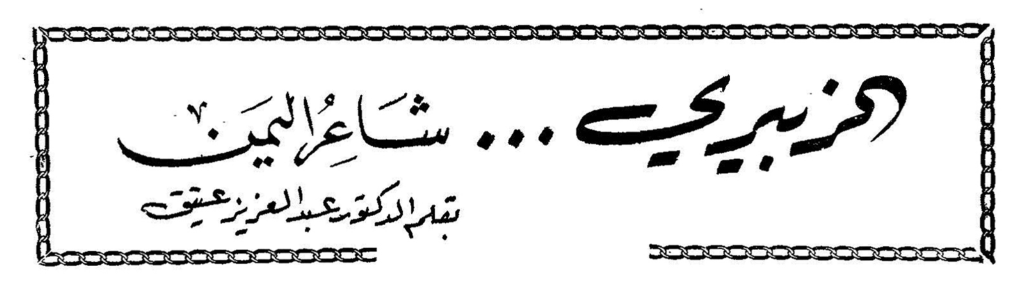
وليست « الآداب » لتمن على احد في ذلك ، فان الاديب يملك موهبته الحق ويحمل معه وسيلته ، وليس مدينا الا لنفسه بنجاحه وشهرته . ولكن من رسالة هذه المجلة ان تتيح الفرصة لهؤلاء الادباء ان يبرزوا مواهبهم وينموا امكاناتهم ، الا حين ينحاز البعض منهم الى جهات مشبوهة تحارب الاصالة العربية وتدعم النزعات الشعوبية

ومهما يكن من أمر ، فان كل من يطمح الى الكتابة ، ويشعر بتلك الشعلة تشرق في نفسه ، يستطيع ان يثق دائما بأن هذه المجلة ستفتح له ذراعيها ، من غير ان تقيم اعتبارا للنشر الا اعتبار القيمة الفنية الذاتية ، والمشاركة في رفع بنيان الادب العربي . ونحسب ان القراء يصدقون هذا حين يقرأون في كل عدد من « الآداب » لكتّاب جدد لم يسبق أن قرأوا لهم .

***

وبعد ، فمن حق القراء علينا ، ومن واجبنا ، ان نبلغهم ان « الآداب » بفضل التفافهم حولها ودعمهم لها ، محافظة على قوتها وانتشارها في مختلف أقطار العربية ، بالرغم مما تتعرض له بين الفينة والفينة من منع أو مصادرة ، وانها ماضية في طريقها ، لا تتردد في حمل رسالتها ، وفي الوقوف مع القوى العربية التقدمية ، وفي فضح الزيف الذي تتسربل به الرجعية والانتهازية والعمالة . وسوف تظل « الآداب » صوتا داويا من أصوات الوثبة العربية الجديدة ، وستحمل أبدا نداء الجيل الادبي الجديد الذي يشارك في معركة التقدم ويسهم في خلق الوعي بمختلف ابعاده .

سهيل ادريس



— ١ —

اتحدث اليكم الليلة (١) عن رائد من رواد الشعر العربي المعاصر في اليمن . والهدف الذي ابغي الوصول اليه من وراء هذا الحديث هو بيان الدور الطليعي الذي قام به الشعر اليمني المعاصر في التوعية الثورية التي انتهت بالشعب الى تحطيم قيوده والانطلاق الى تشكيل مصيره كما يريد هو ، لا كما يريد له حكامه المستبدون .

والثورات لا توجد من عدم ولا تولد من فراغ ، وانما هي وليدة احداث تاريخية لها دوافعها والدافعون اليها . والشعوب لا تقوم بالثورات اعتباطا ، ولا لهوا وعبثا ، وطيشا وحمقا ، انما تلجأ الشعوب الى الثورات او تكره عليها عندما تتأزم امورها ويصبح الاختيار امامها اختيارا بين التقدم او التخلف ، والعدل او الظلم ، والحياة او الموت !

ورجال الفكر وارباب الاقلام عادة في طليعة الدافعين الى الثورات والممهدين لها : فهم الذين يبصرون الشعوب بحقوقهم ويدافعون عن هذه الحقوق ، وهم الذين يتعاطفون مع الشعوب في كل ما ينزل بهم من سوء لانهم منهم ، وهم الذين يتصدون للحكام الجائرين ويظهرونهم على حقيقتهم حتى لا يطول امد انخداع الشعوب فيهم ، ثم هم بكل هذا وبغير هذا يمهدون للثورات ، اذا كان لا بد منها ، طريقها المحتوم .

والكلمة ... الكلمة التي تنزل على قلوب الشعوب المقهورة بردا وسلاما ، وعلى نفوسهم عزما واصرارا ، وعلى جراحهم بلسما وشفاء ، هي نفس الكلمة التي تنفذ الى اعماق الطغاة براكين متفجرة وقنابل مدمرة !

هذه الكلمة التي اودعها الله كل هذه القوى والاسرار هي السلاح الذي يحمله رجال الفكر وارباب الاقلام ، وما اكثر الصور التي تبدو او تتجسد فيها بين مقروءة ومسموعة !

ولكن هذه الكلمة الالهية التي لها كل هذه القوى والاسرار لم تستطع ، وقد تلقاها رجال الفكر في اليمن ، ان تعبر عن نفسها الا في صورة واحدة مسموعة ، هي صورة الشعر !

اجل كانت الكلمة الشاعرة هي الوسيلة الكبرى لتوعية الشعب اليمني قبل الثورة ، وذلك لانعدام ما عداها من الوسائل التي تتخذها الكلمة سبيلا الى الناس مقروءة او مسموعة !

ومع ذلك فقد لعبت الكلمة الشاعرة دورا اساسيا خطيرا في هز روح الشعب اليمني وايقاظه وتحريكه ، كما كان لها المحل الاول في توعيته الثورية ، وتوجيهه صوب هدفه لتحقيق وجوده كانسان . فالشعب اليمني العربي ، بطبيعته يحب الشعر ، ويطرب له ، ويترنم به . ورب بيت واحد من الشعر لمس قلبه ، كان عنده اقوى اثرا واشد وقعا من مضمون مقال او خطاب او كتاب !

من اجل ذلك عرف رجال الفكر من احرار اليمن وثواره ، كيف يدخلون عليه من الباب الذي يفضله ويؤثره ، وبأي لغة يتحدثون اليه حتى يفهمهم ويستجيب الى دعوتهم !

وقد عرف اليمن في مراحل نضاله السياسي الذي توج اخيرا بالثورة واعلان الجمهورية ـ كثيرا من ابنائه الشعراء الذين غنوا له بملاحم رائعة من الشعر الثوري ، وتحملوا في سبيل تحريره وانطلاقه ابشع الوان العذاب والغدر والانتقام .

وقصص اولئك الشعراء الابطال باهرة رائعة ، لما اشتملت عليه من معاني الولاء والوفاء ، والبذل والفداء ، والتضحية والابداع . وهي في تاريخ اليمن الثوري الحديث بلا شك صفحات فخار ومصدر الهام للاجيال القادمة !

من اولئك الابطال ـ مثلا ـ عبد الله البردني الشاعر الضرير : عذبه الائمة وسجنوه عدة مرات بسبب شعره الثوري ، ومع ذلك ظل ثائرا متمردا حتى شهد الثورة فغنى ـ ولا يزال يغني ـ بانتصاراتها !

ومنهم علي عبد العزيز نصر : وقد اضطر من شدة الاضطهاد ان يهاجر الى عدن حتى اذا قامت الثورة عاد الى اليمن ، لقد كان هذا الشاعر الموهوب ينشر قصائده الثورية في الصحف العدنية فتحدث دويا هائلا . وكان اليمنيون من شدة اعجابهم بها يحفظونها ويتناقلونها ويترنمون بها فتأخذ بمجامع البابهم وتلهب مشاعرهم وخواطرهم ؟

ومنهم السيد احمد المطاع : شاعر ساهم في ثورة ١٩٤٨ مساهمة ايجابية فعالة ، ولكن الحكام الطغاة تمكنوا منه فأعدموه ومثلوا بجثته ، انتقاما لاشتراكه في الثورة .

ومنهم احمد الوريث : ويعد من اكبر المفكرين اليمنيين نثرا وشعرا، وقد حاول الامام يحيي ان يستميله اليه ، فلما ابى الشاعر بيع نفسه ومبدئه اوعز الامام الى بعض زبانيته فدسوا له السم فمات مسموما ، ومنهم غير هؤلاء كثيرون وكثيرون .

ثم منهم محمود محمد الزبيري : الشاعر الرائد ، والذي اتخذ من شعره الثوري موضوع محاضرة الليلة .

— ٢ —

والزبيري ، بالاضافة الى كونه شاعرا ، ذو عقيدة سياسية ، عقيدة ترمي الى العمل الايجابي بالقول والفعل ، من اجل قضية الانسان المواطن حرية وكرامة ، ومن اجل تحطيم كل القيود التي تحرمه الحركة ، وكل السدود التي تحول دون تقدمه وابداعه في الحياة لنفسه وللانسانية .

ووفاؤه لعقيدته السياسية هذه فرض عليه فيما فرض ان يتقدم جريئا الى المعركة ، وان يدافع فيها مستميتا . ولكن عن اي شيء يدافع ؟ ولماذا يدافع ؟

عن أي شيء يدافع ؟

وهل هناك مطلب أجل واشرف من ان يدافع الانسان المؤمن المفكر حفاظا على شرف وطنه ، واستردادا لحرية قومه وحقوقهم السليبة ، وهل هناك ما هو ابقى للانسان من ان يعمل على ايقاظ شعبه المغلوب على امره من سباته العميق ، وان يبصره بما يعيش فيه من واقع رهيب، حتى يثور على اعداء انسانيته ، ثم يمارس نشاطه في الحياة كسائر الشعوب الطليقة المنطلقة !

ولماذا يدافع ؟

عجبا ! أهناك قيم اسمى من هذه القيم الوطنية والانسانية تفرض على الاحرار ان يدافعوا عنها ؟ ليس السؤال في مثل هذه المواقف : لماذ يدافع الاحرار ؟ ولكن السؤال هو : لماذا لا يدافعون ؟

وقد فعل الشاعر ... فدافع .

اجل .. عاش حياته مدافعا عن معتقداته الوطنية والانسانية ، وشارك في كل احداث وطنه السياسية ، وتحمل ـ عن رضاء وايمان ـ كل ما اصابه من اضطهاد وتعذيب ، ونفي وتشريد !

وفي سبيل عقيدته ايضا شهر قلمه المرهف سيفا مصلتا على رقاب اعداء الشعب اليمني ، حتى تحقق النصر اخيرا لهذا الشعب العربي بثورته الرائعة : تلك الثورة التي ظهرت الى الوجود اليمني والعربي

---

(١) محاضرة القيت في جامعة بيروت العربية .

في اليوم السادس والعشرين من سبتمبر (ايلول) ١٩٦٢ بزعامة الرئيس السلال .

— ٣ —

واذا تصفحنا دواوين الشعراء المعاصرين في اي جزء من اجزاء الوطن العربي : فاننا — ولا ريب — نلتقي في كل ديوان منها بصفحات مشرقة من الشعر القومي ، تختلف من ديوان الى اخر كما ونوعا .

ولكن قلما نجد بين شعرائنا المعاصرين من وقف كل انتاجه او معظمه على الشعر القومي السياسي ، كما فعل الزبيري في ديوانه « ثورة الشعر »

وعن ذلك يحدثنا الشاعر بقوله : « وشعري او معظمه تطغى عليه السياسة ، سواء ما كان منه مدحا ، وما كان رثاء ، وما كان ثورة ، وما كان شكوى ، او ما كان شيئا غير ذلك . وهذا هو منطق الواقع ، فان حياتي كلها ليست حياة شخصية منفكة عن الحياة العامة بأي حال من الاحوال » .

وطغيان السياسة ليس قاصرا على شعره ، انما هو اتجاه عام عنده يتعداه الى كل انتاجه الادبي شعرا ونثرا ، وشاهدنا على ذلك ديوانه وكتبه الاخرى مثل كتاب « الخدعة الكبرى » وكتاب « مأساة واق الواق » .

مفهوم الشعر عنده اذن مفهوم سياسي ، وما اظنه في المرحلة التي عاشها وشارك فيها من تاريخ وطنه كان يستطيع ان يكثر من الشعر في أي غرض اخر غير السياسة . والا فكيف كان يتأتى له وهو الشاعر الوطني الغيور ان يغني للحب او للطبيعة ، او لغير ذلك من اغراض الشعر ، وهو يرى كل يوم من مآسي شعبه ما لم تنكب به الانسانية في احلك عصر من عصورها ؟

ولعل خير ما يلخص مذهب الشاعر ومفهومه للشعر قوله من قصيدة يحن فيها الى وطنه وهو في منفاه :

اصبو الى امتي حبا ، وابعثها بعثا ، وابني لها بالشعر بنيانا
أصوغ للعمي منه أعينا نزعت عنهم ، وانسجه للصم آذانا
وما حمات يراعي خالقا بيدي الا ليصنع اجيالا واوطانا
يخاله الملك السفاح مقصلة في عنقه ، ويراه الشعب ميزانا

— ٤ —

والزبيري يمني صميم ، نشأ يتيما على شيء من الشظف والقلة ، وبدا حياته طالب علم ينحو منحى الصوفية في روحانيتهم وعزوفهم عن الحياة المادية .

ولم ينتزعه من اجواء الصوفية غير عشقه للشعر ، حتى اذا تهيأت له ادواته ، من علم وثقافة وتجربة ، وجد نفسه امام قوتين غير متكافئتين: قوة الشر ممثلة في حكم الائمة يسومون الشعب سوء العذاب ، وقوة الخير ممثلة في قلة من شباب اليمن الاحرار ، وهبوا حياتهم لوطنهم .

وكان طبيعيا ان ينضم الشاعر الى قوة الخير ، الى هذه القوة التي ينتمي افرادها ببيئتهم واسرهم ومجتمعهم وعواملهم الوراثية ودولتهم ، الى ما قبل خمسمائة عام او تزيد ... ولكن كتب عليهم ان يفتحوا اعينهم على عصر اخر غير العصر الذي ينتمون اليه، وان يكونوا جسرا يعبر الشعب عليه ، ويقطع مسافة قرون طويلة . وتلك رسالة من اصعب الرسالات التي يتحملها جيل من الاجيال !

وكان في عقيدة ذلك الرعيل الاول من الشبيبة اليمنية ان جيلهم المخضرم لا يستطيع النهوض بتكاليف هذه الرسالة الا اذا نجح في امور ثلاثة :

اولا — ان ينضج فهمه وانتماؤه لروح شعبه وروح العصر القديم الذي ينتمي اليه شعبه نضجا تاما .

ثانيا — ان تكون عنده نزعة روحية ترتفع به فوق اهوائه الذاتية ، ومنافعه المادية ، لكي تكون هذه النزعة بالنسبة اليه كمحطة الفضاء التي يراد لها ان تكون مرحلة بين الارض والسماء .

وبغير هذا التسامي لا يستطيع الجيل المخضرم ان يقاوم عوامل الضغط الهائلة من عالمين اثنين: عالم شعبه المعرق في القدم ، والذي تسوده — كما يقول الشاعر — نواميس الموت والتحجر ، وعالم الشعوب

العصرية الحديثة التي تلوح له بسحر حياة لا يستطيع ان يحياها بطريقة طبيعية كما هي ، مهما تكلف وتكيف !

على ان فهم هذا الجيل المخضرم لروح شعبه ، كان يقتضيه فهما كاملا لظروفه السياسية والاجتماعية والدينية ، وكل ذلك لن يكن ليتأتى الا عن طريق التجربة ، والتعامل مع القوى السياسية التي تمثل سلطان القديم كله . هذا الى جانب دراسة الشعب عن طريق ممارسة الحياة التي تحياها الجماهير ، ممارسة صادقة عميقة ، لا ممارسة مسرحية !

ومن خلال الحس الوطني ، لمعنى المهمة التي ندبوا انفسهم للاضطلاع بها ، منذ اكثر من عشرين عاما ، راحوا يمارسون التجربة الحية على الطبيعة ، بنبش ركام شعبهم وحطام تاريخهم ورواسبهم الى الاعماق.

— ٥ —

وقد مرت ممارسة هذه التجربة في اطوار انتهت بهم هم الى اليقين الثوري ، ثم بهم وبالشعب اخيرا الى الثورة !

ففي الطور الاول للتجربة اخذوا يبشرون بافكار عصرية بحتة تنقل الى الشعب كما هي . بيد ان هذا الاسلوب لم يلق استجابة ، بل على العكس كان له رد فعل شعبي ورسمي مضاد ، وانطلقت الشائعات من حولهم ، كشائعة اختصار القرآن التي نسبت اليهم كذبا ، وسهل على الحكم الرجعي ان يلغي وجودهم بالسجن دون ان يكتشفوا على ضوء هذا التطور من التجربة معدن الحكام على حقيقته .

وفي الطور الثاني راح من بقي منهم خارج السجون ومنهم الشاعر يدرسون نتائج التجربة في طورها الاول ، منتهين الى انه لا يتم عمل ، ولا تقدم ، ولا تنجح دعوة عن غير طريق الدين ، الذي يستمد الحكام منه سلطتهم .

وقد رأوا أن نجاح الدعوة للثورة عن طريق الدين ، سيؤدي الى واحد من امرين : فاما ان يسمح الحكام للفكرة بالانتشار السلمي على مستوى الحكومة والشعب معا ، واما ان يرفضوها ويقاوموها ، وهي دعامة حكمهم ، وعندئذ يضطرون لهدم هذه الدعامة ، ويصبح حكمهم بغير اساس ... ولكن هذه المحاولة لم توصلهم الى شيء غير السجن !

وفي الطور الثالث ، اتجهت التجربة عندهم الى اسلوب الملاينة والتطامن للعاصفة ، بعد ان وجدوا انفسهم سجناء « جبال الاهنوم » النائية العالية في شمال اليمن حيث شيعة الائمة ينكلون بهم !

واستطاع الشعر في هذا الطور ان يقنع الحكام بانهم ليسوا اعداء لهم ، فأطلقوا سراح البعض بعد تسعة أشهر من السجن والتعذيب ، ملوحين لهم بالمال والمناصب ! ومعنى ذلك أن اولئك الحكام لم يتغيروا في شيء بعد اطلاق السجناء الا في الاستعداد لمساومتهم من الناحية الشخصية !

ويحدثنا الشاعر ان هذه المساومة قد انهت مدة تجربته مع الامام يحيى بالذات ، اذ ادرك عن يقين ان الامام يعادي كل تطور وكل اصلاح، وانه لا ينفع معه رفق ولا لين ، ولا استعطاف ولا ثناء .

ومهما يكن من امر ، فان هذا التطور من التجربة كان خصبا عميقا هاما ، فقد اعطى الشاعر ورفاقه الاساس الاول للثورة ، وهو اليقين باستحالة تغيير الامام يحيى عن غير طريق القوة .

ولم يكن هذا اليقين الثوري ليحصل ، الا بعد مرور التجربة بكل هذه الاطوار ، واهمها — كما يقول الشاعر — « استعطاف الشعر للحكام بكل ما فيه من تأثير عاطفي شديد ، ومن اسلوب لو توجهنا به الى الشياطين ، والابالسة ، لربما حولناهم الى طريق اخر ، أو جعلنا منهم ملائكة وابطالا » !

ويذكر الشاعر ان نضالهم واحتكاكهم بالامام يحيى توجيها وتبشيرا، واستعطافا ومدحا ، وتطرفا واعتدالا ، وسجونا واغلالا ، قد اوصلهم الى عدة حقائق ثابتة تتلخص في : ان ذلك الامام عنيد مستبد متأله ، ينزع الى التسلط والاصرار على خنق الشعب ، ويرفض الحياة وتطور البلاد سلميا تدريجيا ، وان العزلة والتأخر والفساد في اليمن ليست آتية تلقائيا لعوامل تاريخية وجغرافية ، وانما للحكام دور اساسي في تجميدها وحمايتها ، وان عليهم ان يتحملوا جزاء هذا الدور ومسؤولياته . ولهذا كان لا بد ان يأخذ التطور في نظرهم طابعا ثوريا لا هوادة فيه !

وعندما تكشف الموقف عن هذه الحقائق اعلن هؤلاء الشبان حركة المعارضة العنيفة من عدن والقاهرة : وقد ادت هذه الحركة اخيرا في سنة ١٩٤٨ الى مصرع الامام يحيى وبعض بنيه ورجاله ، ثم الى فشل الحكم الثوري الدستوري ، والى المذابح والفتن ، والخراب والدمار ، ثم الى حكم الامام احمد الرهيب !

وما قيل من شعر في استعطاف الامام يحيى ، وفي الشكوى من اهوال السجن كان ينتشر انتشارا سريعا في صفوف الشعب ، ويحدث اثرا عاطفيا في صالح الاحرار المعتقلين ، ويهيء الشعب لنقد تصرفات الامام .

ويبرر الشاعر ما قالوه من شعر في استعطاف الامام ومدحه ، بانه كان ينطوي على تصوير لآلام السجن ، قصد به تسجيل هذه الحقيقة تاريخيا . ومن جهة اخرى فان المبالغات في المدح والشكوى والاستعطاف تقدم للاجيال — على حد رأي الشاعر — صورة رمزية لبشاعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، ممن اوقعتهم الاقدار تحت رحمته ، فاضطرهم بقسوته واستبداده ومنطقه المتأله الى ان يمدحوه ذلك المدح ، الذي يتحول بطبيعته الى لون رمزي من الوان الهجاء !

— ٦ —

وعندما ظهر الامام احمد على مسرح الحكم استطاع في اول الامر ان يخدع الفئة الواعية من الشعب بظواهر تصرفاته ، كاطلاق سراح سجناء الشباب ، وتأمينهم ، ومطارحتهم الافكار والاشعار في مجالسه ، كما استطاع ان يخدعهم بالفاظ تصريحاته الرمزية التي توحي بالتذمر من حكم ابيه ونسبة الرجعية والفساد اليه .

وعلى هذا الاساس راح شاعر كالزبيري مثلا يمدحه مخدوعا وينفخ فيه روح الطموح والبطولة ، ويحركه باحلام الشعر واشواق المجد . ولم يكن ذلك من الشاعر لانه — كما يقول — يطلب منصبا او مغنما شخصيا ، فهو لم يتقلد منصبا ، ولم يقبل وظيفة ، ولم يكسب منه مالا ، وانما فعل ما فعل بغية ان يتلمس لبلاده منطلقا لمجد ، وسبيلا لتطور واصلاح .

ولكن سرعان ما انقلب الامام احمد الى طبيعته ، وصرح على الملأ بانه سيلقى الله ، ويده مخضبة بدماء الادباء ، وان من يقرأ طه حسين والعقاد والرافعي وامثالهما سيلقى الموت !

وقد عظم هول المفاجأة على طليعة الاحرار عندما تبينوا ان حكامهم يكرهون النور والتجديد ، حتى ولو كان في صورة شعر يمدحهم ويتغنى بآمال الشعب فيهم .

ورب سائل يسأل : هل كان شعر المدح هذا أمرا محتوما ؟

ويجيب الشاعر قائلا : « نعم ، بكل تأكيد . فاصدار قرار بالثورة

الصادقة المصممة المستميتة ، مع ضعف الحال ، وقلة النصير ، وجهل الشعب ليس بالامر السهل ، وليس من الشؤون التي يقضى فيها بالظنون والاوهام ، وتجيء نتيجة فورة عاطفية عابرة .

ان اليقين الثوري هو الاساس للثورة العميقة الصادقة ، وهو العامل الاول لصمودها . ولن يكون اليقين يقينا الا بعد جهد يبذل لدراسة الموقف . وسبر اغوار الدولة وقواها ورجالها ، وتجربة كل الوسائل غير الثورية علها تنجح في احداث التطور المطلوب .

والثورة لا تكون حقا ، ولا عدلا ، ولا وطنية ، كما لا تكون ناجحة الا يوم تكون ضرورة محتومة لا مفر منها . ان الثورة عنف وقتال ومذابح ، والمؤمنون بالتطور والاصلاح لا يقرون العنف والقتال الا بمبررات عادلة تبلغ حد اليقين ، والا كانوا مجرد سفاكين متهورين » .

وهكذا انتهت تجربتهم مع الامام أحمد الى النهاية التي انتهت اليها تجربتهم مع أبيه ! وبذلك تمت عناصر اليقين الثوري الذي يفرض على الشبيبة اليمنية الثائرة أن تنفض يدها من كل أمل في الوصول الى تغيير الاوضاع تغييرا سلميا على أيدي الحكام .

وقد أسلمهم الطور الاخير من التجربة – على حد قول الشاعر – الى مصيرين لا ثالث لهما :

فاما ان نرضخ ، وندفن رؤوسنا في المقبرة الموحشة التي دفن فيها الشعب ، وندخل فيما دخل فيه الاكثرون ، فنأكل الجيف ، ونعيش كما تعيش الدود في القبور ... أو نثور ...!!

وآثرنا الاشق الاصعب ... ولكنه الاشرف ... فتمردنا ... وأنشدنا :

خرجنا من السجن شم الانوف	كما تخرج الاسد من غابها
نمر على شفرات السيوف	ونأتي المنية .. من بابها
ونأبى الحياة .. اذا دنست	بعسف الطغاة وارهابها
ونحتقر الحادثات الكبار	اذا اعترضتنا بأتعابها
ستعلم أمتنا ... أننا	ركبنا الخطوب حنانا بها
فان نحن فزنا ... فياطالما	تذل الصعاب لطلابها
وان نلق حتفا فياحبذا المنايا	تجيء ... لخطابها
أنفنا الاقامة في أمة	تداس بأقدام أربابها
وسرنا لنفلت من خزيها	كراما ، ونخلص من عابها
وكم حية تنطوي حولنا	فننسل من بين أنيابها !

— ٧ —

تلك – أيها السادة – كلمة عن الملابسات والظروف والاوضاع التي أحاطت بالشاعر ورفاقه ، وهي في الوقت ذاته ضرورية من حيث انها تعين على تقدير الشعر الذي نعرض له الان .

وقيمة الشعر الذي سجله شاعر اليمن في ديوانه « ثورة الشعر » ليست في صورته الشعرية الفنية وحسب ، وانما هي في ذلك وفي مضمونه السياسي الانساني وروحه الثورية ، تلك الروح التي وقف بها الشاعر يتحدى نظاما من الحكم أهون ما يقال فيه انه غير انساني !

ودراسة الادب الثوري عامة والشعر منه خاصة تظهرنا على انه يسلك عادة واحدا من اتجاهين ، تبعا لاختلاف أمزجة الشعراء وطرقهم ووجهة نظرهم في خلق الشعور الثوري لدى الجماهير .

وعلى أساس هذين الاتجاهين يمكن تقسيم الشعر الثوري الى نوعين : النوع الاول شعر مباشر صريح في الدعوة الى الثورة والمناداة بها علانية ، مع الاصرار على عدم استعمال مرادفات لفظة « الثورة » ومشتقاتها ، حتى ولو أمكن الوزن العروضي من ذلك .

أما النوع الثاني فشعر يهدف الى بذر بذور الثورة في النفوس ، مع تعهدها الدائم المتصل ، بكل ما يخز النفوس ويهيجها ، بقصد احداث طاقة من الجيشان أو الانفعال الباطن ، تظل تغذى وتحمى حتى تبلغ درجة الغليان فالفوران فالانفجار ! والشاعر في البلوغ بالنفوس الى مثل هذه الحال ، يسلك سبلا شتى وطرائق مختلفة ، تبعا لاختلاف أنواع الوقود بالنسبة للزمان والمكان والاوضاع .

وشعر الزبيري هو من هذا النوع الاخير ، انه شعر يستمد مضمونه من كل العناصر المتفجرة ، وبه استطاع أخيرا أن يكون أحد الدافعين بالشعب الى مرتبة اليقين ، بألا سبيل الى النجاة مما يقاسيه من أهوال الا بالثورة ... فثار !

***

وقبل ان ينطلق الشاعر بشعره على طريق الثورة ، وخاصة بعد ان تمت له ولرفاقه كل عناصر اليقين الثوري ، نراه يستهل العمل الثوري بوضع المادة الاولى في دستور الكفاح الشعبي ، حتى تكون منطلقا ومبدأ له ، ولكل من اختار مثله طريق الشرف والجهاد . في هذه المادة يحدد الشاعر في قصيدة مفهوم الكفر والايمان بالوطن ، وكأني به في الوقت ذاته يريد لهذه القصيدة ان تكون شعار الثوار ، ونشيد الاحرار ، فيقول :

كفرت بعزمتي الصامدة	وقدسية الغضبة الحاقدة
وعمر شباب نذرت به	لشعبي ، وأهدافه الخالدة
وبالشهداء .. وأرواحهم	تراقبني من عل شاهدة
اذا أنا أيدت حكم الطغاة	وهادنتهم ساعة واحدة

***

كفرت بعهد الطغاة البغاة	وما زخرفوه ... وما زيفوه
وأكبرت نفسي عن أن أكو	ن عبدا لطاغية توجوه
وعن ان يراني شعبي الذي	يعذب عونا لمن عذبوه
أأجثو على ركبتي خاشعا	لجثة طاغية حنطوه ؟
أتعنو لطاغية جبهتي ؟	فمن هو ؟ من أصله ؟ من أبوه ؟

***

وآمنت بالشعب حتى وقد	رآه الورى جثة هامدة
تداعى حواليه أعداؤه	ليقتسموه على المائدة !
فهذا بشاو شهيد يعيث	وذاك يساوم في الفائدة
وذا لليتامى يهز السياط	لتعبث بالجثث الراقدة !
وكم من وليد حذار الحمام	رأى نفسه صافعا والده !

***

سأمضي عنيدا فلا أنثني	وأحيا كريما .. فلا أنحني
وأرفع نحو السما جبهتي	كما ارتفعت جبهة المؤمن
أموت خميصا ولا أقبل الـ	فتات من القاتل المحسن
أأطعم من قاتل أمتي	أرى الدم في كفه المنتن ؟
فلا نبضت نخبوة في دمي	ولا عزني شرف الموطن
اذا حدت عن مبدئي أو رضيت	بعيش من العار مستهجن !

ثم تمضي التجربة الثورية في طريقها ، وتزداد كل يوم دسامة وعمقا ، فاذا الشاعر يستلهمها ، ويضيف الى دستور الكفاح الشعبي مواد أخرى يلخصها بقوله :

لنمت أو نعش على الارض أحرا	را .. ولا عاش من يسيغ الاهانة
ان شعبا يرضى الحياة سجينا	لا يساوي في قيمة .. سجانه
وحياة تصان بالهول والاذ	لال .. ليست خليقة بالصيانة
ودماء تنمو على الضيم رجس	نجسات كراتها .. خوانة !
كل شعب محا أساطيره السودووا	ري تحت الثرى أوثانه
قد تلاشت كل العهود الذليلا	ت ، وبادت كل الشعوب المهانة
واستحالت عبادة الناس للنا	س ، وأمسى حمل القيود خيانة !

— ٨ —

والان ، وبعد أن حدد دستور الكفاح الشعبي وأعلنه ، يشرع قلمه ، ويتقدم الى ميدان المعركة ، ولكن بأي الجبهات يبدأ ؟ انه يبدأ بالتوعية الثورية في صفوف الجبهة الشعبية وهنا نرى الشاعر يعرض على الشعب صورا من حياته البائسة ، وواقعه الاليم ، وكرامته المهدرة وانسانيته الرخيصة المضيعة ، فلعله ان يفزع من بشاعتها وشناعتها فيثأر لنفسه .

ففي صورة من هذه الصور يتلفت الشاعر حوله فيرى الشعب بائسا جائعا عاثرا في شقائه ، وعلى الرغم من قيام الاحرار بالثأر له

فانه لا ينهض بالثورة مع تهيؤ دواعيها ، فلا يملك الا ان يخاطبه في عجب :

أيها البائس الخميص ! متى تنـ   هض من كبوة الشقاء المديد ؟
قد غذوناك من دماء الباليـ   ـل ، ومن أكبد الملوك الصيد !
فلماذا نراك نضوا كما كنـ   ـت ؟ فهل أنت طامع في المزيد ؟

وفي صورة اخرى يصور الشاعر دهشة الاحرار المثاليين من المدى الذي وصل اليه فزع الشعب من قسوة الامام يحيى ، فكيف ان شبح هذا الامام حتى بعد مصرعه عام ١٩٤٨ يظل مصدر خوف للشعب ؟ ألم يروه بأعينهم مقتولا مقبورا ؟ لماذا يظل يتمثل لهم في كل ما تقع عليه أعينهم من انسان وحيوان وجماد ؟ يا لله ! أي طاغية هذا الذي يظل وجهه الرهيب يرعب الناس بعد موته ويبدو لهم في كل شيء ؟

رب ! هذا الامام أشلاء مقتو   ل ، وهذا قبر ..! وهذا رغام !
ورحاب الجحيم يصنع فيها   كل شيء من أجله ، ويقام !
يعجب الموت انه لم يمت منـ   ـه ، ولم ينج من أذاه الانام
وزعت روحه على الارض يرتا   ع اليمانون منه حيث أقاموا
فاذا بالحياة شنعاء ... فيها   كل شخص ، وكل شيء امام !

وفي صورة ثالثة يصور حال العزلة الطويلة المفروضة على الشعب اليمني ، ويعجب كيف ان بعض الحكومات العربية تشجع حكامه على الاستبداد به ، في الوقت الذي كان يتوقع بحق الاخوة العربية ان يساندوه في كفاحه ، ويعاونوه في الخروج من محنته . في هذه الصورة يقول الشاعر :

ظل في العزلة الطويلة حتى   كاد ان يدعي الورى فقدانه !
وتناسى ذوو الوشيجة قربا   ه ، أينسى ـ عفوا ـ أخ اخوانه؟
زعموا انه بعيد ..! ولو ما   ت لديهم ما شيعوا جثمانه !
ودعاهم قحطان يصرخ من هو   ل الافاعي .. فشجعوا افعوانه !
ليتشعري ما بالهم أعرضوا عنـ   ـه ، وداسوا دموعه الهتانة ؟
أتواصوا بمحوه من على الار   ض، ام استصغروا على الارض شانه؟

وفي أعقاب ثورة ١٩٤٨ ، تلك الثورة التي قتل فيها الامام يحيى وبعض بنيه ورجاله ، تكتسح اليمن موجة من اليأس ، ويركع الشعب أمام الطغاة ، وتتكاثر التهاني والمبايعات للجلادين ، ولكن روح الشاعر التي تستشف الواقع ، وتلمح ما وراءه من اصرار القوى الشعبية على المضي في الكفاح مهما كان الثمن ، تعبر عن ذلك الواقع وتصوره في هذه الصورة :

من وراء الاكذوبة المعبوده   والتهاني الذليلة الرعديده
والهتافات والضراعات للاصـ   ـنام في ضجة الطبول البليده
والمزاد الذي يجدد بيع   الشعب فيه بالبيعة المنكوده
والعهود التي يكررها الطا   غي كآبائه ... ليشرى عبيده !
ورؤوس الابطال يلهو وليد   القصر لهوا بها .. وتلهو وليده
والمحاذير والمخاوف تغتا   ل الضحايا المفجوعة المفئوده
والقنوط الوحشي يفترس الاحرار   في ظلمة السجون البعيده
ألمح الشعب قابعا يدرس الثـ   ـورة.. كيما يأتي بأخرى جديدة !

ويبدو ان ما قاله الزبيري ورفاقه من شعر التوعية الشعبية قد أدى دوره في اثارة روح التذمر والسخط والتمرد . فهذه قبيلة حاشد مثلا ، وهي من اكبر قبائل اليمن ، تشق عصا الطاعة على الامام أحمد ، وينادي شيخها حسن بن ناصر الاحمر بالجمهورية ضد الملكية والائمة ، وان كان لم ينج هذا الشيخ هو وابنه حميد البطل اليمني من سيف الامام ، فقد ظفر بهما بعد ان استسلما بالامان والوجه، ثم أعدمهما غدرا وخيانة في يوم واحد بادئا بالابن ومثنيا بالاب !

ومهما قيل في هذه الانتفاضة التي انتهت الى مأساة فان الشاعر رأى فيها بوادر وعي وثورة على الطغيان والظلم ، ولهذا لم يفته ان يشيد بها ويحييها بقوله :

الملايين العطاش المشرئبة   بدأت تقتلع الطاغي وصحبه
سامها الحرمان دهرا لا يرى الـ   ـغيث الا غيثه والسحب سحبه
لم تنل جرعة ماء دون ان   تتقاضاها بحرب او بغضبة
ظمئت في قيده وهي ترى   أكاله من دمها الغالي وشربه
ها هو الشعب صحا من خطبه   بينما الطغيان يستقبل خطبه !

ـ ٩ ـ

ومن جبهة النوعية الثورية يتجه الشاعر الى جبهة تجار الوطنية ودعاة التخاذل والاستسلام . ثم يبدأ أزل ما يبدأ بتجار الوطنية الجاهلين بحقوق الوطن ، والخائنيه لدى أعدائه ، فيفضحهم بقوله :

وكم جاهل بحقوق الوطن   يريد على كل خطو ثمن !
اذا وخزت رجله شوكة   تقاضى جزاء عليها ومن
فان لم يحقق هواه النضا   ل ، ثار على شعبه واضطغن
وراح يلوث طهر الكفاح   ويبدي العيوب ، ويذكي الفتن
وقدم شكوى بنا للامام   بمن ويحه يشتكي ؟ ولمن ؟
وعوذه ضد بطش الأنه   روعي الشعوب ، وسير الزمن
وبشره بانتهاء الكفاح   ووضع السلاح وموت اليمن
وان الملايين لا ترتجيه   غير الدعاء وغير الكفن !
وغير الصلاة على نعشها   وبقيا خليفتها ... المؤتمن !

أما دعاة التخاذل والاستسلام فيرى الشاعر من أمرهم عجبا ! فعندما أخذ نشاط الحركة الوطنية اليمنية يمتد الى عدن ، أشفق أولئك المتخاذلون على أنفسهم ، وراحوا ، بدافع من الجبن ، يعملون على ابعاد الاحرار عن المجتمع اليمني في عدن ، ويطاردونهم بشعارات العبيد كقولهم : « لا تحرقونا بناركم ! » فهل يسكت الشاعر عن هؤلاء ؟ كلا ! ان عليه ان يقاوم هذا الشعور الانهزامي كي لا يستشري ! وقد فعل ... في قصيدة صيغ مضمونها من عصارة التهكم والسخرية ، منها :

دعونا ولا تقربوا جمعنا   ولا تحرقونا بنيرانكم !
رضينا بانا عبيد الامام   وأنا كما شاء عمي وصم !
نكبل أقدامنا بالقيود   ونعقل أفواهنا باللجم !
ونفرش مضجعنا بالغباء   ونقنع من عيشنا بالحلم
فماذا علينا .. لو انا نعيـ   ـش أعمارنا في الدجى المدلهم ؟

***

وهبنا الحياة لاوثاننا ..   ونبض القلوب ، ونور البصر
فما نبتغي من شعاع الشموس ؟   وما نرتجي من ضياء القمر ؟
وفي الحشرات ... لنا اسوة   تزهدنا في حياة البشر ..
وفي عالم الدود عيش هنيء   هبطنا الى مستواه الاغر ..
ولو نستطيع النزول البعيد   نزلنا لمستويات الحجر !

ـ ١٠ ـ

ثم يخطر للشاعر فينتقل الى جبهة أعوان الائمة ، ممن وجدوا أنفسهم ـ كما يقول الشاعر ـ في محراب الوثنية الامامية ، يقدمون فروض التقديس والتمجيد ، والطاعة الذليلة ، والانقياد المطلق الاحمق ، لابشع ضروب الكائنات البشرية رجعية وانحلالا ، وفسادا وطغيانا ، بعد أن قطع الشعب شوطا بعيدا في كشف خبيئتهم وتمزيق أقنعتهم . وهؤلاء يصطنع الشاعر في محاربتهم والتنديد بمهانتهم أسلوب السخرية اللاذع القاتل :

أعلنوا في الارض ان الشعب قد أصبح عبدا
لم يجد من وثن ـ يعبد دون الله ـ بدا
قدموا منه القرابين الى الطغيان تهدى .
وانثروا فوق خطى السفاك أزهارا ووردا
واجعلوا كل دم يسفكه .. فخرا ومجدا
أوهموه انكم متم تباريحا ... ووجدا
وتعذبتم لدى غيبته .. غما .. وسهدا
وبأن الشعب ما جاع طوى ... بل جاع فقدا !
انما يرجوه أن يمنحه ... غلا وقيدا
ومزيدا من دواهيه ... وتقتيلا وجلدا
وبأن يبقى على العرش الاله المستبدا

شجعوه وادفعوه كي يسوس الحكم فردا
ويصير الواحد القهار والرب المفدى !
واجعلوه لا يرى عيبا ولا يسمع نقدا
والعنوا الاحرار كي تشفي حمياه وتهددا
وخذوا الاجرة منه ، رتبا عليا ... ونقدا
رب تغرير بطغيان من الثورة أجدى !

ويحدثنا الشاعر عن انفجار طلائع الثورة عقب قيام الامام احمد برحلة الى روما ، وعما زعمه أعوانه وقتذاك من أن الامن قد غاب عن الشعب اليمني بغيابه وان هذا الشعب بدون جلادين وسفاكين شعب فاسد التكوين ، عاجز عن الطمأنينة والامن !

وباعجب من ذلك يحدثنا بأن التوقيع الرسمي الملكي المعتمد للامام والذي هو « الله احمد » ! كان في حقيقته تورية يدل معناها البعيد الخفي المراد على ان « أحمد هو الله » !

ويشفق الشاعر من ان يلقى زعم أعوان الامام أي صدى شعبي ، فيطلق صيحة مدوية ، يبدد بها هذا الزعم أو الوهم ، ويتندر بالتوقيع الاحمدي ، ثائرا في الوقت ذاته على هذه الوثنية اللاشعورية، التي تؤله الامام ، وتجعل من فرد عاجز مريض علة وجود الشعب وأمنه ! وعن هذا وذاك يقول الشاعر من قصيدة طويلة :

اصرخوا في الاذان : الله أحمد ... واجعلوه ربا سوى الله يعبد
وازعموا انه الحفيظ على الار ... واح ، والمستعان في كل مقصد !
والخبير العليم... عيناه فيكل ... مكان ترى الخفايا وتشهد
والمنيع المسحور ... لا ينفذ الخنجر فيه ، ولا الرصاص المسدد
في يديه الارزاق يمنحها من ... شاء من شعبه ، فيغني ويسعد
وهو ان شاء يمنع الرزق عن عب ... د ، فيعيا عن حيلة ويشرد !
وهو روح في الشعب..لو تهجر الش ... عب ، تلاشى كجيفة .. وتبدد
وهو الدين والشريعة .. لو فا ... رقه شعبنا ... لألحد وارتد
مقلتاه الكبيرتان تحوط الشع ... ب من كل طارق .. يتهدد !

***

ولنسلم .. بأنه كل شيء ! ... ولنقل : انه اله تجسد
غير انا نراه يمرض كالنا ... س ، ويحيا حياة من لا يخلد
أيها الواضعون كل مصير ... لهم في أحضان شيخ مسود
قدموا من رؤوسكم قطع التد ... بير ، أن شل رأسه أو تبلد
فاذا ما استطعتم ذاك .. فزتم ... بأمان ضد المخاطر سرمد
واذا ما عجزتم ... وعرفتم ... انه اليوم قد يموت او الغد
فاطلبوا أمنكم من الشعب..ان الش ... عب باق ... وقادر ان تمهد
ليس أمنا .. الا الذي وهب الش ... عب ... ولا ذمة سوى ما تقلد
ليس مالا.. تلك الدماء التي امتصت ، وقلتم عنها : نضار وعسجد
كل قرش نهبتم ... ليس الا ... قاتلا .. غال جائعا وتعمد ؟

***

أيها الآمنون ... أخطر أمن ... أيها النائمون ... في شر مرقد
أيها التائهون عجبا .. لان الشعب في محنة الظلام .. مقيد
أيها الراقصون فوق حطام الشع ... ب ، والشعب صابر يتجلد
أيها الضاحكون.. والشعب يبكي ... أيها الرافهون..والشعب يجلد !
لا يغرنكم سكون من الما ... رد ، يبدي الخنوع وهو مصفد
يومه قادم .. فويل لمن وا ... جه يوم الحساب غير مزود !

***

عجبا للجبان ... يستمنح الظلم ... أمانا ... للشعب أبقى وأخلد
يتوقى اغضاب محتضر فا ... ن...ويسني شعبا صحا وتمرد !

— ١١ —

ومن جبهة أعوان الحكم البائد في اليمن ، ينتقل الشاعر الى جبهة الائمة أنفسهم فيهاجمهم في قلاعهم وحصونهم ، ويشهر بحكمهم الذي قلما شهد التاريخ له نظيرا في الطغيان والاستبداد ! وللشاعر في هذه المعركة مواقف عبر عنها في قصائد باهرة ، لا يتسع المجال لذكرها ، ولكني أكتفي هنا بنموذج واحد منها للدلالة على قيمتها الفنية والسياسية .

وقد استوحى الشاعر موضوع هذه القصيدة من موقف الامام أحمد عقب عودته من روما ، على اثر استدعاء أعوانه له ، واستنجادهم به في اخماد الثورة التي قامت في غيابه ، باعتباره رمز الرعب ، ووسيلة الغاء الوجود الشعبي .

فالامام لم يكد يصل الحديده عائدا من روما ، حتى وقف يحيي الشعب على طريقة الطغاة ، ولم تكن هذه التحية غير خطاب متوحش هدد فيه بقطع الرؤوس والايدي والارجل ، وطالب الشعب ان يبارزه ان أراد ..

وقد بارزه الشاعر باسم الشعب ونيابة عنه بملحمة شعرية كالبراكين ، يقذف كل بيت فيها باللهب والحمم في وجه الطاغية ، وهاكم بعض صورها :

خطبة الموت فاسمعوها وطيروا ... فرحا ، وارقصوا لصوت المنية
أنتم في استقبال موكب جزا ... ر ، فمدوا رقابكم .. للتحية
صدئت مدية الامامة فاستم ... نح ايطاليا مدى بابوية !
أنهك الذبح سيفه فأتانا ... بسيوف معارة ... أجنبية !

***

روح نيرون مازجت روح حجا ... ج ، فجاءت أعجوبة في البلية !
وأتى شعبه يهدده ... جهـ ... لا ببعث الرجعية الجاهلية
يتباهى بأنه الهول والوي ... ل ، ورمز الطغيان والعنجهية
لم يسل نفسه عن الشعب : كم كا ... بد في ظل حكمه من رزية !
لا يبالي مجاعة الشعب ما دا ... مت تفيد التجارة الجبلية
يتباكى تسولا باسم شعب ... أرضه بالكنوز ملأى غنية !
يجمع المال للجياع ، فلا يشـ ... بع الا الخزائن المصرفية
وهبات تصدق الغرب والشرق بها في المجاعة الشعبية
باعها لليهود تجاره الاشـ ... رار ، في شر صفقة سرية
يقتل الجوع شعبه... وهو لاه ... يشتكي للطليان ضعف الشهية !

***

يستغل الاسلام حتى كان الد ... ين يبدو كسلعة .. أحمدية !
وكان الشرع الشريف كما شا ... ءت امانيه – للمخازي مطية
وكان الطغيان والقتل والسلـ ... ب فنون من العلى قدسية
وينادي : شريعة الله ، والله ... ه بريء ... من العروش الغوية !
لو رأى الله قلبه لتهاوى ... وتخلى عن كل مسؤولية ...!
ولالقى للشعب بالتاج يبني ... بيديه الحكومة الوطنية
وأراح البلاد من همه العا ... تي ، وأمراض عرشه الابدية !
وتوارى عن شعبه خجلا منـ ... ـه ، وأحنى جبينه للرعية !
وأبى أن تمحى البلاد ويفنى الشعب... من اجل نزوة شخصية !

***

ليس في الدين أن نقيم على الضيـ ... م ، ونحني جباهنا للدنية
ليس في الدين ان نؤله طغيا ... نا ، ونعنو للسلطة البربرية
ليس في الدين ان نقدس جلا ... دا ، ويمناه ... من دمانا روية !
الركوع الذليل في غير وجه الل ... ه ، رجعى بنا الى الوثنية !

***

أطلق الشعب من اسار ومكنـ ... ـه من الحكم في الخطوب العصية
أعطه حقه ورد .. اليه ... دون بطء حياته الملغية
ليس في الدين ان نكون بلا رأ ... ي ... ولا عزة .. ولا حرية
طبع الله في جوانحنا البأ ... س .. وسوى لنا الانوف الحمية
وجرى روح الله عبر خلايا ... نا ... مزيجا بروحنا الوطنية
والمزايا في الشعب للبعض دون الـ ... بعض ، سم الاخوة القومية
وعدو الجميع من يحكم الشعـ ... ب باسم القداسة العائلية
نحن أدنى لله من كل جبا ... ر ، وأولى بالشرعة النبوية
لا سيوف تذلنا ، لا سجون ... تصنع الرق في دمانا الابية
وسجون الارهاب والبطش والـ ... رق ، عقاقير ... باليات غبية !
فتناله ... وخذ مكانك فوق الشـ ... مس..فوق العلياء .. فوق البرية

واتخذ سلما من الانجم الزهـ ـر ، ونعلا من أكبد البشرية
وتنمر .. وابعث لنا هول عينيـ ـك خلال الاشعة الكونيبة
وابتعد واحتجب، وكن أنت لغزا طي لغز المالية اليمنية
حيثما تختبيء من الشعب يدركـ ـك ، ولو في الكواكب الروسية
وتفجر صواعقا ... وتحول طبقا طائرا أو ارق رقيقة
وتوعد ما شئت..واقتل، ودمر واستعن بالجحافل الدولية
نحن قوم لا تحمل السيف أيديـ ـنا ، ولا خنجرا ... ولا بندقية
غير انا عزم ... نسير كعزم اللـ ـه في دربنا ، ونمضي مضيه
ضربة من ارادة الشعب بالسو ط ، تذل القنابل الذرية !

وتتمة لهذا الموضوع لا يكتفي الشاعر في مبارزته للامام بالجولة الاولى ، وانما يتبعها بجولة اخرى بغية الاجهاز عليه وعلى أعوانه الزاعمين بأن الشعب يخاف من نفسه ! في هذه الجولة يسأل الشاعر في انكار : هل يخاف الشعب من نفسه ؟ ثم يبادر فيجيب عن السؤال بقوله :

يقولون : غاب الامن اذا غبت عنهم فما خطبهم، يا ليت شعري او من هم؟
أشعب يخاف الشعب؟ فليهبطوا اذن جهنم ، أو تهبط عليهم جهنم
ألا يستطيع السير... الا مقيد ؟ ألا يستطيب العيش الا منوم ؟
ألا يمنح الناس بأرضنا الا بية الا السجن، والقيد، والدم ؟

***

يقولون : هذا الشعب عبد تلذه السياط ... ويعطيه الهناءة علقم
فان كنته يا شعب.. فافرح بعهدك الـ ـذي أنت فيه مستضام ومرغم
وطب بالكرى عينا.. فانك موثق وعش صامتا..واهنأ فانك ملجم
ولا تخش من زلزال شعر أصوغه فانك ـ قد قالوا ـ أصم وأبكم !
ولا تتحرك .. لو تحرك جندل ولا تتكلم .. لو تكلم أعجم !
ولا ترتقب فجرا .. فحولك ظلمة تفوص بها كل النجوم وتظلم
وكن آمنا من لسعة النحل انه سيحميك ذئب أو يداويك أرقم !
هراء يقول الكافرون بشعبهم فسحقا لما فاهوا به وتكلموا

— ١٢ —

ويشاهد أحوال الرجعية العربية التي اصطنعها الاستعمار اداة لتحقيق مآربه فيصفها بقوله :

وازدرانا العدى فاضفوا على أصـ ـنامنا البله خافقات البنود
جعلوا منهم حمى ... للخيانا ت ، وجسرا للغزو والتهديد
وسلاحا لقتل كل شريف واداة لهدم كل مشيد
منذ كانوا أجنة فهم امـا ملوك ، أو أولياء عهود !
يرثون الشعوب ارثا رخيصا دون كد ، ودون بذل جهود .
كيف يأتيهم الشعور بأنا .. آدميون مثلهم في الوجود ؟
سوف لا تشترى الشعوب ولا تبتا ع ... من ماجن ، ولا عربيد
فقد الاجنبي آماله فيهم فلم يبق عندهم .. من رصيد !

ويصف الشاعر انطباعه عن مصر وشعبها في عهدها الجديد فيقول :

اني لأحيا بالمعزة في بلاد الاكرمين
الرافعي علم العروبة فوق هام العالمين
الصامدين أمام تيار الاعادي الطامعين
الواقفين مواقف الآساد في قلب العرين
الساحقين بعزمة الابطال هام المعتدين
الحاملين على عواتق حكمهم عبء القرون
الصاعدين الى الذرى متضامنين مصممين
الطالعين على الظلام طليعة الصبح المبين
الصانعين نواة وحدتنا ، تراث الاولين
المنقذين قنالنا من قبضة المتلصصين
المنصفين الفقر من شطط الغواة المترفين !
الباعثين من التراب جلال ماضينا الامين
كره العدى لهم دليل أن حكمهم أمين
بشرى لنا انا نؤازر عهدهم متجمعين
حرب المصائر لو خبرناها هلكنا أجمعين !

— ١٣ —

ثم لا يقف الشاعر بشعره عند حدود اليمن وما يضطرب في داخله من صراع بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والعدل والظلم ، والحرية والاستعباد . انما نراه بالاضافة الى كفاحه السياسي في الميدان الداخلي يعبر الحدود الى حيث يشرق ويغرب في أرجاء وطنه الاكبر ، منفعلا بأحداثه معبرا عنها بشعره .

وعلى سبيل المثال تهزه ثورة العراق الاولى فيحيي ميلادها بقصيدة منها :

صيحة الشعب في بلاد الرشيد أشعليها نارا وثوري وزيدي
ازحفي كالطوفان ياثورة الشعـ ـب الينا ... ودمدمي كالرعود
طهري جونا من الموت والصمـ ـت ، وهزي لنا بقايا لحود
اخوة نحن في القيود ... فهيا لنكن اخوة بخلع القيود
الطغاة الألى أغصوكم الريـ ـق ... بقاياهم لنا في الوريد
وهم عندنا أراقم تخفي السم في لونها الجميل الودود !

ويصور حال شعبه الذي وقع ضحية وفريسة بين غاصب محتل وحاكم ظالم مستبد فيقول :

نصف قرن عشنا ينام به المحتل .. في أرضنا كنوم الوليد
هجعا كالفراغ لا يزعج المحـ ـتل منا غير السراب البعيد !
شطرنا يستغيث من غاصب فظ وشطر ... من مستبد عنيد !
وكلا القاتلين ينهش في جثة شعب نهش النهوم الحقود !
فاذا ما تصايحا ... فكقطين استباحا أشلاء جسم بديد !

ويدل بشعره على أعدى أعداء العروبة فيقول :

شر ما يقتل العروبة أوثا ن نربي طغيانها في المهود !
ونفذي فيها الوهية الافـ ـك ، ونعنو لسخفها بالسجود
ونريها بأنها الرمز للعليـ ـا ، بلا علياء ولا مجهود !
تقتل الشعب أو تخون فلا تسمع غير التقديس والتمجيد !

وبعد ... فان من الصفات التي يتحلى بها من يتصدون للقيادات الجماهيرية ومن يختارهم القدر للوقوف امام قوى البغي والشر انهم لا يشكون او يبكون مما يصيبهم من بلاء أو مكروه في سبيل تحقيق ما ندبهم القدر له . بل انهم على العكس من ذلك يجدون في الاضطهاد والتعذيب من أجل العقيدة والمبادىء حافزا على مضاعفة الكفاح والاصرار عليه ، لانهم لا يتوقعون من اعداء الحياة المناهضين لهم خيرا أو سلاما .

ولكن أشد ما يؤلمهم ويوجعهم حقا ان يجدوا ممن يدافعون عنهم وعن حقوقهم من يتشكك في حسن نواياهم ، ويقذفهم بالتهم الباطلة في وجوههم ! وذلك ما حدث للشاعر ورفاقه الاحرار ، فانهم لم يسلموا ممن يحسدونهم على التفاف الشعب حولهم والثقة بهم !

فماذا قال الشاعر لهؤلاء القاعدين المعوقين ، الحالمين بمجد بلا ثمن ؟ لا شيء أكثر من عتاب وانذار : عتاب لاولئك الحاسدين ، وانذار نهائي يوجهه الى حكام اليمن .

أما عتابه للحاسدين ، والذي يدل على مدى أريحية العربي الاصيل ولطف شمائله فيقول فيه :

أيها الغاضبون من ثقة الشعـ ـب بنا .. والمؤلبون علينا
أيها المرهقون .. يأسا وغما وانهماكا في هدم ما قد بنينا
أيها الحاسدون من أجل عبء قد ونينا من ثقله وانحنينا
لو حملتم من امره ما حملنا لاشتكيتم من الاسى ما اشتكينا !

***

أيها الزاعمون انا احتكرنا دعوة الحق وحدنا وانزوينا
ما احتكرنا نضالنا .. بل دعونا فرفضتم ان تفهموا ما عنينا
هالكم صبرنا على كل خطب فوقفتم من ذعركم ومضينا
أنتم..ليس نحن.. غبتم..ليبقى شرف الحق كله في يدينا ..

يعـــلم الله اننا نتمشى ..   لو رجعتم .. بعد العقوق الينا
بل وندعو .. ان تسبقونا وتجنوا   ثمرات الختام مما ابتدينا !

***

أيها الكارهون أن يقبل الشعـ   ـب علينا ... بالله ماذا جنينا ؟
عرفتنـــا آهاتـه .. ومآسـ   ـيه ، فنؤنا بنارها واصطلينا
سقمـه يعـرف العلاج بأيديـ   ـنا ، ويدري بوعيه كم شفينا
أي ذنب لنا .. اذا عـرف الشعـ   ـب لنا اننا له قـد وفينا ؟
جرحه دله على جرحنـا الدا   مي ، فسوى ما بيننا واستوينا
دمعــه شاهد بأنا شربنـــا   ه كؤوسا من الاسى واحتسينا
خطبه عاش بيننا .. فهو يدري   كم جرينا ... لطبه وسعينا !
أذنـه لا تكاد تسمع مرثـــا   ة تعزية غير ما قـد رثينـــا
صهرتنا آلامه ... فامتزجنـا   واتحدنـا بروحه .. والتقينا
منحونا الدنيا لكي ننبذ الشعـ   ـب ، ونغضي عن ظلمهم فأبينا !
ويبيعـون ألف تاج بأسمـــا   ل فقير من شعبنا .. ما شرينا !

أما انذاره النهائي الى حكام اليمن الواقفين باصرار وطغيان في طريق انبعاث الشعب وتقدمه فيقـول فيـه :

أيها الظالمون .. أهي صخـور   ما هززنا منكم ، وما نادينـا ؟
احذروا يوم الشعب يـوم يلاقيـ   ـكم ، ويعطي الدرس الذي أعطينا
ويقول النوام : ها نحـن أحرا   ر .. سحقنا هول الدجى وصحونا !
يوم ينقض شعبنـا كالبراكيـ   ـن ، يريكم من امره ما أرينا
وترون الجمهـور جن فلا يعـ   ـرف لينا ، ولا يخاطب هونا
من عبيد ... تخر آلهة اليو   م لهم سجدا .. وتطلب عونا !
وحفـاه يبغون من جلد جنكيـ   ـز حذاء .. يقضي لهم منه دينا
وجياع تضج كالرعد فيكم :   أطعمونا من لحمكم ما اشتهينا
وقبور تنشق عمن قتلتـم   فينادونكم : ألا قـد اتينا !
وكنـوز من الحرام يراهـا   مفتنوها الطغاة .. هلكا وحينا
وقصور .. يفر منها ذووهـا   ويقولون : ليتنا ما بنينـا !!

— ١٤ —

أجل — أيها الحفل الكريم — لقد أكرهتهم ثورة الشعب اليمني أخيرا على ان يفروا من قصورهم ، متنكرين مذعورين الى خارج الحدود، عظة وعبرة لامثالهم الطغاة ، ممن يعيشون بعقلية عصور الظلام !

وبعد ... فان التنقل مع الشاعر في ديوانه « ثورة الشعر » فيه متعة للنفس ، وغذاء للقلب والعقل ، واذكاء للشعور ، ولا أزعم اني بجولة الليلة فيه قد ألممت بكل أبعاده ، وان كانت قد دلت على محتواه . وهو محتوى اذا أخذناه نموذجا للشعر اليمني المعاصر ، فانه — بلا شك — يعطينا صورة واضحة عن الدور الطليعي الذي قام به هذا الشعر في التوعية الثورية ، تلك التي انتهت بالشعب الى اليقظة فالحركة ، فتحطيم القيود ، فالثورة ، فالانطلاق في أمل وايمان الى تشكيل مصيره حرا كما يريد ، لا كما يريد له حكام العهد البائد !

ولعلكم على ضوء النماذج التي ذكرتها الليلة تشاركونني الرأي في ان هذا الشعر السياسي الثوري وليد تجارب ذاتية ، وانه يتميز بالقوة والجمال ، والصراحة والجرأة ، والصدق في الشعور والتعبير عن نزعة الشاعر واتجاهه القومي .

واذا بحثنا عن العناصر التي أعانته على البلوغ بشعره الى هذه المكانة المرموقة ، فاننا نجدها في أصالة شاعريته التي تهيأت لهـا كل عناصر الشعر الرفيع ، وفي رهافة حسه ، وصوفيته التي لم تفسدها الحضارة المادية بترفها ولهوها ، وفي شعوره بالظلم المفروض ظلما على شعب من أذكى الشعوب العربية وأعرقها حضارة ، ثم في عقيدته الوطنية الخالصة ، عقيدته التي تأبى المساومة على الحق ، وتنكر الهوادة في طلبه !

واذا كان الزبيري قد قصر شعره أو معظمه — كما يقول — على مذهبه السياسي ، فانه نجح في تطويع كثير من أغراض الشعر واحالتها الى أغراض سياسية ، يستلهم فيها عقيدته ، ويستوحي مضمونهـا من احداث الوطن وواقع حياة الشعب ونضاله . ومعنى ذلك انه وهب شعره لعقيدته ، وفني فيها فناء تاما .

أما عن سمات شعره وخصائصه ، فيمكن تلخيصها في سمة أو خصيصة واحدة ، هي الجدة في كل شيء :

فهو جديد في مضمونه ، لانه شعر مذهبي عقيدي أوجدته ظروف اليمن في مرحلة المخاض الثوري ، واستمد عناصره السياسية منها .

وهو جديد في معانيه ، فكلها قد اقتبسها الشاعر من أحلام الغد المرجو ومن وهج الصراع الناشب في يمن ما قبل الثورة بين قوى الخير والشر ! مع التعبير عن كثير من هذه المعاني بأسلوب السخرية والتهكم اللاذع !

وهو جديد في الوسائل التي استخدمها لتحقيق هدفه من الثورة على حكم الطغيان والفساد ، والتخلف والجهل ، وهز روح الشعب وكرامته كي يغضب ، فيثأر لنفسه ، وينتزع حقوقه المغتصبة ، من مخالب المغتصبين !

وهو جديد في أخلاق صاحبه وعواطفه ، لما تجلى فيه من وفاء للعقيدة ، وثبات على المبدأ ، وصمود في الكفاح ، وفدائية في البذل ، وجرأة في الحق ، والزام للنفس بما يلزم وفوق ما يلزم ، وتعاطف مع الشعب ، وايمان به على الرغم من كل شيء !

ثم هو جديد في دماثة لغته ، وجمال أسلوبه ، واشراق ديباجته ، ونفوذ خياله ، وعذوبة موسيقاه !

وبهذه الجدة المتعددة الجوانب في اطاره اليمني انفصل شعر الزبيري عن سابقه ، وربما عن كثير من الشعر اليمني المعاصر ، حتى صار لونا مستقلا بذاته يعرف به . وهو بالنسبة لسياسة اليوم شبيه بشعر الخوارج بالنسبة لسياسة الامس .

ومن العسير على دارس ديوان « ثورة الشعر » ان يفصل نشاط صاحبه السياسي عن نشاطه الشعري لاقترانهما وتلازمهما . فكلاهما متأثر بالاخر مؤثر فيه . ومن ثم فالدارس لهذا الديوان يجد نفسه أمام شاعر سياسي او سياسي شاعر !

على ان الزبيري في الواقع ليس الا واحدا من شعراء كثيرين أظهرهم الشعب اليمني خلال نضاله الطويل ، وكفاحه الشاق المرير ضد حكام متألهين مستبدين ، حكام يريدون ان يميتوا شعبا حيا اولا ، ثم يحكمونه ثانيا على صورة ينطبق عليهم فيها قول شوقي في السلطان عبد الحميد :

ما في رعاياك من تخشى عداوته   فاحكم ، فانت على الاموات سلطان !

فاذا أخذنا مثالا لشعراء اليمن الاحرار ، فاننا نستطيع الحكم بأن الشعر اليمني المعاصر قد نهض وتطور ، وقام بدور أساسي في تاريخ اليمن السياسي والاجتماعي الحديث ، مع بلوغه في الوقت ذاته من الناحية الفنية درجة ملحوظة من الاصالة والتجديد ...

***

ولكن أين الزبيري بعد الثورة المباركة ؟ انه هناك في اليمن ، لم يلق سلاحه ، ولم يتوقف لحظة عن العمل والكفاح !

انه يساهم اليوم في معركة البناء القومي وزيرا للتعليم ، وفي يده مشعل ثوري يبدد بنوره ظلام الجهل ، الذي فرض على اليمن ظلما منذ أجيال وقرون !

فتحية واكبارا لأخ عربي مناضل ... شاعر ثائر !
تحية له ولرفاقه الاحرار ، من شهداء وأحياء !
وتحية للثورة المباركة وزعمائها !
ثم تحية للشعب الذي صبر وانتظر ، ثم حطم القيد وانتصر !
وليكن شعار اليمن منذ ميلاد الثورة وأبدا :
الى الامام ، الى الامام ..!!

عبد العزيز عتيق

المرأة إذا شاءت...

بقلم يوسف خوري

في تلك السنة من القرن السادس الميلادي، أوشك ان لا يكون للناس حديث الا هذه الحرب، المندلع أوارها منذ أعوام، بين بني عبس وبني ذبيان، على اثر السباق المشؤوم. فلقد طال التناحر بين القبيلتين حتى كادت زهرة فتيانهما يحصدها السيف فلا تبقى أم عبسية أو ذبيانية الا وذاقت مرارة الثكل ولوعته.

ولكن الحارث بن عوف، سيد بني مرة، صرف الحديث عن الحرب الى أمر آخر استأثر بهمه كل استئثار. فهو يريد ان يتزوج. وهو معتز بماله وجاهه. فيقول لجليسه خارجة بن سنان المرّي:

ــ يا خارجة! أتراني أخطب الى احد في العرب ابنته، فيردني؟

وشد ما كانت دهشته حين أتاه الجواب:

ــ نعم، ان أوس بن حارثة بن لام الطائي يردك اذا خطبت اليه احدى بناته.

فوثب الحارث على فوره، وصاح بغلامه:

ــ يا غلام! ارحل بنا الى أوس بن حارثة الطائي! لا تبطىء لحظة عين.

وركب الحارث، وركب غلامه، وركب سنان بن خارجة، واندفعوا لا يلوون على شيء حتى بلغوا ديار أوس.

فقال أوس حين رأى الحارث:

ــ مرحبا بك.

رد الحارث:

ــ وبك أيضا. لقد جئتك خاطبا يا أوس. ولن انزل حتى تؤنسني بقبول.

أجاب أوس:

ــ يا صاحبي، لست والله هناك (١).

فارتبك الحارث وانصرف مغموما مقفل الشفتين.

أما أوس فدخل على امرأته، فتبينت في وجهه غضبا، فسألته:

ــ من الرجل الذي وقف عليك، فلم يطل بينكما الكلام؟

قال لها:

ــ يا اخت عبس (٢)، ذلك الحارث بن عوف المرّي.

ردت:

ــ الحارث بن عوف سيد العرب؟! ما بالك لم تعزم عليه؟ (٣).

أجابها:

ــ ان الرجل استحمق!

قالت: وكيف؟

قال: انه أتاني خاطبا.

فصاحت به: أوتريد أن تزوج بناتك، ام انت تريد ان تبقيهن عوانس؟ فان لم تزوج سيدا كالحارث بن عوف، فمن تزوج اذن؟ أسرع فتدارك ما كان منك.

رد أوس بعد اطراق:

ــ أراك، يا اخت عبس، قد غلوت في الطالب. فكيف أتدارك ما كان مني، وقد جبهت الرجل؟

أجابت:

ــ تلحقه الساعة، فتقول له: انك فاجأتني بأمر لم يتقدم فيه كلام، فلم يكن عندي من الجواب الا ما سمعت. وسترى انه يثني عنان جواده فيتبعك.

فخرج أوس، وركب في اثر الحارث.

وسمع خارجة بن سنان خبب جواد وراءهم، فتلفت فرأى أوسا يسعى نحوهم.

فأقبل على الحارث فقال له:

ــ أرى الرجل يسعى في اثرنا!

فرد الحارث:

ــ وما شأننا به؟ امض!

فلما رأى أوس ان الحارث ما زال يحث السير، صاح به:

ــ يا ابن عوف! اربع علي ساعة.

فوقف الحارث حتى دنا منه أوس وقال له:

ــ انك فجأتني يا رجل، فلا تغضب، وان لك عندي ما تحب.

فكأن سحابة انقشعت عن وجه الحارث، فأشرقت أساريره، وقال لأوس:

ــ ان كان ذلك، فأنا عائد معك الساعة.

ودعا أوس الحارث بن عوف وغلامه وخارجة بن سنان الى خيمة أعدها للضيوف، ثم دخل على زوجته فقال لها:

ــ لقد أصبت، يا اخت عبس، ها هو الرجل ينتظر في خيمة الضيوف. ادعي لي كبرى بناتنا.

فدعتها، فلما صارت بين يدي أبيها قال لها:

ــ يا بنيّة! هذا الحارث بن عوف، من سادات العرب، جاءني خاطبا، وقد اردت ان ازوجك اياه، فما تقولين؟

فأطرقت لحظة، ثم قالت:

ــ لا تفعل يا أبي.

قال، وقد اتسعت عيناه بالدهشة:

ــ ولِمَ؟

---

١ ــ يعني: انك لم تصب حاجتك في هذا المكان.

٢ ــ كانت زوجة أوس عبسية.

٣ ــ لم تدعه بالحاح.

قالت: لأن في وجهي ردة (٤)، وفي خلقي بعض العهدة (٥)، ولست بابنة عمه فيرعى ما بيننا من رحم (٦)، وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني.

ففكر أوس، ثم قال:
ـ قومي يا بنية، بارك الله عليك، وادعي لي اختك الوسطى.

فغابت الفتاة وحضرت اختها، فقال لها أبوها:
ـ يا بنيَّة! رأيت ان ازوجك الحارث بن عوف من سادات العرب. فانه أتاني خاطبا، فما رأيك؟
أجابته:

ـ اعفني يا ابي. فانت تعلم اني خرقاء، وليست بيدي صناعة، ولا آمن ان يجد فيَّ ما يكره، فيطلقني. وما هو ابن عمي فيرعى لي حقا، ولا هو جارك في بلدك فيداريك.
قال ابوها:
ـ قومي، بارك الله عليك، وادعي لي بهيسة، اختك الصغرى.

فما لبثت الصغرى ان اقبلت عليه، فخاطبها بما خاطب به اختيها من قبلها.
فأجابته: امض، يا أبي، في ما عزمت عليه.
فعجب أوس وقال:
ـ ولكني عرضت الامر على أختيك، فخافتا ان يرى الرجل منهما ما يكره فيطلقهما.
فردت:
ـ وعلامَ اخاف؟ وأنا الجميلة وجها، الصناع (٧) يدا، الرفيعة خلقا، الحسيبة أبا، فان طلقني فلا أخلف الله عليه!

فضحك أوس، ثم خرج الى خيمة الضيوف، فقال للحارث:
ـ اني زوجتك بهيسة، بنتي الصغرى، فهي التي قبلتك من أخيَّاتها جميعا.
فأجاب الحارث:
ـ واني قبلت! وهذا حارثة بن سنان وغلامي يشهدان علي. ولن أبرح حتى أحمل معي عروسي.
فعاد أوس الى امرأته، فأمرها ان تهيىء بنتها وتصلح من شأنها.

ثم أمر ببيت فضرب للحارث وانزل فيه، ثم بعث اليه عروسه.
فلم يلبث الحارث عندها هنيهة حتى خرج معجلا.
فسأله خارجة بن سنان:
ـ أبنيت بأهلك يا حارث؟ (٨).
فأجابه: لا والله. فاني ما دنوت منها حتى قالت: حياءك يا رجل! أعند أبي واخوتي؟ هذا والله لا يكون... فأخجلتني.

فقال له خارجة:
ـ اذاً، ترحَّل بها.
وودعت الفتاة قومها. وانطلق بها الحارث يصحبه رفيقاه.

فلما أصبحوا على مسافة من ديار أوس، انتحى الحارث بعروسه ناحية، ولكنه لم يلبث ان عاد.
فسأله خارجة: أتراك بنيت بأهلك؟
فكان جوابه: لا والله، قالت لي: أكما يفعل بالامة الجليبة (٩)، والسبية الاخيذة (١٠)؟ لا والله، حتى تنحر الجزور (١١)، وتذبح الغنم، وتولم الولائم التي تليق بمثلي.

فقال خارجة: يا حارث! اني لأرى في هذه الفتاة همة وعقلا. وأرجو أن تنجب (١٢).
وتابع الحارث رحيله حتى أتى دياره، فأحضر الابل والغنم، وهيأ الطعام، ودعا الناس. ثم فرغ ليخلو بعروسه.
فجبهته بقولها:
ـ أما عندك، يا رجل، مروءة تنهاك، وشرف يردعك؟
فجمد في مكانه لا يحير. ثم استجمع نفسه فقال لها:

٤ ـ تعني: ردة الى القبح.
٥ ـ العهدة: الضعف.
٦ ـ رحم: قرابة.
٧ ـ الصناع يدا: الحاذقة في الصناعة.
٨ ـ صيغة سؤال يقصد بها: هل أتممت فعل الزواج؟

٩ ـ الامة الجليبة: الجارية المجلوبة شراء.
١٠ ـ السبية الاخيذة: المرأة المسبية في غزو.
١١ ـ الجزور: النياق.
١٢ ـ تنجب: تلد الاولاد النجباء.

ـ قد ترين اني أحضرت من المال ما يرضيك ، وملأت قصاع الطعام ودعوت الجموع الحاشدة ، فماذا بعد هذا تريدين ؟ ولمَ تعرضين بمروءتي وشرفي وأنا السيد الكريم ؟

أجابت : أي سيد ؟! وأي كريم ؟! تفرغ للنساء ، والعرب يقتل بعضها بعضا ؟! هذه عبس أوشكت ان تفني ذبيان ، وتلك ذبيان توشك أن تفني عبس ، والارض تحتج للدم المراق . اخرج الى القوم فامش بينهم بالصلح ، وانههم عن هذا السفه . ويومئذ أنت السيد الكريم !

فخرج الحارث يتفصد جبينه عرقا .

ولقيه خارجة بن سنان فسأله :

ـ لعلك بنيت بأهلك يا حارث ؟

فكان جوابه :

ـ لا والله .

فدهش خارجة ، وقال :

ـ ولمَ يا حارث ؟

ـ ما رأيت كاليوم فتاة عرَّضت بمروءتي وشرفي لاني أفرغ النساء ، والعرب يقتل بعضهم بعضا .

ـ أما قلت لك ان في هذه الفتاة همَّة وعقلا ؟ فماذا أنت فاعل ؟

ـ وهل بقي ، يا خارجة ، سبيل الا ان أمشي الى عبس ، والى ذبيان ، فأسعى بالصلح بينهما ؟!

ـ واني اعرف لك شريكا في هذه المحمدة هو هرم بن سنان . فلقد أقسم بأن يدفع من ماله ديات القتلى اذا كفَّت القبيلتان عن الحرب ...

قال الحارث :

ـ لعلهم استقلوا الديات . فأنا أدفع من مالي فنضاعف دية كل قتيل ونحقن الدماء .

قال خارجة :

ـ انهم حسبوا الديات ، فاذا هي ثلاثة آلاف بعير .

ـ لتكن ثلاثة آلاف بعير ! فأنا وهرم بن سنان ندفعها . هيا بنا .

*

وقدِّر للحارث بن عوف وهرم بن سنان ان يصلحا بين عبس وذبيان ، ويدفعا ديات القتلى من القبيلتين ثلاثة آلاف بعير ، ويحسما الشر ، ويحقنا الدماء .

وكان ذلك كله بفضل امرأة .

ولما دخل الحارث بن عوف على عروسه بهيسة يبشرها بالنبأ ، فتحت له ذراعيها تعانقه ، وقالت :

ـ أهلا بالسيد في العرب ! اليوم قمت بحقي ، لا يوم نحرت الجزور والغنم وملأت بطونا في عرس .

وتسامع الناس بما كان من حديث هذه المرأة في دفع البلاء وحقن الدماء ، فقال أحدهم :

ـ يا للمرأة اذا شاءت !

وقال ثان :

ـ على ان تشاء الخير !

فقال ثالث : ولكنها لا تشاء الا الخير ! لن تشاء تدمير الحياة ما دامت أما ، تتجدد بها الحياة .

رئيف خوري

اغنية عربية

* * *

صلواتي لاله الريح
قرباني في العتمه
ما قدمت من دم ونار
أغنياتي للنهار
كلها عادت الى كفي في الموسم
عادت مطرا ، خصبا ، ثمار ..
سكرت من حملها داليتي
والدن في القبو تهادى والجرار ..
ما يريد « البوم » ؟
غطى بيدري الشمسَ
وحقلي الافق ،
ماذا ؟
ما يريد «البوم» مني ؟!
ضيق الفسحة في عيني المدار ..

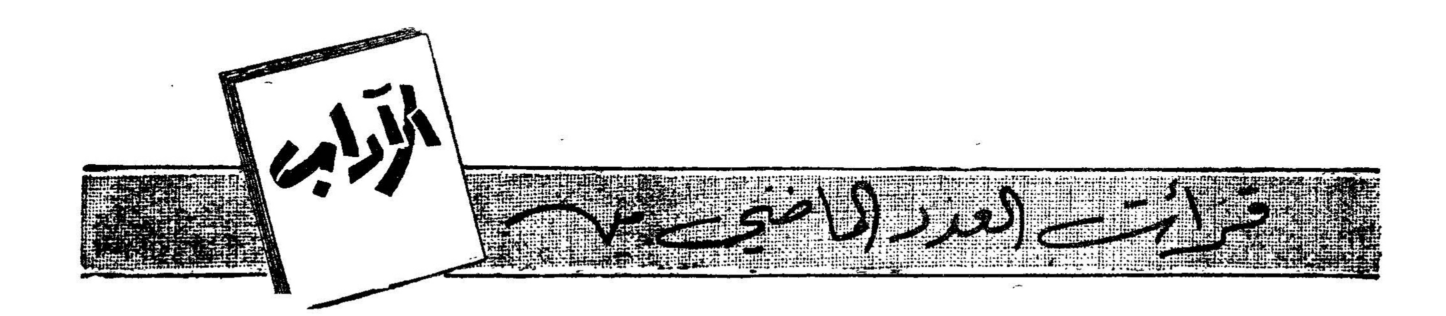
* * *

يا اله الريح يا من نحن صلينا ليأتي
ورعينا عدوه في السهل سرا والوهاد
(يوم ما كانت رياح في الوهاد)
يا حكايا الخاتم المسحور والجني
يا اغنية تُسمع في الصمت
وذكرى تستعاد
يا صدى من شهرزاد
أي بشرى ؟ ـ
بمعاد أبدي عدت للارض التي
غنتكِ ميلادا وصلتك معاد ..
من وراء القبر والعتمة
من افق الرماد
عدت للارض التي غنتك ميلادا
وصلتك معاد ..

* * *

صلواتي لاله الريح
ما قدمت من دم ونار
اغنياتي للنهار
كلها عادت الى كفي ثمارا
والى القبو خمورا في الجرار
كلها سدت دروب « البوم »
شدت حوله سورا
وخلّت اخضر الفسحة في عيني المدار .

حسن النجمي — قطر ـ دخان



القصص

بقلم : الدكتور احمد كمال زكي

***

قصة اليوم وفيما تختلف عن قصة الامس ، مشكلة تحتاج الى مناقشات قد لا تنتهي ، الا اننا لا نخطىء اذا قلنا انها الفن ذو البنية المطاطة والشكل الفضفاض . ولقد يمكن في هذه الحال ان نرصد لبعض ملحوظات ربما تبدو من النوافل شيئا ، ولكنها تؤكد ان القص ـ على توالي الايام ـ كان يسجل روح العصر دائما . فهو في القرن التاسع عشر نثر منظم مرتبط بمنطق الزمن ، وهو قبل ذلك سرد لا بأس من ان يستمد الاسطورة ويسترفد الملحمة ، وفي القرن العشرين طاقة احتجاج تشبه الى حد ما غنائية القصيدة .

ان القاص المعاصر يريد ان يكشف عن الانسان العادي في حياته العادية .. لا الانسان الفيكتوري المتزمت ، ولا الانسان الخارق الذي يحذق كل شيء ! هو لا يقنع بمنطق روبنسون كروزو ، ولا يرضيه أسلوب بيكويك في الحياة ، ويكره ان يستقصي حقائق الوجود مما يستقي منه جان فالجان او باردليان او روبن هود .

حقا كانت القصة الواقعية هي التعبير المباشر عن حاجات ما قبل اليوم ، غير انه كان مجرد تعبير .. تسجيل لما ترى العين وما تسمع الاذن في أناة واستقصاء ، بحيث يصبح العطاء الادبي كمادة للمعرفة حقائق صغيرة جزئية . اما قصة اليوم ، فهي قصة الكشف النفسي والذهني في اثناء تقديم الاحتجاج ! فعل ذلك كثيرون منهم كامو في « السقطة » ومنهم نجيب محفوظ وغسان كنفاني ، فأزيحت الستر عن اعماق انسانية فيها من الخصب ما يعادل عقم شارلوت الوديعة عند غوته في « آلام فرتر » وشارلوت الشرسة عند ديكنز في « اوليفر تويست » ومدام بوفاري ـ على سبيل المثال ـ مع انها طالما اتخذت نموذجا للدقة والاستشراف .

أنا لا أوازن ولا أعلن تحيزي لاي نمط من انماط القصة ، ولكنني اقرر ان « حاجات » العصر فرضت قيما جديدة على عمليات السرد التقليدية . فأصبحت بنية القصة بعيدة عن النموذج القديم بما فيه اطراد نحو نهاية بعينها ، وارتبطت بدفقات اللاوعي وهي في سبيل التخلي عن الوصف الخارجي المملول .

يظهر ذلك في الرواية ، وفي الرواية القصيرة ، وفي الاقصوصة او القصة القصيرة على حد سواء . ويكون محك قبولها انها لا تحيد عن الصدق في تصوير روح القلق ـ وهو مرض العصر ـ تماما كما ترصد لايقاع الهدوء ، فثمة الشك واليقين ، وثمة التأرجح بين المعرفة والجهل ، وثمة لحظات التوتر بين اسباب الحياة واسباب نقيضها وهو الموت .

في حدود هذا الفهم العام للعمل القصصي قرأت في «آداب» ديسمبر الماضي آثار ادريس الشرايبي ، وعبدالرحمن الربيعي ، ومحمد عبد الولي، وعبد الامير الاعسم ، وحسين قاسم .. أقاصيص خمسا لم يكن وقعها في نفسي واحدا ، ولكني حرصت على ان اقيسها بما لا يخضعها تماما لتصوري العام للقصة القصيرة في اطارها الجديد . ولقد كان الانفلات من هذا التصور صعبا علي حقا ، الا انني راودت نفسي على ان ازعم ان الكتاب ـ وهم أهواء شتى ـ لا يمكن ان يلتقوا على الصعيد الذي اريد ، ومن ثم ينبغي ان تكون لهم اساليبهم في الانفعال والتصوير .

ولكني مع ذلك لا أظن انني اغمط اي قاص منهم حقه اذا قلت انهم ـ باستثناء واحد ـ لم يرتفعوا الى مستوى قضية الانسان المعاصر ، بل لعل بعضا منهم لم يتصور ذاته ـ حتى في الاطار الكلاسيكي ـ الا في حالة شبقية تذكرنا بهذيان احسان عبد القدوس . أتراني أتعجل ؟

اذن فليغفر القارىء هذا التعجل ، على ان يكون شفيعي عنده احساس الالم الممض . أفليس عجيبا ان يظل اكثرنا على اول الدرب في حين قطع الشوط ـ او كاد ـ قلة قليلة ؟

قصتان من العراق :

« الوكر » للقاص عبد الرحمن الربيعي ، و « الشبح والزيف » لعبد الامير الاعسم .. مناجاة جنسية يتخللها تيه الذات ، وان نمت الثانية عن اعتدال ! وكان نصيب الحرمان والسقوط لا يختلف في كلتيهما ، فالربيعي يجعل بطله مهدما جائعا ويرشق صاحبته سلمى في قمة بعيدة بعيدة ، والاعسم يصور طبيبه ضائعا لانه لا يجد المرأة التي كان من الممكن ان يراها في « نعيمة » رفيقة صباه .

والربيعي يسطو على سلمى في جرأة دون جوان او يجعلها تسقط أمامه ، والاعسم يرى نعيمة ساقطة فعلا تبيع جسدها في احد ملاهي الليل ، والاثنان معا يكتبان مدفوعين باحساس المراهقين . وعلى الرغم من ان قصتيهما قد تدلان على فنانين واعدين ، فان اجترارهما مغامرات نسائية ـ بلا أبعاد انسانية ـ قد قعد بهما عن تحقيق اي شيء ينبغي ان يتحقق في الادب الرفيع .

وليس من ريب في ان كثيرين قد يجدون تفسيرات ما للقصتين ، وربما برز منهم نفر يزعم ان الجنس ارهاص ببعث والبعث يشكل مع الموت قضية العصر ، بل لعل ثمة من يرتفع بهما على اساس ان الحياة نفسها فيها ذلك الطموح الشبقي يلازم البشرية الى الابد .. ولكن أحدا من اولاء لا ينكر انهما لا تنتميان حقيقة الى واقع العراق !

انني اعترف دائما بأن هناك من الاعمال الادبية الناجحة ما لا يرتبط بقضية ما ، غير ان هذه تختلف كل الاختلاف عن الانماط المبتذلة التي دارت ودارت حتى استهلكت ، ومن هذا المستهلك قصة « الوكر » وقصة « الشبح والزيف » . ولست ادري كيف غاب عن صاحبيهما ان المرأة أسمى مما تبدو للمراهقين ، وان العواطف التي تثيرها لا يكون الجنس محورها دائما ، فضلا عن ان قيام العوائق بينها وبين الرجل أمر تقرره الطبيعة ويعترف به المجتمع .

واذن فلم يكن من المفروض ان يدور بطل الوكر في فلك دون جوان

ويفترض فحولته ، ليدمر تلك القاعدة الاجتماعية المقررة . كذلك لم يكن من المستحب ان يغيب عن الاعسم ان نساء الاسرار كن طابع عصر وانتهى ، وان نســاء المفاجــآت اصبحن لا يعشن الا فــي قصص الورداني وغراب .

قصة من لبنان :

أنا لا أعرف « حسين قاسم » ولم أقرأ له الا « غبار الدروب » قصة الرحلة الطويلة والبحث الطويل .

ويبدو هذا القاص اللبناني من القلة التي تقارب روح العصر ، ولكنه لا يحسن تماما بلورة احساسه الدرامي . هو قد يغير صوتـه ، وقد يراوح بين ذبذباته ، وقد ينتقل مع الاصداء من الخوف الى الطمع الى الرجاء الى القلق ثم الى اليأس .. هو قد يفعل ذلك ، ولكنــه يفتقد دائما الرباط الذي يجمع كل هذه الاشياء ليجعل منها وثيقــة ادانة للمجتمع .

ونحن نرى عنده التاجر المفلس الذي يترك سانتو انجلو الــى سان بورجا ثم يعبر الحدود الى سانت تومي بالارجنتين لكي يضيــع في الزحام وهو يلتمس أقل ربح .. نراه عنده فنحس انه يرسم بـه صورة تمثل معادلا لدأب انسان العصر ، لا لان الطريق واحدة ، ولا لان الخاتمة مماثلة ، بل لان ما يسود هو القلق .

وهنا ترتبط في ذهن حسين قاسم تفصيلات القضية وان تكــن غائمة .. فالتاجر غريب وأهله يريــدون عطاء في الوطن ، وهو يقتر ويقتصد ويريد ان ينضم الى زمرة المهــربين ، ويجوع ، ويشتهي ، وتؤرقه ذكرى ، وتثيره أغنية ، ويرهقه الماضي بكل أثقاله .

وعندما يظن انه على وشك التخلص من عذاباته ، يتبين فجأة انه لا يزال عند النقطة التي بدأ منها رحلته . وهذه هي رحلة انســان العصر على الحقيقة ، حركة في لا زمان .. حركة جامدة ان صح هـذا التعبير ! ولقد تناولت الاعمال الادبية الحديثة هذا الموضوع ، واستعانت عليه بأساطير القدماء ، ثم قدمته دراما تحلل ألوان الصراع من اجـل التمسك بالحياة . وأما حسين قاسم فقد اكتفى بتسجيل توتراتـه ، في بساطة وصفاء ، وفي نجوة عن الغوص الى اللاوعي . غير اني لست أدري هل تراه كان يفعــل غير ذلك اذا امتـد به نسيج القصــة اكثر مما امتد ؟

قصة من اليمن :

جميل جدا ان أقرأ قصة من اليمن ، وأجمل من ذلك ان يكــون اهتمام كاتبها متجها الى قضية الموت كمقابل للبعث او للقوى التــي تشكل اسباب البقــاء . والقصة بعنوان « موت انسان » بدأهــا محمد عبد الولي بملاحظة ان المجتمع يجب ان يتحرك .. حتى في شكل طاحونة او في رغبة عارمة للقات ! ولكن يحدث ان تبرز مشكلة كمشكلة مرض « ابن الحاج » المشلول ، فيجد المجتمع نفسه مسوقا الى التوقف بعض الشيء ، بل يصبح التوقف أمرا لا بد منه حين يموت المريض .

في هذه اللحظة يظهر ابناء المجتمع لا آدميين .. فعبد الرحمن يتردد بين الزيارة للعزاء والرجوع الى بيته ، وشاهر مشغول بأولاد اخيه ، والفقيه المفسل وراء الجبل في ارضه ، وبائعو القات يروحون ويجيئون ، والكفن مع ذلك يعد ، والقبر يحفر ، والمحمل على البــاب في انتظار .

وتتخذ الحركات العادية صورة اللعن احيانا والترحم أحيــانا اخرى ، ولكن الاحساس في كل الاحيان احساس بارد بالموت كحقيقــة قائمة ويجب ان تقوم . وينتهي الامر بانهيار انساني ، لكنه يرضي حاجة الحي الى الحركة والى ان يفكر في كل شيء حتى في القات يبتــاع على رأس الميت .

اذن فموت الانسان عند محمد عبد الولي لا يمكن ان يكون نهايــة حياة وبالتالي لا يكون بداية حياة جديدة ، وانما هو امتداد للحيــاة نفسها .. فالطاحونة مثلا التي تتوقف لن تتوقف الا ريثما يقــدم صاحبها العزاء ، والفقيه لم يأت من وراء الجبل الا ليعود اليه يعمل ، والشيخ الذي لعن المعزين لانهم يبتاعون القات ابتاع مثلهم ليتحـرك او ليباشر حركته التي توقفت عندما توقف نفس ابن الحاج .

لقد رفض محمد عبد الولي ان تكون الجمود هو مبدأ الوجود ، كما سخر من الفكرة التي تقرر انه يمكن اخذ الانسان بقوانين ثابتــة لا تتغير ، والا كان على أهل الميت مثلا ان يقيموا « ليلة الذكر » ذابحين الغنمة او على اصحاب المريض - قبل ان يموت - ان يعودوه في كل وقت كـ « أيام زمان » .

ومع ذلك فليست القصة كاملة الاستواء ، وأحسبها تستــوي لو كانت خلصت من الفضول .. كوصكشاهر الجسماني ، وكاستهـلال القصة نفسه ، وما يشوب السرد احيانا من تقريرية ، بالاضافة الــى اقحام كلمات للمسيح بلا أية ضرورة ماسة .

قصة من الجزائر

ترجمها عن الفرنسية جــورج سالم ، ومؤلفها عربي اسمــه دريس الشرايبي ، فأين توضع ؟

الاجابة عسيرة من غير شك ، وهي تثير قضية الاداء اللغــوي باعتباره أجناسا تدل على أجناس ، وتثير في الوقت نفسه أدب الذين يصدرون عن قوالب فرنسية أو انكليزية وهم زنوج مثلا او افريقيــون او هنود . ولعلها لا تقف عند هذا الحد ، وانما تعيد النظر ثانية فيمن كتب بالعربية قديما - كابن المقفع - ولسانه فارسي وله آثار بالفارسية ويعتز به الفرس او الايرانيون المعاصرون .

أجل .. ان الاجابة عسيرة ، ومن ثم نجاوزها حتى يتاح لاحـد الدارسين ان يتعرض لها بالنظر الرشيد بعيدا عن الهوى ومخلصــا للحقيقة وحدها .

اما القصة التي تغري بكل هذا فبعنوان « منزل على شاطىء البحر » وموضوعها هو الرحلة .. ولكنها رحلة وراء الراحة ، كأنما هي نهاية المطاف بعد حياة دائبة أصابت الحواس بالوهن والاعياء .

وحتى نصل مع برتلمي – البطل المجوز – الى نهاية المطاف .. على شاطىء بعيد هادىء في احدى الجزر ، نجد الخوف في مقابل الرجاء مع رصد ذكي للمرور عبر الزمن . وبعبارة اخرى نقول ان الكاتب بعد ان يلخص فكرة الحياة يستشعر قلق ان يدهمه الفناء قبل ان يستمتع بفهم أعمق او بادراك للشيء الاخر الذي فيه . ومن ثم فهو في حاجة الى ان يبدأ من جديد ، بشرط ان يكون وحيدا يستمع الى الموسيقى وينظر الى البحر .

ونحس من قريب ان الاحساس بالنفي عنصر من عناصر المأساة في القصة ، ولكنه النفي الذي يختاره كل شخص أهدر حيويته الانسانية في لا شيء .

كم سنة قضاها برتلمي يعمل ؟

ستون ؟

اذن فله ان يستريح ، وليبيع دكان عطارته ، وليقبض الثمن ، وليستعد للطواف او للنفي ليستبدل بالحرمان حرمانا اخر وان يكن المرء يتصور انه « يحصل على تقاعد بعد حياة كاملة من الحرمان » . وقد بدأ من مونت كارلو باحثا عن صخرة يبني عليها بيتا يتسع له حتى يموت ، والتمس الصخرة في كل شاطىء من شواطىء البحر المتوسط ، والتمسها أيضا على طول شواطىء الاطلس . وبعد ثلاثة أعوام استعان بباخرة حملته الى بورجوانفيل عاصمة جزر يو ، وفي جهة « بور – لا – مول » عثر على ضالته ولكن .. ولكنه لم يظفر بما أحب ، فآثر من جديد ان يعود فيفتح دكان عطارة في منفاه بالجزيرة .

لقد حسب لكل شيء حسابه ، غير انه تبين ان حالة السلبية التي ضيعت منه سنوات في « دراسة » حالات البحر بالنسبة لصخرته التي اختارها ، لم يكن لها معنى الا ان تقفه على أن الحياة تقلب .. مد وجزر ، ولا مكان لجمود الفارغين !

ان رحلة برتلمي اشبه ما تكون برحلة السندباد ، وضياعه كضياع يوليسز على نحو ما .. وراء اي شيء ، ومن اجل ان يعرف حتى لكأنما المرء يشعر دائما ان ما نمي اليه قاصر كل القصور .

ودريس الشرايبي فيما يبدو من هذه القصة فنان يمزج عمله بأكثر قضايا عصره المحيرة ، من خلال الذات وعن تقدير منطقه الوجداني . ويمكن وصف طريقته كقاص بالطريقة الوجودية ، فهو يقف عند المشكلة – مشكلة الحياة كلها – ويسير بها عن طريق السرد والتداعي الى حيث تفرض الحياة منطقها ، وفي اثناء ذلك يكون الاستكشاف المنشود .

انه لا يفرض فلسفة ، ولكنه يشير الى ان الانسان الذي يجد من السهل جدا عليه ان يتقبل كل ما هو موجود STATUSqUO يثور على هذا المنطق العجيب ، ويصل الى النقطة التي تجمعه بواحد مثل كامو : ما هذا العالم ، وكيف يؤكد الانسان وجوده فيه ؟

ويظل السؤال دون اجابة ، غير اننا نلحظ ان معظم القيم تضيع عنده ، وان تظل قيمة واحدة باقية هي الحذر . بمعنى اننا يجب ان نحذر في معاناتنا ، وفي دأبنا ، وفي رغبتنا ان نستمر الى الابد .

ان الشرايبي الذي سجل رحلة النفي ببراعة في قصته هذه ، ليقف في مقدمة كاتبي القصة في العدد الثاني عشر لعام ١٩٦٣ المنصرم من مجلة الاداب ، بل لعله ان يكون في مقدمة من نقرأ لهم في أغلب الكتب الادبية والمجلات .

القاهرة — **احمد كمال زكي**

اغنية إخاء

يا أخي
أنا لاأسأل عن لونك ، من أي بقاع الارض جئت
في صفاء الفجر أم لون الليالي الدافئه
في اصفرار الشمس نداها الاصيل
أم ترى في سمرة النيل الجميل
انما أبحث في عينيك عن لحن صديق
عن سخاء القلب عن فيض المحبه
انما أبحث عن راحة صدق وادعه
تبسط الامن بأيامي ظلالا مطمئنه
انما أبحث عن بسمة ود صافيه
خلفها تنبض أنغام الاخاء .

يا أخي
عندما ألقاك في بحر الحشود الزاخره
وأرى الايمان في وجهك كالفجر المطل
ثقتي بالناس ترتد الى قلبي فتعطيه الفرح
وأرى العالم حلوا ، ونديا ، وجديدا
كالنبات الطفل في نضرته
كالربيع الطفل في زهوته
كالصباح الطفل فوق الموج يلهو بالضياء

يا أخي
عندما ترتاح كفي فيدك
والطمأنينة تسري في فؤادي
كندى الفجر الرطيب
تذبل الغربة في روحي ويشتاق الامل
وأرى العالم رحبا وأليف .
لست وحدي ...
ها هنا مأواي في حضن العيون المعطيه
ها هنا مأواي في الكف الصديق
ها هنا تسكن أشجان القدر !
لست وحدي
عندما نبني معا فجر السنين :
عالما صغناه في أحلامنا
وتشهيناه في حرماتنا
ورسمناه فنونا وصور !

يا أخي ...
عندما ترتاح كفي في يدك
سيذوب المستحيل !
لست وحدي ...
سوف نبني عالما غض الصور
ينبت الزيتون مخضرا على كل طريق
والحمام الابيض الوادع يغدو آمنا
ويجوب الافق حرا وطليق
والفـرح
سوف نلقى وجهه الصافي الجميل
مشرقا في كل شباك وشرفه
حيث يغدو الحب في كل فؤاد
زهرة بيضاء فيحاء العبير
والحقول الخضر رواها العرق
لرجال كادحين
سوف تعطي الخير والوفرة عدلا للبشر

يا أخي
لست وحدي
سوف نبني عالما غض الصور .

القاهرة — **ملك عبد العزيز**

التحدّي ...

قصة بقلم ع . مطيع

في لحظة سأم عاتية بمنفاه القصي بالجنوب ، كتب مجيبا على خطابها الذي ذكرته فيه بآخر لقاء ، تبادلا أثناءه الحوار التالي :

« قال : فيم تفكرين؟

قالت : في الفراغ الذي يملأ الكون .

قال : انك تفهمين .

ـ وما ادراك ؟

ـ عيناك اللتان تبحثان داخل الفراغ .

ـ ان عيني جامدتان .

ـ لم ار عينيك .

ـ وماذا رأيت ؟

ـ فكرك ... انك ذكية .

ـ والذكاء يعذبني .

ـ كم اكره ان تكوني ذكية !

ـ سوف اتبلد .

ـ سأثني عليك وأعزك .. » .

وختمته بقولها « اني ابذل كل جهدي لالحق بك، أو تلحق بي ، ولقد أوشكت أن أنجح فهل يسعدك أن آتي اليك ؟ وقبل هذا ، اذا أردت أن تراني فانظر الى يسارك تجدني قابعة .. »

الجنوب ... في ٣٠ سبتمبر ١٩٦٣

« عزيزتي

« أكتب اليك ، لا ردا على خطابك فقط ، وانما لالبي رغبة مكبوتة في نفسي ، وحنينا دفينا من زمان ، الى ان اكتب اليك شيئا ، أي شيء ، والكلمات مهما كانت تافهة ان وجهت لانسان أرهف أحاسيسه الالم ، وعمقها الصفاء والاشراق ، لا بد أن تثير في النفس حسرة حائرة او دمعة حرى او على الاقل اشفاقا من عبثنا الذي نمارسه بكامل الجد والموضوعية .

لقد كتبت لك من قبل رسالتين ، ومزقتهما ، لما بهما من قتامة موحشة وسوداويةعارمة، ومحاولة منيلترويض نفسي على نسيانك ، كي اتركك تعيشين الحياة الجديدة، آمنة مطمئنة فلا نبقى في نظر بعضنا شبحا لماض سعيد نحنُّ اليه ، فينغص حياتنا ، ويؤرجحها في فراغ مسؤوم. ولكني الان اذ استسلم امام نفسي ، واخضع لرواسب الانهزامية في قلبي ، وأومن بأن ما بيننا أقوى من ان تؤثر فيهالصدف ، وأرسخ من انتجتثه محاولات التملص واللامبالاة ، أعود فأصل ما كان قد اشرف على الانقطاع.

رفيقتي ، حاولتِ ان تضفي على رسالتك بعضا من مرح ، ولكنك لم توفقي ، فمرحك اشبه بغلالة شفافة على جسم اسود ، لانه مرح تطغى عليه افكار قاتمة ، صادرةعن نفس معذبة .

ومثلك انا ، كان في نيتي أن انطلق في كتابتي، ولكني لم افلح حتى في اضفاء الغلالة الشفافة ! اتدرين لماذا ؟... لاني اواجهك بروحي ، والروح عند مثليومثلك جبارة عنيدة متحررة ، لا تعرف التستر والمواربة ، وهذا سر شقائنا .

ورغبت الى ان التفت الى يساري لاراك ، لكن لماذا التفت ؟! ما دمت اشعر بك في اعماق يساري ... فيكل ذرة من ذراته وروحك ما تزال مرسومة فيه من يوم بدأ يشعر بالارواح ، ولكنه لم يجبك ـ برغماسئلتك المتوالية ـ خضوعا منه لما كنا قد فرضنا على انفسنا من قيود وهمية سميناها تقاليد واعرافا ، كثيرا من أرجحتنا في دوامات مغثية سخيفة ، لقد كان يساري اذ ذاك أبكم ، أبكمته بعد جهاد عنيف ، فلم يجبك ، وانما اجابك لساني ... وبعض ملامح وجهي التي تعودتان تخفي شعوريبالالم، وتظهرني ضحوكا بشوشا كأسعد ما اكون.. اتدرين انك حطمت جهادي العنيف الذي مارسته طويلا لكبت هذا اليسار .. وابكامه ؟!

انني اغبطك ، رغم غرقنا المشترك ، لانك ما زلت تسترجعين الماضي بكثير من النشوة والانشراح ، وترين فيه ما كنا نراه من الجمال .. لا زلت تذكرين ليالينا التي رتع القمر في احضانها ورددت الازهار آمالنا الغضة في رباها . لا زلت تذكرين صخور الشاطىء ورماله، وامواجه التي شهدت شبحين هامت روحاهما في الفضاء فطفقا يرقبان ظليهما يقتربان ، ويبتعدان ... تحت اشعة القمر الكاشفة ، فلم يستطع احدهما منع الدموع من الانبجاس ... اما الاخر فقد كان يئنتحت وطأة الصراع المحتدمفي اعماقه .

لقد اجدت التعبير عن حوارنا في تلك الليلة، وحمات الصمت الذي خيم علينا كل ما عنينا بصمتنا وكلامنا ، اما العصفورة التي كانت تغني فقد اهملت شيئا مهما، ربما أهملته عمدا لكي تبعدنا عن مرارة واقعنا، وربما ستذكره في تتمة غنائها باسأوب يسلينا عن هذا الواقع.

اعتقد انك ذكرت الان ذلك الحيوان المزعج الذي ودعنا ، واشعرنا بسخف المصير وان كنت أربأ بصوتها عن ان ينطق باسم هذا الحيوان السخيف !

وكنت في آخر لقاء قارئة كف بارعة ، اذ تنبأت بأن لي املا ، وطريقي اليه طويل . لم اتبين هذا الامل اذ ذاك، ولم تسأليني عنه ، ومع ذلك ، فقد تألمت ثم سألت نفسي بعد ... فاحتد شعوري بالالم ، والعجز ، والاشفاق. ذلك لاني اريد الخلاص من هذا العبث المستمر ، وهذا الوجود المفروض . هل فهمت الان لماذا انا مضطرب .. فوضوي .. لا أركز في شيء ؟!

ان الانسان في صراع دائم مع لاسببية وجوده ، ولن يهدأ الا اذا جعل على باصرته حجابا يقيه اكتشاف العبث، او قابل وجوده بضرب من اللامبالاة ... جربتالفرار من الالم باللامبالاة والاهمال فلم افلح ، الا في أن اكون قلقا، مضطربا ، فوضويا ، اما الحجاب فلم استطع استعماله لانه ضرب من السخرية بالنفس ، وانا اكره تقليد النعامة.

ولطالما رجوت أن تفتي المحكمة بعدم صلاحيتي للحياة، فأرتاح من محاولتي اللامجدية لايجاد منفذ من هذا الوجود، دونما اضطرار للفرار الى اللامبالاة العمياء او النعامة المتبلدة، ولكنها ارتأت حجزي في اطار يرغمني على اجترار واقعي كل لحظة ... ففي نظرها لا اصلاح للحياة العادية، ولا للموت العادي فانظري كيف ان القاضي كان في منتهى الذكاء، عندما فكر في حكم شاذ لمتهم شاذ، فجاء الحكم منسجما وطبيعة المتهم... حتى المنطقة التي نفيت اليها وجدتها اشد انسجاما مع طبيعتي، فانا الان في جو قاري متقلب لا يعرف الاعتدال، وأشعة الشمس فيه لا تكون الا ثلجية أو ملهبة، وارضه لم تعرف الخضرة ولا الماء وكل ما فيه احجار سوداء لامعة متراكمة هناك ... وهنا ... وقمم قاسية لا متناهية، ومنخفضات ومغاور هائلة قائمة مدلهمة، الا ان بهذه الارض شيئين يخففان من وطأة الموت المخيم عليها، هما سماؤها الصافية الدائمة الزرقة والانجام، وغزلانها التي تبرز أحيانا لاهثة تائهة قلقة خفيفة الحركة، كثيرة الالتفات والتطلع كانها تبحث عن شيء قد يكون تحقيقا لآمالها المجنحة في هذه الصحراء الجافة الجاذبة، او تنتظر شيئا قد يكون – رمية طائشة من صائد ابله، ساعدته الصدفة على أن يقتل هدفه ليمتلكه جثة هامدة يلتهم قديدها البارد الشديد الملوحة.

هذا اطاري، وقد رأيت أنه منسجم أشد الانسجام مع حياتي اللافحة، الملتهبة العاتية، التي لم تعرف الاعتدال أو الاستقرار، حياتي القاتمة الجافة، التي رعت فيها غزلان آمالي واماالك فلم تجد فيها الا قساوة كاسفة وفراغية هائلة رتيبة مقفرة .. شيئا واحدا، رأيته في هذا الاطار ولم أجده في حياتي، هو هذه السماء الصافية اللامتناهية الزرقاء .. اتدرين انه لم تكن لدي سماء؟ وحتى اذا ما وجدت فلا تزيد على أن تكون غيمة مكفهرة او غبارا اثارته زوبعة حلزونية عاصفة وجمعته فوق رأسي، ليتساقط عليه خيبة ومرارة، وشعورا بالعبث ... ولعنة.

لعلك فكرت الان في أن هذا الاطار يوافقك اكثر مما هو منسجم معي، سيما وقد عرفت في صحرائك سماء صافية منجمة تتشبثين بها ولا تبغين بها بديلا ...

أتمنى أن تمكثي متطلعة الى هذه السماء، فهي التعزية الوحيدة التي لك في هذه الحياة رغم أنها لا تمطر الا سرابا، ولا تهب مثلك الا أجنحة مقصوصة يرتفع بها عن الارض برهة ليرتطم بصخورها الصلدة وجدرها الجليدية. فهل يا ترى تستطيعين ان تبقي متطلعة اليها ايتها الملاك الصغير، المقصوص الجناح، المتشبث بايمانه القاتم؟

لقد ذكرت ذات يوم، أنك تعرفينني جيدا، وانك صرت تشبهينني ..

خجلت – حينئذ – كثيرا، ولم استطع ان انبهك الى فارق واحد، هو انك لم تتخلي لحظة واحدة عن ايمانك بهذا الاله الطيب ..

دعوت هذا الأله بكل حرارة، دعوته وانا في قمة الالم، وفي عمق الازمات، فلم اشعر الا بنوع من الاستلام – والاستسلام كما تعلمين، نوع من التخدير، وانا لم اطلب مخدرا، وانما سألته انتشالي من اغوار قدره السحيقة.

أرأيت كيف ان الطيران خلف الايمان، ومحاولة تركيزه في انفسنا لا يجدي الا في ان يكسبنا ايمانا هشا أولى بنا أن نضعه في متاحف قلوبنا الآمنة؟

كثيرا ما وقفت موقف الاختيار بين امرين او اكثر، واخترت الاقرب الى التقوى ففشلت. وقيل لي ان الفشل أختبار الهي. ولكن هذا الفشل تكرر، وجلب علي نقما كثيرة، فصرت اختار الابعد من التقوى، ولكن دون جدوى. وقيل لي أطع نفسك واختر، ففعلت، فلم يكن الامر باحسن من السابق. وقيل استخر ربك، فاستخرت، فكانت نتيجة الاستخارة مؤلمة، وانتظرت الالهام والتوجيه فلم احصل عليهما.

لا تندهشي لمصير ايماني، فانا لا زلت لم اجحد وجود الله، الا أنني اتساءل فقط، عن فائدة وجوده، ما دام كل الناس ينتزعون ما يشتهون، من افواه بعضهم دون حاجة الى استجداء .. والذين ينتظرون ويعفون.. يجوعون ..!

ربما فكرت في ان الايمان نافع على كل حال، وان لم يحصل النفع عاجلا فقد يتحقق آجلا، في الحياة الاخرى، ولكن هذا التفكير سرعان ما يتبدد بمجرد ما اتذكر لعبة اليانصيب. واكتشف أن تفكيري هذا يجعلني اقرب الى المقامرين لاعبي النرد...

أرأيت كيف ان الله رمانا في هذا المستنقع؟ ومكث يطل من عليائه ليرضي شعوره بالقوة، برؤيتنا نغوص في حمأة العذاب، ويضحك من رؤية الطيبين منا – الغرقى معنا – يمدون ايديهم لزملائهم ظانين أنهم يستطيعون اسداء مساعدة ما .. كلانا غريق يا رفيقة، فلا تموهي على نفسك بمحاولة انتشالي. ولا تجربي مخدرا اخر ينسينا واقعنا الذي نجتره كل لحظة. ومع ذلك فانا أقدر فيك هذه التضحية المزدوجة. اذ لم تكتفي بالتنازل عن طلب المساعدة، لكونك امرأة، بل عرضت هذه المساعدة علي، وانا اقدر منك افتراضا.

لقد ذكرتني وأنت تعرضينها علي، بالام التي تطبخ الحجر، لتنيم اطفالها الجياع، ولم يدر بخلدها أن عمر قد مات، وأن الحجر لا يلقم الا لامثالنا، وقد شبعنا حجرا، لاننا لم نتم.

جربت أن أستعين بك – رغم ايماني بلا جدوى ما تعرضين – فحاولت التزود بقبس فكرك، ووميض عاطفتك، وصفاء اعتقادك لمجابهة العنف المأساوي الذي أحياه، والضياع الذي أعيشه كل لحظة، والتمزق الذي يسحقني باصرار واستمرار، والعفاء الذي يزحف نحوي ببطء سخيف مضن، ورتابة بلهاء مغترة، يحاول التستر بصخب الحياة، وحربائية الملهاة، واغترار السذج البله، عراض الامال والتسآل، ولكني لم أفلح، فطرحت ميتافزيقيتك المجنحة جانبا، وان كنت أكن لها كل احترام .. لاجلك. ولست وحدي في هذا الموقف، فالكل ساخط ... يترقب ظهور الاله، وقد رأيت في التاريخ الطويل كم ذاق ممثلوه من عذاب انتقاما لما انتاب البشر من ويلات وظلم، فقد صلب مسيحه، وكسرت رباعية حبيبه، وطورد كليمه، فكيف سيكون الحال، اذا ما ظهر الاله نفسه؟ لا أطيق الاجابة، وما يتراءى لي، أن الكل مستعد للمطالبة بالتوضيح، والانقاذ، والقيام بالواجب، من طرف الاب الاكبر.

وكأني بالمنافقين والاعوان وباعة الضمائر، ومرتزقة الوظيف، والخونة طمعا أو يأسا أو جبنا، سيكونون اول الثائرين على وضعيتهم المطالبين بتعويض المسخ الذي

اصابهم نتيجة اضطرارهم لمجاراة الظروف ، اما المحايدون فيلحون — مهددين — في المطالبة بالمائدة السماوية — ان اراد ان يبقى الها .

أما بالمحاجز ومخافر الشرطة ، فسيجد طائفة من عباده الصالحين المحافظين على تعاليمه ، ولكنهم لا يرجون منه الا أن يعود الى سمائه ليبعثوا اليه بصلواتهم مجردة من كل ادعــــاء او طلب او احترام — واخرى من الطلبة لا يرجون منه الا ان يتركهم في حلبات الرقص بين قضبان السجون — وطائفة ثالثة من أمثالي تنظر اليه وتواصــل صمتها .. واجترارها .. كأنها لم تر شيئا ...

فكيف بعد ، لا زال من يدعي صلاحية تمثيل الاله، ولا يخشى عاقبة ما سيحل به من طرف جماعة السخط التي لم نعد تحترم سوى وجودها . اذا ما استطاعت أن تؤمن به ؟!

ومتى ينتهي عهد توارث الصلاحـــية عن طـريق الانتخاب الالهي ؟ ونكف عن الشعور بأننا جارية موروثة ربما اقتسمها الاخوة ، فأخذ الذكر مثل حظ الانثيين — بالمفهوم التشريحي الصرف — أو زوجـــة روح شرير لشخص مات من قرون ، وبقي يتشخص ظلاما ، ثم عزم اخيرا على محاولة بناء جدار مسقوف يحجب ضـــوء الشمس كي يبقى في ليل مستمر ييسر له الظهور ؟

أرى ان انسانيتنا — كصفة مبدئية — توجب تكسير النطاطير المعقوفة. والقضاء على عهـد توارث الصلاحية وازاحة السجف والستر ، كي تخسأ الارواح الشريـرة ، ويرتفع الظلام . والا ، فالسجن خير مثوى ، وأجـــدى مستقر اذ الحياة فيه تعام اشياء كثيرة لا يستطيع المرء التوصل اليها خارجه .

لقد توهمت وأنا رهن الاستنطاق بين جلادي الغلاظ، أن العذاب الجسماني سينسيني نفسي ، ويخفي عني خباياها وأعماقها ومغاورها ، ويشغلني عن تركيز نظراتي الثاقبة في ذاتي النفورة المتمردة ووجودي الوهمي كما تعودت ، وأنا رهن الصمت الرتيب قبل أن يأتي دوري .

ولكن، صدقيني ، لقد وجدت نفسي على يد الجلاد، اكتشفت فجأة وأنا أصلى نار العذاب انني موجود ، لاني أتألم من اجل الاخرين التائهين في الممرات ، الخائضين معاركهم اليومية ، دون ان يفطنوا لساحة المعركة الكبرى، أتألم من أجل الخائفين أنفسهم بدافع الطمع أو بــدافع الجبن ، أو بدافع اليأس ، انني موجود لاني أتعذب من اجل من يعذبني ، وهذا منتهى الشعور بالوجود ، والايمان بالوجود .

وعند الاستنطاق ، اهتديت الى وجودي ، دلني عليه ضابط المباحث الذي خضت من اجله معركــة سليمـة فارغم على ادانتي ، دلني على وجودي عندما سألني :

— ما هي خطتكم لازالة الوضع الراهن ؟
— ليست لنا أية خطة لازالة شيء وهمي .
— أتنكر أن لدينا مقدسات قائمة ؟
— لا أنكر حرية الاعتقاد ، بشرط ألا يخرج عن نطاق الوهم .
— ان ما تحاربون ، ليس وهما . انه واقع ، يشعرك بوجوده كل لحظة .
— ربما ، ولكنه وجود نسبي ، وقتي لا يعمر .
— أخطأت ، لقد عاش قرونا ، أما المخلوقات المخربة، فلطالما عرف كيف يبيدها .
— شكرا ، لقد جعلتني أومن بوجودي .
— بل بوجود ما تحارب .
— ان ما ظهر مرارا في حياته من مخلوقات مخربة ظن انه يبيدها ، هي أنا ، هي وجـــودي وهذا دليــل ديمومتي عبر الاجيال ، اما محاربته لي — فدليل قابليته الشديدة للاضمحلال ، وواقعه الوهمي — وهـــذه هي الضمانة الاكيدة لزواله القريب ، لان من طبيعة الامور أن يتبخر غير الكائن عندما يتأكد وجود الموجود، وسيقع هذا لا محالة .
— أتدري انك بهذا تهدد الوضع ؟
— بل أزيل الغشاوة ، وهنـــا أمر بسحبي الـى الزنزانة فتقدمت الحارس ، وانا جذل باكتشافي الجديد، اكتشافي لوجودي وديمومتي ، وازالتي للستر الذي كان يخفي نفسية ضابط المباحث الحقيقية . انه لم يـأمر بسحبي الى الزنزانة، الا عندما عجز عن اخفاء ما استطعت تعريته ، فآثر الانسحاب من الاستنطاق المتبادل.

وهكذا عدت الى محجزي الضيق الرطب ، وقــد اكتسبت أول سهم من أسهم الاستمرار نتيجة الاكتشاف الجديد الذي حمل قلبي قبسا أضاء تجوفاته وحناياه ، وأمتعني طيلة الليالي التي قضيتها في انتظار المحاكمـة، بهياكله وصوامعه ومحاريبه الصقيعية ، وسواقيه المملوءة بدوب الجليد المتداعي تحت حرارة الشعـــور بالوجود ، والاستمرار .

اما ضابط المباحث، الذي يفهم من الكلمات أكثر مما تحمل ، فقد صار من ذلك اليوم يلقي علي اسئلة واضحة ومحدودة ، ويطلب مني أن أجيب بوضوح ، وحســب المفهوم السطحي للالفاظ . وهكذا ، لم يستطع ان يسجل في محضره ما يثبت التهمة ، لانه هو نفسه لا يستسيغ

ما القي اليه من تعاليم . فهو يؤمن بحتمية ارتفاع الوهم الذي لا بد أن يترك مكانه للمعقول والصائب والموجود . ولكني لم استطع ان اعرف لماذا يصر على ان يلف به حياته ، ويدافع عنه ، ويهرب من ان يعترف بمعتقداته الحقيقية ، وليدة وجوده الحق ، كما يتهرب الاب الخسيس من ابنه غير الشرعي . الا أني اكتشفت هويته في اخر يوم لي بمركز الشرطة ، حيث زارني قبل توجيهي المحكمة وهمس :

ـ ها أنتذا ستقدم للمحكمة دون ثبوت التهمة.

ـ ولكن الحكم مقرر قبل تحقيقك .

ـ أتهينني رغم تسامحي ؟

ـ ما قصدت اهانتك ، لكني ابين ان حجزي مع زملائي لم يكن نتيجة أي بحث قمتم به ، والا لكانت لديكم ادلة الادانة قبل الحجز.

ـ ان وجود أمثالي ، وغفرانهم لامثالك أهم ما ترك صحيفتك بيضاء .

ـ ولهذا السبب أيضا ألقي علي القبض .

ـ ماذا تعني ؟ أتتهمني بالخيانة ؟!

ـ لحد الساعة ، لم اقل ان التعاون مع الحكم خيانة.

فاستشاط غضبا ومرق من امامي مدمدما :

ـ حقا ... لم يزد الشر على ان انقسم شرين !

يا له من رجل عجيب يفهم من كلماتي اكثر من محتواها اللفظي ، فيتهم نفسه بالخيانة ، في الوقت الذي يمن على غفرانه المزعوم ، ووجود امثاله في التحقيق . فهل بيننا ثأر قديم كان يعكس ان يدفعه للانتقام ؟ ثم ما هو الشر الذي انقسم شرين ؟ الا يعني به انتفاضة الطلائع ؟.

ولم يختف الضابط حتى اقترب مني السجان قائلا :

ـ الم ينته بعد من تحقيقه ؟

ـ بلى ، لقد جاء يودعني ، يا له من رجل غريب ، يناقض مقوله معتقده !

ـ لا تثق ، انه من قدماء متاجري الوطنية في عهد الاستعمار الفرنسي ، وفي عهد الاستعمار ال ... ولم يتم كلامه حتى نودى من بعيد فهرول مسرعا ..

لقد كانت هذه اول مرة يصارحني السجان برأيه ، ويواجهني بحقيقته ، ويكشف لي عن هوية ضابط المباحث، الوطني التائب ... الذي يعرف مصير سيده ، ويأبى ان يتحقق هذا المصير على يد « الشر الذي انقسم شرين » .

فالمشكلة اذن ، يا عزيزتي بيننا وبين الذين يدعمون الوضع ـ عنادا ومكابرة لا يتعلق بصلاحيته او فساده ، فقد تعدى طور الاجماع على ضرورة التغيير ، ودق اخر مسمار في النعش .. بقي الخلاف حول من سيواريه ..!

ولهذا السبب دبرت المؤامرة ضدنا ، وازحنا من المقبرة اشفاقا من مصير بعض المصالح المكتسبة من ظل الاقطاع اذا ما اتيحت لنا فرصة التسيير .

وهم رغم هذا ينوون الرجوع الى الاخلاص بعد حين، اي بعد خلو الجو ، وكانما هذه الشطحات الالتوائية وهذه الميكافلية الغرة لن ترتسم في ذهن الطبقة الواعية لمصيرها وهدفها وطريقتها ... لقد نسفت هذه الطبقة قنطرة الرجعة خلفهم ، ولم يبق لهم الا ان يسيروا في طريقهم ويوصلوا معركتهم ، فهم ملاقو مصيرهم ولو في اسوأ الظروف .

كأني بعينيك ترتسم فيهما علامات الدهشة والحيرة لما لاحظته من اقبال عدد مهم من الرعاع ، على المنظمة المختلفة، لتدعيم ما زعزعه وعينا ووعي كل المؤمنين بضرورة التحكم في المصير ، وتوجيه القدر .. لا تجزعي . فما كان العجزة والشيوخ والاميون فكريا ، والنفعيون والحاقدون البسطاء ، ومرتزقة الوظيف ليفيدوا أي جانب ، ولطالما اعتمد عليهم الدخيل اثناء مقاومتنا فكانت اساءتهم له اكثر مما يؤدون من خدمات ، وانت تذكرين أيام غصت عاصمة الثورة « البيضاء » باعراب اتى بهم لتشديد مراقبة المقاومين ، ولكنهم لم يكونوا ليحسنوا حتى الوقوف ... فثقي أنه انما يجد الجد ، وتتخلص الطلائع من التردد ، فلن تري اثرا لهذه الطغمة الحربائية التي لم تبرهن الا على عدم صلاحيتها . فديدنها دائما ان تقعد طاعمة كاسية ، وتتجرد من كل قيمة انسانية ان هي جاعت او عطشت . ولقد كان العميل ذكيا عندما لم يستخدمهم الا حينما اجاعهم ، وكأني به يعود اخيرا الى حكم العرب وامثالها ، يستلهمها خططه ولكنه اغفل انهم لا يصلحون الا لتمثيل هزليات العدالة ، وعداها فهم خيول قصب ربما نفعت للتفكهة ، ومجاراة جموح الاخيلة وارضاء بلاهة الاطفال ، اذ لم نشهد دولة قط ، قامت على كواهل طائفة لا تجمعها رابطة مبدأ او وشيجة عقيدة او حرارة عاطفة ، ولسوف يكتشف نفسه وحيدا وقتما يفكر الاخوان فيما اتهمنا به ، وليس ببعيد ان يطمع العبد في الذراع بعدما يطعم الكراع ، وهذا ابسط تقدير .

والان ، ماذا تريدين يا عزيزتي ، بعد كل ما ذكرت ؟ ربما لا زلت تستزيدينني لغوا وهذرا . علك تكتشفين الهوة التي تردي فيها زميل كان متزنا ، او لعلي نغصت ساعتك ، فوددت لو تحسبت وامسكت ، حفاظا عليك من العدوى ... على كل حال ، ساكتفي الليلة بهذا ، لاطباق الظلام ، وحينونة ارغامي من طرف السجان على النوم ، بعد ان بحت لك ببعض ما لم افصح به لاحد ، حتى لنفسي. فشكرا ، لانك ساعدتني على ان اعبر لنفسي عن بعض نفسي ، وساتابع ثرثرتي غدا ، لانها هي العمل الوحيد المسموح لي به ، بشرط ان احتفظ بها لنفسي ولهذا استصبرك على تحملها ـ اذا ما قدر ان تصلك ـ بعدما احاول غدا ، اكتناه ذهني واعتصاره علني اجد فيه من حلب .

« الساعة الرابعة ليلا »

اكتب اليك يا اقرب مخلوق الى قلبي وفكري ، بعد ان ايقظني كابوس مرعب . رأيتك فيه اسيرة اخطبوط هائل له ثلاثة رؤوس ، وانت تصارعينه يائسة خائرة مختنقة ، وبيني وبينك هوة عميقة مماوءة لهبا ، تمنعني مشاركتك صراعك ، ولو اني كنت معتقدا بلا جدوى مساعدتي . وبعد حين رأيت نفسي ارتمي في الهوة فاذا بلهبها بارد ، واذا بالطرف الاخر من الهوة مدرج ، فاصلك دون معاناة واستطيع بعد جهد قطع الرؤوس الثلاثة ، ولكني لم اشعر الا ورأس رابع اضخم واعنف له وجه بشع مرعب ، فيه ملامح من زوجك ، يمسك عنقي بكلابة فمه . فيسري في سائر اوصالي زعاف السم ، ويضيق صدري ويحرج كأنما اصعد في السماء ، وتتفكك اعضائي واوشك ان اسلم الروح ، لولا استيقاظي ، وتخلصي من النوم ، لاستسلم لتيار جارف من التأملات والاخيلة، جرتني ، اليها محاولة تفسير هذا الحلم العجيب ، وكأنما عقلي الباطن لم يرقه ان انسى واقعي ، واكف عن اجترار الم وطني اثناء النوم ، فحاول تذكيري رامزا للخيانة التي

اطاحت بي الى الصحراء ، وبالرأس الرابع ذي الشبه الكبير بزوجك الذي اغتصبك من ذويك ، مذ كنت في الثانية عشرة من عمرك . واكتشفت اذ وعيت انك زوجة مخبر ، طالما تابع المخلصين واسترق اخبارهم ، ولكنك وجدت نفسك مرتبطة ببيت تدفئه انفاس مولود بريء عزيز لديك ، وان كان متأصلا من شجرة زقوم . منضافة لانفاس والدة تحاول ان تكون سعيدة صابرة ... « متطلعة » الى السماء ، الى كل عزيز مفقود وايمان عجائزي لا يسأل ولا يتساءل ، لا يفهم ويفر من ان يفهم رغم ان الفهم عزيز غير مدرك ، والوضوح ناء غير موصول .

هذه الوالدة التي ما ان اوصد دونها رتاج الزنزانة الاجتماعية حتى اخذت حلقات المحجز الروحي في التفكك والتفزر ، ففقدت اول الامر عزيزها الذي طالما تطاعت اليه في السماء ... وحاولت ثانيا اغتيال الوهم الذي هو الفرق الوحيد بينها وبين انسان اخر طالما تمنت – كما كان يتمنى – ان ينصهر وجودها في وجوده ناسية ان هذا الفرق لا يمكن اغتياله حقيقة ، لانه بمثابة هوة سحيقة تصل قمتين متوازيتين ، يكسوهما الزمهرير ، واحيانا تلفحهما الاشعة ، وتحل بهما انواء الفصول دون ان تنال من شموخهما وتفردها . وفوق اعلى قمة كل منهما تحملق عين حادة غريبة فيها من الاصرار والتحدي والتحرر وكل محاولة لاغتيال هذه الهوة ، بمثابة هد لاحدى القمتين ، ودحرجة لها في القرار الذي لا قعر له ، بغية ملئه وتكوين قمة واحدة اكبر ...

لا تحاولي ملء الفراغ الذي بين القمتين ، بل اتركيه، اتركيه بكل ما يلفه من ضباب وصقيع وتجمد ، وما يميزه من شساعة زمانية ،ولا محدودية مكانية ، اتركيه فلن يمتلىء ولن تزيد اي قمة في علو الاخرى ، لان قعر الهوة موجود، وابقي قمة متفردة بجانبي ، واستشعري حلاوة التفرد والتحرر ، فهما تعزيتنا في هذا العالم الذي حرمنا فيه من الحرية حتى في ان نموت .

انك يابئيستي الصغيرة ، تعيشين تجربة مرة وفريدة نادرا ما عيشت . لقد بدأت تشعرين بحريتك وتفردك ، في الوقت الذي احاطت بك السلسلة الاجتماعية، بل اثناء ضيقها وتقلص حلقاتها حولك بالضبط ، ولهذا ارثي لك ، واتمنى ان تنجحي في التوفيق بين نار الحرية في روحك وفحم الاستعباد في جسمك وبيتك ، دون ان تستحيلي جمرة ملتهبة ترمد بعد حين ، لتسفي ذراتها ريح الهوة الفاصلة ، على نتوء القمة الثانية التي لم تعش هذه التجربة الميئوس من سلامتها .

ولكن كيف يمكن – ان نعيش بدون قيود ؟ اليس في التزام الحرية قيد اخر حتم كسره ؟ انكون احرارا عندما نتحرر ؟ اليس في التحرر من الحرية استعباد ؟ فكيف نتحرر من الحرية والعبودية في آن واحد ؟... ارى – آسفا – اننا ندور في حلقة مفرغة .. او اننا نعيش دوامة مغثية من جبر مركز ذي وجهين احدهما حرية ، والاخر استعباد ، ولا يمكن ان تكون الحرية على حسن وقعها في النفس ، الا عبودية فوضوية ... او مهذبة ، تسهل استغلال الفرد واحتلابه دون ثورة او تمرد ، كما ان كثيرا من العبوديات لا تعدو ان تكون حريات مقيدة ومسلسلة .

فيا عزيزتي ، ما الحرية وما العبودية ؟ وكيف نكون احرارا اذا لم نكن عبيدا ؟ بل كيف نتحرر من الحرية والعبودية في آن واحد ؟ ومتى يكفون عن تسميتنا احرارا لعدم استغنائهم عنا ؟

لقد فجعتك مرارا بعدم التزامي باية اصول عقائدية ، وباضطرابي وقلقي بين الميتافزقيات البشرية وبنبذي لها كل آن ، ولعلك تحاولين اقناعي بانه ليس في عدم تقيدي بها اي تحرر ! او تنتظرين مني ان انقلب شاؤول للقرن العشرين ادعو اليوم الى ما كنت احاربه بالامس ، ولكني لا ارغب في هذا الموقف ، لاني اربأ بنفسي ان يحكم علي غيري بشيء اريد ان احكم به على نفسي في الوقت الذي اراه مناسبا كي اخلص الى ان أتحرر من الرق والحرية معا. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي اراها الان – على الاقل لتحقيق الامال وللتخلص من هواجس هذه اللحظات المدلهمة من الليل التي استسلم فيها لتخدير النوم كل البشر الا مخلوق منهك القوى ، حاد الطبع ، منعه النوم اضطراب مرير وازمات ربو مقيت لم ينفع فيها جفاف طبيعة ، ولم تجتثها حرارة شمس ، ولم تهدئها حقن طبيب ، او تعاويذ فقيه ، ولم تبلغ به هذه الازمات منتهاها فيقضى ، ولم ينتظم نفسه فيرتاح .

فيا له من مرض منافق ، يحرص على ان ينسجم مع بيئة هذا البشر ويتخلق باخلاق اهلها ويا لي من شقي ، لا يخفف من جفاف دنياه الا طيف طفل وديع ، وخيال ام رؤوف ، ورفيقة قصية وفية تشاركه آلامه واحزانه وافكاره ... فهل يا ترى يدوم لي هذا الثالوث الطيب ؟

انني كلما فكرت هكذا اشعر بحسرة مريرة وميل شديد الى ان اعطي لنفسي حرية كاملة لابكي ، وابكي حتى اخمد نار القوة المندلعة في اعماقي ، واشعر بذلك الاستسلام الخنوع الذي يشعر به كل بكاء خضوع راض نفسه على قبول الحياة واستغلالها ، وانسى اني عضو في مجتمع ثلثه اعمى ، وثلثه فاجر وثلثه الباقي طيب ابله ، ينشد الاستقامة ولا يجد سبيلا قويما يسترشد به ، فظل يتعثر بالصخور والحجارة والحفر والاشواك محاولا شق طريق جديد دون ان يفلح الا في ان يخسر صحته ووقته ليكسب كلمة باردة من بعض الساخرين لا تعدو :

« مسكين ... يا له من طيب .. مستقيم ! »

انا يا عزيزتي اعيش الان حياة اقرب الى هذا الليل المدلهم ، الذي تطغى سوداويته الكالحة على هذا الكون الاعجم الصامت ، الا من نقيق مزعج لضفادع ثرثارة ، الفت عفن المستنقعات ، وعواء ملحاح لكلاب عقورة تستنبحها خيالات ظلامية ، واشباح وهمية ، ورعب مستمر من انسان يكره الكلاب ، ويحتقر العفن ، ويعقم المستنقعات ، ولكني لا التمس طريقي في هذه الحياة بهدوء ولا اسايرها مراوغا متحايلا ملاينا وانما كلما ضاق نفسي ، وتضاءل جهدي ، وضاعت المعالم من باصرتي ، واخذت الاشواك والحفر والاحجار والارض شكلا واحدا اسود ، لا يهدي ولا يساعد على الاهتداء ، زحفت قدمي الى الامام بعنف وقسوة واصرار ، غير آبهة بالعوائق والحواجز والضفادع والمستنقعات تدفعها الى الامام لا مبالاة عنيفة واستهزاء بالوجود منكر ، وسخرية بالاشلاء والجماجم مريرة ، وعلم منها يقين ، بعقم الحياة ، وتفاهة الامال ، ولا جدوى التهافت على تمطيط الايام والاعوام ، وادخار الطاقات الحيوية لغايات غامضة ، كثيرا ما نستبين خطلها او نكتشف عنصر التفكه والتفاهة فيها .

قد تدميني هذه الطريقة في عبور درب الحياة ، وقد ترضني وتشل بعضي . ولكنها لا تؤلمني ، لاني اشعر بالم اكبر مما تسببه طفيليات الطريق . اتدرين مصدر هذا

الآلم الاكبر ؟ انه وجودي في هذا العالم الذي احاول ان ابصقه فلا استطيع ، واحاول أن اقترب من شفتيه ليبصقني ، ولكنه كلما احس بي ادغدغهما ابتلعني ، فلم اشعر الا وانا في جوفه النتن الابخر المغثي ، انتظر دوري للخروج من القناة الطبيعية ، كما يخرج البشر القذر .

فانظري كيف وددت ان ابصق من فم الوجود ، رغم ما في البصاق من حقارة ، ولكن سخرية الجبر اخترعت لنا منفذا اخر ، اشد حقارة ، وادهى مقتا ، فهل يا ترى يقبل مثلنا هذا المصير ؟

هناك افراد نجحوا في محاولتهم ليبصقهم الوجود ، ولكنهم اتهموا بالجبن والخور ، فهل يستطيع احد ان يبين لي ، ما في انتظار منحة الخروج من المنفذ الطبيعي ، الاكثر حقارة — من شجاعة ، وما فيه من بطولة ؟

انا لا ادافع عن المبصوقين ، ولكني أود ان أبين ان للانسان مهمة وحيدة في هذا العالم ، هي ايجاد منفذ شريف ينقذ به ما تبقى لديه من وهم كرامة واباء . وما دمنا لم نهتد الى هذا المنفذ ، او لم نستطع استحداثه ، فليس لنا الا ان ننتظر المنحة العمومية ، أو نحاول الحصول على منحة خاصة .. هي البصاق !

فماذا تختارين ؟

أعتقد جازما انك من ذلك النوع التائه الحائر ، الذي لا زال مؤمنا — عن خطأ — بامكانية ايجاد منفذ شريف ، وكأني بك تجدينه وانت جالسة ترقبين افول الشمس وانسحابها الهادىء من يومك ، وتحدقين في التجاعيد المتفانية ، والتجاويف المتهالكة ، والخطوط المتلاطمة ، التي تحدثها امواج اللجي في اقصى الافق حيث تسكب أشعة الغروب عليها لونا افتدائيا دمويا قانيا .

لا تتسرعي ايتها المتفائلة ،ولا يأخذ بك الفرح كل مأخذ ، فقد مضى زمن الجهاد المقدس الذي يفتح للانسحاب الشريف من الوجود الف باب ، ولم نبق الا في زمن اختلطت فيه القيم ، واشتبهت المثل ، ولم يبق كل موقنا تمام اليقين بما يحمل من عقائد .. فيا تعسا لنا ، زمن العقائد الواضحة مضى ، اما زمن الجهاد المقدس فليست له رجعة ، ولن تمر برهة حتى يفنى زمن المنح الخاصة ، فهاتي يدك ، ولا تجزعي .

لقد حاولت أن اتخذ موقفا ، مثل الاخرين ، الاملين ، المنتظرين ... كيلا امكث متخبطا ميمنة ويسارا ، وعلوا وسافلة ، ولاتمتع على الاقل ، بسرحة حالمة مجنحة . تكفيني شر رد الفعل العنيف ، والمحاولات الملحاحة للتخلص الى الطريقة المثلى ، او المبدأ الافضل ، ولكن سكوني العضوي هنا ، حال دون أن يسكن فكري او روحي .. او باطني .. او بتعبير موضوعي : ذلك « اللامعروف » الذي يجعلني اتجاوز عالم الشعور الحسي ، ولطالما شعرت باني ذبيح متمرد لم يعترف بواقعه ،فأخذ يتخبط ، وينطح الجدران والحجارة ويركل الفراغ ، متوهما التخلص بهذه الحركات المتنطعة مما حل به . او — على الاقل — اقصاء فنائه وتأخيره لاجل ، ولكنه سرعان ما يسقط جثة هامدة ، مختزلا آخر لحظاته ، مساعدا بحركاته وتمرده على تعجيل نهايته ، وكأنه باوضاعه المختلفة التي يجرب أثناء الاحتضار، وقيامه وقعوده واضطرابه يحاول أن يكتشف الوضع الذي يحل المشكلة ، وهذا على الاقل ، اشرف ... بل اقوم موقف — مع اعتبار « بل » للاضراب التام — يتخذه الانسان في حياته . اذ الاعوجاج والالتواء ، والتجارب المتضادة تمثل طرفا في معادلة الاستقامة .

اما الذبيح الذي يستسلم ويبسط خده ارضا ، في سفرة حالمة يسميها حياة « واقعية » ، جدية ، او سعيا هادفا منطقيا — فهو اما ظن هدوءه خير سبل النجاة ، او هدف الى التمتع باخر ما تستطيع الحياة المادية اسداءه ، وهو في كلتا الحالين قد اعتبط بتحديد موقفه ، وتطبيق طريقته ، دون تقدير النتائج ، فاستسلم للامل .. والانتظار ... والجمود ، اما النهاية ، فحتما لن تكون اكثر من تجمد .. وتحجر .. وفوات تجربة فريدة لن تتاح له بعد الموت .. اي بعد تحديد الموقف ، هذه التجربة هي معيشة لحظات مهمة من الاضطراب المتفحص ، والركل المتبصر ، والتخبط المنقب .

فيا ذبيحتي الساذجة ، اعوجي يمينا وسافلا ، ويسارا وعلوا ، في متضاد الجهات ، ومضطرب الاوضاع ، ومتمرد الحركات ، ومتنافر الاهداف .. اضطربي ، اضطربي ، عساك تهتدين الى اله حق يخلصك من عذابك ويفيق البشرية من غفوتها ، او تعجلين بنهايتك الحالية للنفاذ الى الطور الاخر ، طور التفتت المادي الصرف او اللاوعي البايد الممل .

أما الاستسلام والجمود .. ارتقابا للالهام ، او تلهيا عن الالم ، فلا يجدي الا في ان يزيد من عمر التحجر الذي سيحل بك لا محالة ، وستملين منه ، وتندمين على انك ادخلت نفسك في عداد الموتى قبل الاجل . وعلى انك لم تعيشي ايامك الاخيرة في اضطراب حي متطور .. متغير .. يشعرك ، على الاقل ، انك تستطيعين الحركة وهذه ابسط غنيمة ..

لقد بحثت عن الحل الامثل .. وبحث غيري .. كثيرون ، ولكننا لم نتعد الرسام الذي ظل يعالج الاصباغ خلطا ودلكا ، والريشة سحبا .. وتلطيخا .. على مختلف الاوضاع ، وفي متنافر الجهات . عله يعبر عما يداعب اقصى آفاقه فلا ينتهي الا الى الخذلان .. والفشل .. او الى أي نوع من الرموز المشكلة يسعى ليسميها ويعرضها على انه قد هدف الكنه .. كاتما نفسه فشله وحيرته في تشخيص مطعن سعيه ، اهو قلة الالوان او ضعف في الفكر ، ام عدم اكتمال في التجربة ووضوح في الهدف ، ام لقصور طبيعي مزمن ؟. فيكتفي بما نال على انه قد اغيا .

كلنا رسامون ، الا ان الذين لا يضطربون ، بمثابة الرسام الذي ايقن بالفشل قبل حاوله ، او الذي أكتفى بما نتج عن محاولاته من اشكال ، اتخذها لوحة ... او مبدأ ... او هدفا ... فحكم على نفسه بالفناء . او كالكيميائي الذي ارهقه خلط المعادن ، واعياه تحليل القمر ، ورجمه بالعقرب ... ومزجه بزحل ، ليكتشف سر الشمس واكسير التكامل ، فاكتفى بأن اعان انتصاره ، بان اخذ يزيد في وزن الذهب من عيار اغلى ، باحالته ذهبا من عيار اخس ، واتخذ هذه الطريقة مبدأ حدد به موقفه ... واعدم نفسه . الا اننا — مع الاسف — او لحسن الحظ — لست ادري — ليس لدينا ذهب نستطيع ان نزيد وزنه بالحط من قيمته . وحتى اذا ما وجد ، فلا نستطيع التعامي ولا نطيق الكف عن الاستقراء ، والخلط ، وتجربة التحليل ، والمزج ، والرجم والتنقية ، والتلطيف ، علنا نخلص الى طريقة مثلى ، نصنع بها ذهبا خالصا ، وليد فكرنا واجتهادنا ومثابرتنا . الا اننا بحاجة اولا الى توعية تزيل اثر النوم العميق والتخدير الشامل ، للذين هيمنا علينا ، وبلدا حواسنا ، توعية توقظ احساسنا ، وتشعرنا بالالم ، والوجود ، والتطلع الى اعلى ، وتكسبنا غرورا ،

واندفاعا ، وتهورا ، نقضي بها على الاعتلات والاكتفائية ، ونكشف بها ما احتجب عن اجدادنا العمهين الضائعين ، ونقتحم بها كهوف الحياة ومعارق الحقيقة ، ومزالق الضلال، ونجعل بها كل فرد نتيجة شعور حاد بالمسؤولية ـ مساهما رئيسيا في جهد عام لاكتشاف الطريق .

وهذا يؤدي حتما الى ضرورة القضاء على احتكار كفاءة المسؤولية ، والتخلص من قوقعة اللاوعي التي لفتنا بها طبقة التوهم ان في ترقيتنا مدعاة تعذيبنا ، لانها تشعرنا بمقدار التخلف الذي نعيشه ، ولا نستطيع كبح اطماعنا الجامحة ، وليدة هذا الشعور والى اتخاذ سبورة مشتركة نسجل فيها تجاربنا الفردية ، وتحاليلنا الشخصية المنبعثة من واقعنا المعاش ، كي يتحقق التكامل ، ونستخلص قاعدة كلية للوصول الى مبدأ افضل .

وما دامت هذه السبورة محجوزة من طرف محتكري المسؤولية ، فان الحصول عليها يقتضي اولا ، وبالذات ، القضاء على هؤلاء المحتكرين . ولا بد لهذه الغاية ، من قوة نظامية واعية تعتبر اول خطوة في معركة السبورة .

الا انني ـ لسوء حظي ـ ازحت من الميدان قبل الالتحام ، والقي بي في هذا السجن القصي كلا اشل ، اترقب يوم الفرحة المسعورة ، يوم التلغيم والزلزلة اذ يصدر امثالي اشتاتا من لحودهم ، وعلى وجوههم الف تعبير ، والف نشوة ، والف عزم على تأكيد الوجود .

والى ذلك الحين ، انا هنا انتظر ، واجفا ، راجفا ، مشفقا ، ذهولا ، استفتني تارة ... واستحيي اخرى ، كلما تأرجح فكري بين اليأس والرجاء او تداولته خواطر السخط والرضاء او انتابته لحظات اشراق معشية ، او ازمات اظلام مغشية ، او هاجت ذاكرتي عواصف هوج اجتثت شجرة النفاق التي كانت تظلني ، فاجدني في سموم وحموم ، لا بارد ولا كريم ، عاريا الا من عاطفة متأججة ، هي المكسب الوحيد الذي استخلصته من حياتي المتأرجحة التي اشرفت على توديع العقد الثالث .

هذه العاطفة هي شعور الالفة والمحبة الذي ظل يهيمن على قلبي ، ويلطف من حمارة القيظ التي يصلاها في جحيم هذه التجربة الحتمية .

بيد اني كلما عن لي طيف حبك ، عاودني الالم ، واعتصرني الندم ، وطفت على نفسي موجة من التبكيت واللوم ، واستشعرت نوعا من الاحتقار لكياني ، والسخرية بشجاعتي ، سيما وقد تأكدت ان جبني وترددي وانانيتي اهم اسباب انفصامنا وتباعدنا .

اما انت ايتها الغالية فلا زلت على مر الايام، والاعوام، تعظمين ، لانك استطعت التغلب على نفسك ، وفرض ارادتك ، عندما اعلنت عن حبك لي ، وعزمك على التضحية في سبيلي والتكفير حتى عما الصق بك تلفيقا وبهتانا ... لقد اثبت بموقفك ـ اذ ذاك ـ ذاتك ووجودك . ولكني انا المتضائل المتصاغر الاناني ، الجبان ، خنتك ، وتركت يدك ممدودة في الفراغ ، فالقيت نفسك محاصرة بما نسج حولها من تقاليد واعراف . وواصلت الطريق الذي رسم اهلك ، في تطاوع بئيس واستسلام متبالد ، وخطو متخاذل بعد ان ابكمت يسارك ،وواريت حبك الذي نما ، وشب بين النخيل ، وعلى ايقاع امواج الاصيل ، وتحت السماء الزرقاء ، حبك الذي غذته الشمس الذهبية فعاش قويا ، واذكته الغربة فالتهبت قويا ، ومنعته الانانية فمات الى الابد قويا ، واودعته النخيل وسقيته الثلج المذاب فوق شوامخ القمم .

اما هذا المخلوق التعس فقد اخجله اخلاصك ، وخؤونته ، وحار بحبك ، ايمسكه على هون ، ام يدسه في التراب . وهو في كلا الحالين طالما ارقته هواجس الاحلام، واسهرته نواعق الظنون ، وبرحت به طوارق الشكوك ، ومزقت قلبه ـ شر ممزق ـ متاهات ومفازات ، وشواسع رمال وآكام ، خب فيها مستوصلا تلسعه الاشعة ، ويكويه اللفح ويحرقه اللهب ، ويخدعه السراب ، ثم لا يلبث ان يتخلج باقدام متثاقلة تغوص في الرمال ، فتبذل للتخلص منها الف جهد ، والف قوة ، وتخسر نتيجة هذه المجاهدة ضعف ما تفقد في عديد الخطوات ، ولكنه لا يبالي ، لان التراب لم يعد يغويه ، ولان الطريق لم تعد تمله ، فهو يهرول ، اشبه بالحبو . كلما حدس انه سيسقط ، اكمل خطوة بركبتيه ، وبنانه ، مصرا على المواصلة ، وعلى بذل ما تبقى لديه من رصيد تحمل ، وعلى تجاهل ما به من اوار ، مفضلا ان يظل ساعيا حتى اخر لحظة له في الحياة.

لطالما ـ حبا هذا البئيس ـ عله يقطع الطريق ، او زحف ساحبا مؤخره في قيظ الصحراء ورمضاء الهجيرة مستبلا اوارا ، ومستروقا لسانا . والوجه منه اغبر اجعد ، شاحب جاف ، لم يبق عليه الا شعيرات لفحها الحر ، وشابتها خطوط يابسة كانت مجاري عرق ونضبت ، وهو في دؤوبه لم يبق له هدف ، ولا يؤمل ان يحقق غاية ، وانما يسير بحكم صارم اصدره على نفسه ، ولا بد ان ينفذه ... فهو يخب ... ويتخلج ويزحف ... مادا يده الى الفراغ ، والى العدم ، في صمت رهيب واصرار عنيد ، وآلية عنيفة .

وكلما احس الوهن واستحالت عليه المواصلة ... آب الى قلبه ، يفتحه باضطراب شديد ، وحرص اشد .. يفتحه ويتزود منه بقطر ندى ، من ذلك الفيض السحري الذي اختزنه في ايام الربيع ... ربيع حبك يا الهتة العجيبة فلم يشعر الا وقد انتقل الى واد خصيب ، تنبجس من جنباته عين ثرة مدرارة ، تتخللها مجاري ماء رقراق عذب زلال ، يكرع منه ملء الحياة ، ويمرع بين اعشابه بلهف وتهالك ، ويشتم عطر زهره بشبق حاد اعجم . ويغمس وجهه في المياه المنسابة الفياضة آنا ، وبين الاعشاب المخملية طورا ، كأنما تمتعه سفعات مويجات الساقية ورشقات اطراف الاعشاب النامية ، وتزيده شعورا بالسعادة .. والمحبة والصفاء . فلا يلبث ان يعاوده الامل ويصبحه الاشراق وتتحلل ركبتاه من الوهن ، ويظهر امام باصرتيه افق وسيع من ماء ونعيم ، وخضرة ونسيم ، وظلال وارفة تلفها الشفافية ، وتبعدها جحافل اللفح واللهب ، فيخب ... ويهرول ، ثم يتخلج ... ويحبو ... الى ان يقضي » .

ع . مطيع

الدار البيضاء ـ المغرب

لوحة من زجاج

(١) :

وتعبنا ...
وتمزقنا على الصخر جباها وعيونا
ثم عدنا
حين كانت لثة الشمس رمادا
وحديدا
حين كان الفجر مثل الدمل المزروع دودا
ثم لما اتعب السير خطانا
ارتمينا عند ركن من جدار
نرسم الصمت على اعيننا
ونشد الزرد المفتول في اضلعنا
ثم تمتمنا كلاما همجيا
وافترقنا ..

(٢) :

يا لها ايامنا الحبلى ترد العمر مسخا
وترد الحب شيخا
فالحياة ...
ذلك الوجه الخرافي الخطوط
ذلك الجرح الذي يمتد كالاخدود في اعماقنا
ذلك الضرع الذي كنا ملأناه ترابا
وبللنا من لظاه شفتينا
الحياة ..
لم يكن فيها مكان لقدم
عندما حط على بستانها الاخضر قمري صغير
يسأل الجرذان عن شجرة ورد بين اقدام الدغل
فعلى منحدر الصمت الكبير
استراحت سندرلا
في سرير من هزال وقميص من ألم
فالحياه ...
لم يكن فيها مكان لندم

(٣) :

حين دثرت يدي
في جيوب المعطف البالي تلمست طريقي
فهبطت السلم المفضى الى قلب المدينة
ثم اسلمت الى العتمة خطوى
كان وجه الليل غفلا
ورغاء الناس يلتف مع العتمة قحلا
والمصابيح البعيدة
تتمطى في خيوط من زجاج
مثل اثداء نساء منتنه
كنساء عريت افخاذهن العفنه
غير اني حين ابصرت على جسم الطريق
غابة من شجر الدردار تستلقي على صدر المدينة
ثقلت رجلي وجفت خطوتي
وتلقتني يد ناحلة الرعشة.. حيرى
وعيون جمدت فيها الحياة
فترنحنا .. تهالكنا .. تشبثنا طويلا
واستحلنا غثيانا .. وامتقاعا .. وذهولا
ثم عدنا ...
صدفا اجوف من غير رنين
وعروقا نفضت كل الحنين
وافترقنا ...

(٤) :

غرفتي عارية الحيطان تقتات السأم
غرفتي استارها ليل اصم
ربو مر .. دوار ..
غرفتي تستقبل الشمس عجوزا ساخت تسعين عام
نفضت ايامها ، لم تحتقب في صدرها الا الاوام
ذات يوم لم يكن في غرفتي الا الملل
فتحاملت .. تلفعت بثوبي
ثم القيت الى المرآة نظره
كان وجهي لم يزل يبدو عقيما وبليدا
لوحة .. خارطة جرداء من كل كتابه
غير انى كنت ابصرت صفوفا من وجوه خلف وجهي
كلها يشبهني .. يصغرني ..
يرسمني في جبهته
كلها يغرس في عمق شعوري نظرته
فتلفت الى وجه طرى قابع خلف الوجوه
نائم تحت شجيرة
كان طفلا ساكنا مستلقيا تحت شجيرة
حوله ترتع قطعان فراس وشياه
وعلى رجليه تمتد فروع الشيح ،
والليلك ، والحور الصغير
وبعينيه اشتهاء للحياة
وتململت .. تراجعت .. فقد اهوت على الطفل الوديع
حدأة راعفة المنقار شوهاء الجناح
نقرت عينيه .. عضت وجنتيه
ثم سلت وردة بيضاء كانت في يديه
فاذا الوجه الصغير ..
غائر الجبهة ، مكسور العظام
واذا الاوجه اخلاط عيون، وانوف،
ورؤوس ، وخدود
واذا المرآة تل من حطام
واعترتني رجفة باردة هزت جبيني
فتسللت الى جوف المدينه
وصفقت الباب خلفي ... !

(٥) :

المدينة ..
نغم ابكم من غير وتر
رقصة عمياء تهتز على كف الضجر
عند اقدام المدينة
غابة من شجر الدردار ترتاح على صدر الظلام
صمتها بحر جفاف ، وعدم
فالحياة ...
لم يكن فيها مكان لقدم .

الاسكندرية **عبد العظيم ناجي**



العالم ليس عقلا

تأليف الاستاذ عبد الله القصيمي

***

تمنيت لو ان صاحب كتاب « العالم ليس عقلا » تكلم على أساس العقل والمنطق ، حتى ندرس كتابه على هذا الاساس ، أما وقد أبى الا ان يجافي العقل ويعاديه فلم نجد بدا من ان نردد التساؤلات التالية :

لست أدري - وليتني بخبير - ما الذي حمله وبعثه على العداء والكراهية للعقل ، حتى بلغ الحقد على العقل ان ينكر وجوده من الاساس ، او يعترف له بأدنى تأثير في هذا العالم ، رافعا عقيرته معلنا ومرددا من غير شعور : « العالم ليس عقلا » ..

هل يريد ان يشبع نزعة في نفسه لا تلتئم في شيء مع العقل ، حتى ثار عليه ثورته ؟!.. وهل للعقل من ذنب الا انه ينهى عن الكفر والزندقة والالحاد ، وعن الاجرام والفوضى والفساد ؟!.. او انه يحاول ان يثأر للحيوان من الانسان الذي اختص بالعقل دونه ، وتميز به عنه ، وهو من المصلحين الدعاة الى المساواة بين جميع الاشياء ، حتى بين الحيوان والانسان ، وعلى هذا : اما ان يعطى للحيوان عقل ، تماما كالانسان ، واما ان يسلب العقل عن الانسان ، وعن العالم وعما وراء العالم كما سلب عن الحيوان والترجيح ظلم وتحكم ..

ثم أليس هذا القائل جزءا من العالم .. واذا كان الكل جنونا لا عقل له ، فما يقال في العالم يقال فيه ؟!..

وايضا قال : ان افعال الانسان واقواله لا تعبر عن الواقع ، ولا تمت الى الحقيقة بسبب ، وانما هي تعبير عن اشياء يتوهمها ، ويتصورها في مخيلته - اذن - قوله « العالم ليس عقلا » لا يعبر عن شيء من الحقيقة والواقع ، وانما يعبر عن اوهامه وتخيلاته .. وغفر الله لمن قال : « من أنكر الفلسفة فقد تفلسف » .

ومعنى قوله « العالم ليس عقلا » انه لا اثر للوعي والادراك فيه ، واذا انتفى الوعي والادراك انتفى الخير والشر ، والحق والباطل ، والقبح والجمال ، وتساوى موت الناس جميعا ، وحياتهم جميعا .. ولا ادري هل يصبو صاحب الكتاب الى هذا ، حتى لا يؤاخذه مؤاخذ ، ويحاسبه محاسب ، او انه كما قال الفيلسوف المعاصر «برتراند راسل» : « اظن ان دعاة « اللاعقل » يرون ان الفرصة في الكسب من وراء خداع الناس تكون افضل اذا جعلوهم في حالة هياج مستمر » ، اي في الفوضى التي يدعو اليها « العالم ليس عقلا » .

وايضا قال فيما قال : « ان معنى الخرافة ان نعتقد بشرعية هذا العالم » اي ان جد الخرافة ان نقول بأن هذا العالم ليس بخرافة ، وليس من شك ان هذا القول من وحي التخريف ، لا من وحي العقل ، لان « العالم ليس عقلا » ..

وقال العلماء بعد الاختبار والتجارب : ان للطيور والحيوانات ، بخاصة الكلاب والقرود ذكاء او غريزة تدلها على عوامل النجاح ، وان نوعا من الحشرات كالنمل يتصرف دائما بما تمليه مصلحة الجماعة . وقال هذا القائل : ان العالم بأرضه وسمائه ، ونظامه وانسجامه ، وعاومه وفنونه ، وحضارته وتشريعاته ، كل هؤلاء « ليس عقلا » .

واذا عطفنا قوله على قول العلماء تكون النتيجة الحتمية ان بعض الحشرات أذكى وافضل من بعض افراد الانسان .

وبالتالي ، اذا كانت وظيفة العقل هي اختيار الوسيلة الى تحقق الغاية فان دعاة الفوضى لم يهتدوا بعد ، ولن يهتدوا الى شيء يحقق أهدافهم وغاياتهم .. اما دعاة الخير والفضيلة فقد تم لهم ، او للكثير منهم ما ارادوا ، وربما اكثر مما كانوا يأملون .. ذلك انهم - وان نقموا على اوضاع مجتمعاتهم ، وعادات بيئاتهم - الا انهم لم يلعنوا الناس كل الناس .. وينفوا عنهم وعن الوجود التعقل والوعي .. بل وضعوا الخطط السليمة الحكيمة ، وارشدوا اليها برفق وتواضع .. ان الدعوة الى الفوضى والهدم ، والسب والشتم ، سهل يسير ، حتى على الاطفال والمجانين .. اما الكمال والبناء فصعب عسير الا على العقلاء والعظماء .

محمد جواد مغنية



الفنون الادبية وأعلامها

تأليف الاستاذ انيس المقدسي

الناشر : دار الكاتب العربي - ٦٦٠ ص.

***

مكتبتنا العربية تفتقر الى دراسات وابحاث اضافية حول النهضة الادبية الحديثة التي بدأت في القرن التاسع عشر ونشطت في القرن العشرين . فالكتب التي تناولت النهضة في مختلف مظاهرها ومراحلها ومواطنها ما تزال قليلة ، سواء في ذلك الكتب العامة الشاملة نظير الجزء الرابع من تاريخ الاداب العربية لزيدان وتاريخ الادب الحديث للدسوقي ، او الكتب الخاصة التي بحثت النهضة في كل من الاقطار العربية ، او التي تناولت كلا من الفنون الادبية على حدة ، او تخصصت في واحد أو أكثر من اعلام الشعراء والناثرين ، فكتاب « الفنون الادبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة » للاستاذ المقدسي يملأ فراغا في هذه الناحية لانه يشمل اعلام الناثرين وانتاجهم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، في القطرين المصري والشامي ، مبتدئا بأعلام الرواد في القرن التاسع عشر ، ومنتقلا منهم الى اعلام المقاليين

والخطباء وكتّاب القصة والمسرحية والسيرة وارباب النقد في هذا القرن .

هذا الكتاب الجامع هو احدث حلقة في سلسلة الكتب النقدية التي أكب الاستاذ على تأليفها بجهد لا يعرف الملل وضمنها اختبارات حياة خصبة وقفها على الدرس والتأليف الادبي . وسأذكر فيما يلي بعض ما يتميز به الكتاب ، معتمدة طريقة المؤلف المبنية على التنسيق والتبويب فأذكر من محاسنه :

اولا ـ وفرة المصادر التي اعتمد عليها المؤلف ، من أولية وثانوية ، من كتب ومجلات وصحف ، وجداول المراجع التي أثبتها لفائدة الطالب والباحث في كل من مواد الكتاب الرئيسية ، فهناك ثبت بمؤلفات الاديب واخر بالمؤلفات والمباحث النقدية التي وضعت في درسه .

ثانيا ـ وفرة الشواهد والاقتباسات التي اختارها المؤلف من انتاج الاديب ومن اقوال من كتبوا عنه ونلاحظ انه وفق في الاختيار .

ثالثا ـ بحثه مواضيع مهملة نسبيا في كتب النقد الحديثة ، نظير الخطابة والخطباء ، حيث يتوسع في درس المبرزين في هذا الفن وعرض نماذج من آثارهم . منهم مي زيادة التي نعرفها اديبة فقدمها لنا المؤلف خطيبة تجيد الخطابة فنا والقاء . ومنهم نقولا فياض الذي يكاد يسدل الستار على ما امتاز به من مواقف خطابية وجولات شعرية ونثرية .

رابعا ـ بذله الجهد في انصاف الاديب وتقدير محاسنه من غير اغفال لمساوئه وذلك واضح في نقده للمازني والرافعي والشدياق وسواهم .

خامسا ـ حسن تحليله للجو الذي نشأ فيه الادب الحديث وتلك ميزة عامة في كتبه من « امراء الشعر العربي في العصر العباسي » الى « الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث » الى « الدول العربية وآدابها » وغيرها .

وقد يؤخذ عليه :

اولا ـ اهماله الترتيب التاريخي في حديثه عن الرواية الاجتماعية حيث يضع نجيب محفوظ قبل توفيق الحكيم وبعدهما صروف وسواه من المتقدمين . لكنه يستدرك بقوله ان الترتيب يستند الى اصناف الروايات دون تاريخها .

ثانيا ـ اهماله تحقيق بعض ما يورده من اخبار او سير ، مثلا في عرض سيرة جبران لنعيمه كان في وسعه ان يشير الى الانتقادات التي وجهت الى هذه السيرة التي تعد رغم هذا من افضل نماذج السيرة الحديثة .

ثالثا ـ نلاحظ ان المؤلف كان اكثر توسعا في بعض الموضوعات منه في غيرها ، فقد سبق له وضع كتاب في دراسة النقد الادبي عند العرب . ولهذا يختصر موضوع النقد في كتابه الجديد . ومع ان الكتاب غير مركز على موضوع واحد نراه قد توسع في مواضيعه المختلفة بالمقدار الذي سمحت به حدود الكتاب . فبحثه لكل من الادباء يتراوح بين عشرين وخمسين صفحة من القطع الكبير وهي نسبة جيدة في كتاب من هذا النوع . وليس ما أشرنا اليه من مآخذ سوى هنات يسيرة في دراسة موسوعية تقع في ٦٦٠ صفحة مزودة بفهارس اعلام وكتب وصحف ومطابع ومعاهد علمية ، مما يجعل هذا الكتاب مرجعا لا يستغني عنه الطالب والباحث والاديب .

روز غريب



التيارات المعاصرة في النقد الادبي

تأليف : الدكتور بدوي طبانة

نشر : مكتبة الانجلو المصرية

* * *

هذا الكتاب تسجيل واف لاراء النقاد واتجاهاتهم في القرن العشرين . فقد جمع بين دفتيه معظم القضايا النقدية التي اثيرت فيه، وقد اطلق المؤلف على كتابه اسم « التيارات المعاصرة في النقد الادبي » لانها كما يقول : « انسب الاسماء واكثر الالقاب ملاءمة لتصوير حياة النقد في هذه الفترة التي لا ترى فيها رأيا واحدا او اتجاها مطردا أو منهجا سائدا يؤثره النقاد ويسيرون على هداه » . وقد جاء الكتاب انعكاسا لما ذكره المؤلف في المقدمة ، ففي كل قضية من القضايا التي يثيرها تتضارب الاراء وتتصارع ، وتتشابك وتفترق ـ وهذا ما يعنيه المؤلف بالتيارات ـ بحيث لا تخرج من هذه الاراء المتنافرة المتباينة بوجهة نظر منسجمة متحدة الخصائص وقد وقف الاستاذ المؤلف من هذه الاراء موقفا محايدا في اغلب الاحيان ، فهو يعرض ما قاله النقاد ، ثم يتوقف ، والحقيقة ان دارس الكتاب يعلم منه ما قاله النقاد ولكنه يخرج في اغلب المسائل وهو في حاجة حقيقية الى رأي المؤلف نفسه في الموضوع ، فمثلا حين تحدث المؤلف عن « الادب المكشوف » اورد رأي « نديم نعيمة » وذكر نقده لنزار قباني في ديوانه « قصائد من نزار قباني » ثم رأي قدامة بن جعفر وابراهيم المصري والعقاد والمازني وتوفيق دياب وسلامة موسى وغيرهم ، بل أورد لنفسه رأيا بين الاراء حين نقد « معروف الرصافي » في غزله المكشوف (ص ١٥٦ وما بعدها) وكل هذه الاراء تختلف بين مؤيد ومعارض ، بحيث يخرج الانسان من قراءة الموضوع بمجموعة هائلة من الافكار المتباينة ، ولكنه

لا يخرج بوجهة نظر موحدة . وموقف المؤلف في ذلك هو موقف العارض الامين لاراء النقاد كما يقول في المقدمة : « وجميع الكلمات والاراء التي يجدها القارىء مبثوثة في تضاعيف هذا الكتاب تعرض عرضا أمينا صفحة النقد الادبي في هذا العصر وتصوره تصويرا محايدا » .

وقد جاء الكتاب في تمهيد وستة فصول :

ففي التمهيد تحدث حديثا عاما عن الادب الحديث وفنونه وعوامل نهضته والحقول الادبية المختلفة التي تناوله بالدراسة .

وفي الفصل الاول تحدث عن معوقات النقد الادبي ، فأثار عدة قضايا على جانب كبير من الخطورة يجمعها كلها كلمتان هما « التناقض والتعصب » ، التناقض في القيم العامة وفي اعمال الادباء واتجاههم في كل فنون الادب وكل يدافع عن اتجاهه ، والتناقض في ثقافة النقاد بين عربي خالص وأجنبي خالص وبين بين ثم التعصب في اعمال النقاد الذين تختلف مقاييسهم حسب الهوى والغرض ، وحسب شخص المنقود لا شخصيته في العمل الادبي .

وربما كان ما أورده المؤلف في هذا الفصل من فصول الكتاب هو أهم ما فيه حيث نضع أيدينا على عوامل التخلف التي تبذر في حياتنا الادبية الفوضى والاضطراب .

وفي الفصل الثاني تحدث عن « اتجاهات النقد المعاصر » وانه يتجه الى هدفين هما : بعث القديم ، وعبء التجديد ، وقد شرح مظاهر ذلك في النقد الادبي طوال هذا الفصل .

وفي الفصل الثالث تحدث عن موقف النقد من الاغراض الادبية ، ومن أهم ما اثاره في هذا الفصل : موقف النقد الحديث من الاغراض القديمة ، والادب والمعرفة ، والادب والمجتمع ، والادب المكشوف ، والادب والقومية العربية .

وفي الفصل الرابع تحدث عن « لغة الادب » ومن أهم ما أثاره فيه مشكلة الفصحى والعامة والادب الشعبي .

اما الفصل الخامس فكان عن « الصورة الادبية » وهو يقصد بالصورة الادبية الشكل الادبي بصورة عامة ، ومن أهم القضايا التي اثيرت في هذا الفصل قضية الشعر الجديد ، وربما كانت هي القضية الكبرى التي نالت نصيب الاسد في هذا الفصل .

وفي الفصل السادس والاخير عن « المعاني الادبية » تحدث عن : الصدق الفني والسرقات الادبية واللامعقول والوحدة العضوية في الشعر ، ذلك عرض عام لما في الكتاب ، ومنه نتبين ــ كما قلت في بداية هذا الكلام ــ انه جمع بين دفتيه معظم القضايا الهامة التي اثيرت عن الادب في القرن العشرين .

***

والمادة العلمية الموجودة في كتاب « التيارات المعاصرة » تقوم على الرصد ، وايراد آراء الاخرين ، فقد بذل الاستاذ الناقد جهدا كبيرا في رصد الحركات الادبية بعد ان بذل جهدا اكبر في قراءة ما كتب عنها في مصادرها ، وخرج من ذلك بهذا الكتاب ، فهو سجل حافل لآراء الدارسين والادباء ، وهو دليل حي على مجهود المؤلف في تتبع هذه الاراء والافكار ، ونقل النصوص منها طويلة احيانا وقصيرة احيانا اخرى ، ويعتمد على وصف الحركة الفكرية النقدية وصفا خارجيا لا يتدخل فيه المؤلف ــ في غالب الاحيان ــ بالموازنة او النقد او ايراد الاستشهاد حسب مقتضيات الاحوال ، بل في أغلب الاحوال .

ويقول المؤلف في تبرير ذلك في المقدمة : « ان احدا من النقاد لن يستطيع ان يماري في شيء مما في هذه الدراسة ... ولن يستطيع ان يذهب الى انه كان للهوى شيء من السلطان على هذا التأليف الذي استمد مادته من النصوص النقدية ذاتها ، واعتمد على كاتبيها انفسهم ، وأثبت ما كتبوا بأقلامهم » .

وللاستاذ المؤلف رأيه الذي نجله ونحترمه ، وقد سلك في تأليف الكتاب حسبما رأى وارتضى ، وهو منهجه الذي رأى ان يتبعه ليمنع به مماراة النقاد ، وكذلك ليبرىء نفسه من مظنة الهوى والغرض .

ولكن الذي أعلمه ان التأليف العلمي يجب ان يسيطر على المادة المنقولة وان تسري فيه روح المؤلف ، وان تخضع الاقتباسات لفكرة المؤلف ، لا أن يخضع لها هو ، وان تتخلل المادة روح ابداعية خلاقة تضيئها ، وتعطي لها قيمة جديدة قد تختلف تماما عن الاصل الذي اقتبست منه ، وتلك ــ في رأي كثير من الدارسين ــ مشكلة الابحاث العلمية وتأليفها ، وهي مشكلة تتردد صفاتها بين التصنيف او التأليف والنقل او الابداع والكم او الكيفية ، والجمع او حسن العرض .

والكتاب ــ كما تقدم ــ مشحون بقضايا النقد التي نوقشت وتحتاج لمزيد من النقاش ولكني سأعرض فقط لواحدة منها ، لابين ما ذكره المؤلف وما أراه فيها وهي :

موقفه من الثقافات الاجنبية ، وقد تعرض لها في مواضع في الكتاب اذكر منها موضعين ، الاول حين تحدث عن تباين ثقافات النقاد واثرها في تعويق النقد (ص ٣٢ وما بعدها) وقد عرض في هذا المكان ثلاثة انواع من الثقافة : عربي خالص ، وأجنبي خالص ، ومن أخذ من كليهما بنصيب .

ولقد تمنيت ان اخرج برأي في ذلك ، وان يبين الاستاذ المؤلف رأيه في ثقافة الناقد الادبي بين هذه الثلاثة . ولكنه عرضها فقط ، والثاني في الخاتمة حين تحدث عن المصطلحات الاجنبية واقحامها في احاديث النقاد (ص ٤١٧ وما بعدها) ويبدو من حديثه الرفض لهذه الطريقة في استخدام المصطلحات الاجنبية ، يقول : « الامر هنا لا يعدو ترديد اسماء ومصطلحات ، وهذا الترديد في ذاته لا ينفع ولا يضر في كثير ، وان كان يدل على منقصتين ، تتصل احداهما بالفهم والتقدير ، وتتصل الاخرى بالخلق والطبع » .

والذي أراه ــ وربما كان هذا قصد المؤلف وان لم يصرح به ــ عدم التغالي في تقدير ما عند الاجانب ، والخضوع لهم الى حد الذلة ، فهذا أمر مذموم ، كما ان الوقوف عند الثقافة العربية وحدها امر مذموم كذلك ، بل يجب ان نفتح كل النوافذ عربية وأجنبية ، وان نتمثل الثقافات الاجنبية ، كما نهضم ثقافتنا العربية ، لنخرج من ذلك رحيقا جديدا نفرزه من كل هذه العصارات ، ولأضرب مثلا من كتاب « التيارات المعاصرة » نفسه :



طفلة القمر

لا تندبوا الخدود كالنساء
أو ترفعوا الاكف للسماء
لا تسألوا ما بالنا قد جفت الضروع
تنام أمهاتنا على وسائد الدموع
والريح خنجر يغتال في حقولنا الربيع
فأنتم اسلمتم الى العدو طفلة القمر
اسلمتم عدوة الجدران للجدران
ينام كل واحد بظله ويمضغ الدخان
وتهمسون :
سيحدث الذي من أقدم الزمان كان
ولا جديد يستطيعه الانسان
وانما السلطان من لا يعرف السلطان
وكل شيء ها هنا يتم في أوان
فالصبر يفتح الابواب
نسيتم ! والصبر نفسه يغلق الابواب

أما رأيتم العذراء طفلة القمر
رأيتها تجرها سنابك الخيول في حظيرة الملك
ومشعرها مذبة في كف زوجة السلطان
غسلتم اليدين في دمائها
صليتمُ من أجل ان تموت
لانها تكلف الكثير
ومهرها هو الدماء
وصرخة الاباء
ووقفة الخيول للخيول
فلترقدوا ولتمضغوا الدخان
ولتخرس اللسان
ان جفت جفت الضروع
أو مات في حقولكم ربيع
لان خلف هذه الجدران
تموت طفلة القمر

القاهرة — **محمد ابراهيم ابوسنة**

في (ص : ٣٥٠) تحدث المؤلف عن « سرقات المعاصرين » وقد تحدث عن سرقات المازني الشعرية التي أوردها « عبد الرحمن شكري » في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه ، وفيها يقول : « وقد لفتني اديب الى قصيدة المازني التي عنوانها « الشاعر المحتضر » واتضح لنا انها مأخوذة من قصيدة « اوديني » للشاعر « شلي » الانكليزي ، كما لفتني اديب اخر الى قصيدته التي عنوانها « قبر الشعر » وهي منقولة عن « هيني » الشاعر الالماني ، ولفتني اخر الى قصيدة المازني « فتى في سياق الموت » وهي للشاعر « هود » الانكليزي ، ولفتني ايضا اديب الى قصيدة المازني التي عنوانها « الوردة الرسول » وهي للشاعر «ولز» الانكليزي » . وأعتقد ان الدكتور المؤلف يوافقني على ضرورة الثقافة الاجنبية ، ودورها الهام في كشف هذه السرقات ، وليتصور الاستاذ المؤلف كيف كان وقع ذلك في النفوس لو أورد في كتابه فقرة من هذه القصائد في أصلها الاجنبي ، ومقابلها العربي ، لو فعل ذلك لكان له أحسن الوقع في القلوب والعقول كما فعل بعد ذلك فيما أورده عن العقاد عن قصيدة « شوقي » (ص ٣٦٣ وما بعدها) فالثقافة الاجنبية ضرورة في النقد الادبي ، كما هي ضرورة في كل مجالاتنا العلمية والادبية .

وبعد : فكتاب « التيارات المعاصرة في النقد الادبي » جهد مشكور لاستاذ جامعي متخصص ، وفيه كثير من قضايا النقد التي تحتاج الى دراسات موضوعية نظيفة تبين أصالتها أو زيفها ، ومجال هذه الدراسة ليس الصحف اليومية التي أخذ الاستاذ « رجاء النقاش » منها حيزا صغيرا وصف فيه الكتاب « بالرداءة » كما فعل زميله الاستاذ « سلامة العباسي » حيث استغل الصفحة الادبية في « الجمهورية » للسخرية من الكتاب ومؤلفه . فان تلك الطريقة الصحفية الفجة لا تفيدنا ولا تفيد المؤلف ، ولا تفيد النقد .

القاهرة — **محمد عيد**

قصة القرحة

تأليف الدكتور منذر الدقاق

المطبعة الهاشمية في دمشق

***

قرأنا في هذا العام كتابا طبيا انيقا صدر في دمشق يبحث موضوع القرحة الهضمية منالوجهة الطبية والاجتماعية ، وهو اول كتاب طبي يصدر في هذا الموضوع باللغة العربية كما انه اول كتاب طبي علمي يؤلفه طبيب عربي ويعرض فيه نتائج دراساته وخبرته ومعلوماته التي استقاها من وطنه العربي ... وحتى الان يغلب ان نقرأ في الكتب الطبية افكارا عديدة مستقاة من الخبرة الغربية للمواضيع الطبية ... وكتاب قصة القرحة ... قدم الخبرة العربية الوافية لهذا الموضوع الطبي الهضمي الهام .

واذا ما عدنا الى ما كتب عن موضوع القرحة في اللغات الاجنبية الاخرى ، وجدنا ان ما كتبه المؤلف باللغة العربية هو اوسع ما كتب في هذا الموضوع حتى الان وهو الذي يجعل ضرورة طبعه بلغة انكليزية او فرنسية ضرورة علمية لان المعلومات التي يقدمها صاحب الكتاب من خلال خبرته في معالجة القرحة جديرة ان تعرض الى العالم الطبي بلغة علمية تشمل العديد من الاقطار في العالم ... ولقد اوضح المؤلف انه سيعمل على تحقيق طبعة من الكتاب بلغة اجنبية في وقت قريب كي يستطيع ان ينقل الى الاوساط الطبية هذه الافكار الطبية العربية الجديدة . واذا ما تم تحقيق هذا ، فاننا نصادف لاول مرة في ايامنا الحديثة انتقال المعلومات الطبية وترجمتها من اللغة العربية الى لغة اجنبية بعد ان اعتدنا حتى الان ان ننقل الطب من اللغات الغربية الى لغتنا العربية .

ولعل من أهم خصائص كتاب « قصة القرحة » انه من الكتب

الطبية القليلة التي وقفت الى حد بعيد بين المعلومات الضرورية للطبيب والمعلومات المفيدة للمريض والمعلومات اللازمة للخائف من القرحة ... ولذا كان الكتاب موجها الى الطبيب والمريض والخائف من القرحة ... وهذا يدل على مدى ما توصل اليه المؤلف في تبسيط المعلومات الطبية الحديثة الخاصة بالقرحة الهضمية .

وفي مطالعة ابواب الكتاب وهي خمسة ، نقرأ عشرين فصلا طبيا عن القرحة تتعلق اولا بالصفات والخصائص وتبحث ثانيا الاعراض والوراثة وتتعمق ثالثا في الاسباب المرضية وتدقق في دور المجتمع الرئيسي في تكون القرحة ... ثم تتعرض فصول الكتاب لاختلاطات القرحة من التهاب ونزيف وانسداد وانثقاب وتبحث باسهاب المعالجة الطبية والجراحية ومدى الحمية الضرورية ... ولعل أهم فصول الكتاب هو الباب الخامس منه حيث نقرأ شروط شفاء القرحة وأهم من ذلك حدود الوقاية من النكس اذا ما تم شفاؤها ...

وهكذا نرى ان الابحاث العديدة الواسعة التي تتردد عن القرحة تشمل في أهميتها وفائدتها الطبيب والمريض على السواء ... على خلاف ما هو معروف حتى الان من ان الكتب الطبية العامية هي كتب جافة يصعب الالمام بها لمن هو غير طبيب او كان بعيدا عن الاسرة الطبية ... وكتاب قصة القرحة في صوره الملونة العديدة وفي جداوله واحصاءاته وفي مخططاته وتوضيحاته قد حمل السهولة الى كل قارىء كي يتفهم الموضوع في أدق نقاطه .

ومما يلفت النظر ان مؤلف الكتاب قد عرض في فصول الكتاب الكثير من التقارير الطبية العلمية والدراسات الدقيقة التي قدمها في كثير من المؤتمرات الطبية في الشرق الاوسط واوروبا واميركا وهذه الابحاث المختلفة تساعد الطبيب على تفهم واقع القرحة في الشرق ...

كما ان العرض الوافي للمشكلة الاجتماعية للقرحة وسرد الكثير من القصص الاجتماعية قد جعل القارىء يجد متعة خاصة في قراءة الكثير من الحوادث الاجتماعية الحزينة التي سببت القرحة ... وهي حوادث واقعية أخذها المؤلف من صميم مجتمع مرضاه .

اما بحث أهمية الناحية العصبية والنفسية لهذا المرض الهضمي الشائع فيرمي الى التأكيد بان حدود شفاء القرحة واضح ومعروف ، وان اقرار المريض بواقعه الاجتماعي يحمل الكثير من العناية ، وان امكانية المصاب تغيير البعض من طبائعه يبعد عنه النكس ويخفف عنه أزمات العلة .

بقي علينا ان نعرف ان مؤلف الكتاب هو الدكتور منذر الدقاق رئيس شعبة الامراض الداخلية في مستشفى دمشق ... وهو عضو في المجمع الاميركي لامراض جهاز الهضم وهو اعتبار علمي وتقدير طبي ينفرد به في شرقنا العربي ... وما هذه الخطوة العلمية التي يختص بها الدكتور دقاق مؤلف الكتاب سوى تأكيد للتقدير الذي قدمه الغربيون لاحد اطبائنا العرب .

دمشق — **الدكتور مأمون سخلول**

تذكار عودة

ملاح فوق عباب الامواج
يبحر في زورقه كل نهار
يودعه أحلام صغار
في عمر الورود
طلعته حلم بالغد
واللحظ شعاع
يقتحم العاصفة بصدر عار
الا من نبضات الحب
والنوء العاتي ألف ذراع
تجذبه .. تأسره
لكن لا يهوي
لا يهوي للقاع .

* * *

كل مساء يرجع مكسور القلب
يملأ جعبته قبض الريح
وأحاديث رجال جوف
ألف لسان معسول يدعو
يغري بالاصداف على القاع
لكن لا يهوي
أبدا فوق غمار الامواج
لا يسلو
رغم تهاوي رفقاء في الركب
بين شباك النوء العاصف
لم يلقفه القاع
لم يجرفه المد الزاحف
ومضى يضرب في الافاق
يرثي للعشاق
ويبث الاشواق .
هيمان على رؤيا العوده
رفت في موال أخضر :
كلمة حب تأسو جرحا
تملأ قلب العالم فرحا
ما أحلى تذكار العوده

* * *

العالم يرتقب القمر الصاعد
يهتك ظلمات الغيب
والموجة تنحسر عن الشطآن
ويعود الملاح
يحكي قصة عصفورين
ضلا في العاصفة الهوجاء
خاضا المحنة بجناحين
فوق الانواء جريحين
لكن ما افترقا
ما هويا للقاع
هاما في رؤيا العوده
رفت في موال أخضر :
كلمة حب تأسو جرحا
تملأ قلب العالم فرحا
ما أحلى تذكار العوده

القاهرة — حسن فتح الباب

سياط الغربة

مهداة الى الاخ الشاعر علي كنعان.

ما الذي يجمعنا ؟
نحن في قلب المدينه
أي نير ضم عنقينا ، لنقضي العمر نجتر العفونه
كيف ألقاك ، وتلقاني ، ونمضي
نغزل الشعر ، نغني من أغانينا الحزينه
نشهد الموال مصلوبا على ضلع عماره
ذلك الموال قطفناه للحور ، لريح السنديان
كيف نباوه أعاصير الدخان
وعناقيد المراره

***

ما الذي يجمعنا ؟ والدرب درب الافعوان
نتلوى نحن في أضلاعه خوف الزمان
نعصر الذكرى بأقداح الشقه
ومن الشرفة أنثى كمنت فيها الدعاره
سحقتنا .. يوم ألقت فوق رأسينا ببصقه
« يا لابناء الازقه »
والتفتنا !! نحن أبناء الازقه
ومضينا .. كلنا جرجر عاره
يا رفيقي
هذه الانثى تذوب اليوم في صدري حرقه
ومراره .

* * *

ما الذي يجمعنا ؟ قل يا رفيقي
أأتيت اليوم كي تجني رحيقي ؟
وزهور الاقحوان ؟
أنا طينت طريقي
من نزيف الاقحوان
كيف نمضي .. دودة تحضن أخرى في حنان ؟
كيف نصغي لنكات يستقيها خائبان ؟
ولماذا نخنق الضحكة ، لما جاءنا بعض الرفاق ؟
أفلا يضحك قلب في المدينه ؟
أم ترى ما يسرد الريفي لا يرضي مجونه ؟
ولماذا .. عندما يأتي الرفاق
نتسلى بأحاديث بنات الجامعه
واذا راحوا ، خدعنا بعضنا ، قلنا : «نفاق»
أترى لم تترنح
خلفهن الاعين الحمراء حمى جائعه

* * *

يا رفيقي
كيف لا تصحبنا تلك الحسان
كيف لا يعرضن دعوه
أترانا لم نرق في عين حلوه
أم تراه راعها منا قميص يتمزق
وحذاء يتشقق
عرفته .. عجزنا المنهوك عن فنجان قهوه
فتولت في أمان

كم تلفلفنا بأستار الدخان :
ــ تلك صعبه
« راكب الصعبه مفحم
فاذا أشنق أخرم
واذا أسلس في السفح تقحم »
رغم انا .. قد قضينا العمر نجري خلف آثار العنان
« يا زليخا لم أكن عندك قديسا ولكني جبان » (١)
أترى ذلك وهم لمنا ؟ أم ــ ؟
أنت تعلم .

* * *

ما الذي يجمعنا ؟
ما الذي جاء بنا ؟
نحن حرفان فلتنا من قصيده
نتوارى
نلعق الدرب حيارى
يرسل الشاعر في آثارنا
كل يوم ألف لعنه
واعاصيرا حقوده .
ومضينا .. كفراش شق سجنه
كل يوم ينقضي نقضم محنه
في متاهات جديده .

* * *

ونلوب
كيف نمضي ونلوب
وخطانا تزرع الارض ذنوب
أمنا أضحت عقيمه
فتولت في ثنيات الدروب
هذه الاوجه فيها تتمطى ألف صحراء لئيمه
كيف ضيعنا أغانينا القديمه
دائما في وجهنا تنبت أشواك السؤال
مثل طفل لفه الاعصار في قلب المدينه
تركته أمه عمدا وغابت كالخيال
تركته ، يملأ الدمع عيونه
حائرا والناس عمي لا يرونه
سلمت اعينهم عنه ،
وآذان بذار الوقر فيها والضغينه
مثلنا يا صاحبي يبحث عن تلك الزوايا
عله يقتات من ضرع البقايا
يائسا من ابويه
غامسا في حمأ كلتا يديه
فتقلص في ظلام القوقعه
هذه الصحراء لن ترحم خصما وسط ساحه
نذرها في أن يلاقي مصرعه
طائر يبغي سموا دون ان يلقى جناحه
أينادي ربه
صوته المخنوق في الارض انتهى لن يسمعه
وحبيس الدمع يدمي مقلتيه
هاك صدري
فابك ما شئت عليه
نحن لن نبلغ واحه .

جامعة دمشق
ممدوح عدوان

(١) هذا البيت للشاعر علي كنعان .

بشارا

قصة بقلم أنور قصيباتي

انتشرت صورة ((آية علي)) في ذهني حالما لامست بطاقة البريد المهورة بخاتم مدينة كرمنشاه . فمنذ عهد تطاول في نفسي لم اسمع شيئا عن آية علي . جمعتنا الزمالة لعام دراسي كامل . كان قد وفد الى جامعة مدينتنا في منحة دراسية للاطلاع على تاريخ الشرق القديم لحساب متحف طهران وكان من قبل قد قضى عامين في جامعة شيكاغو يدرس الاثار .

كان شابا في مقتبل العمر ، واضح الملامح ، نحيلا ، صافي البشرة والنفس كخط من خطوط قوس قزح . تعرفت عليه في رحلة قامت بها الكلية الى تدمر . وقد لفت نظري صمته الدائم ، وشروده المستمر الذي كان ينبع من عينيه الحالمتين ... لدرجة كنت اخال فيهما بأن بؤبؤيه يشتاقان الانخلاع عن محجريه والانتشار على عرض الافاق . كان ظاهريا ضمن شلتنا ، يركب في مقاعدنا المتقاربة ، ويصغي لاحاديثنا ، ويبسم لنكاتنا ، ويشاركنا الغناء اثناء الطريق ، ويمشي معنا ابان التجول . لكن .. لشد ما كان بعيدا عنا . قال اول تقارب بيننا عندما اخذت اتحدث امام لوحة نافرة ، نحتت من الرخام ، تمثل عائلة تدمرية بكامل اعضائها وهي تتعاطى الشراب ، وقلت : ان هؤلاء الاحياء اكثر من الوف الاشخاص يعيشون بيننا وهم يقفون على عتبة الموت .

ولم اكن على وجه التحديد جادا في قولي ، انما كان حديثي كله مجرد اثارة من تلك الاثارات الطلقة التي تحدثها عادة طبيعة الرحلات الجماعية . الا ان آية علي ، استوقفني عند هذه الجملة ، واخذ يستفهم عن مدى ايماني بها ، وعن الخبرات الخاصة التي اقمتها عليها ... وظللنا نتحدث ونحن نتمشى بين الاطلال ضمن الفريق .. الى ان انحصر الحديث فيما بيننا . وقبل ان ننضم ثانية الى الجماعة ، وقف فجأة ورنا ببصره نحو الافاق القابعة فوق رمال الصحراء وقال ببطء :

ــ اترى هذا المرج البعيد ؟

ــ اجل اني اراه ، انه مجرد زغب اخضر على وجه الصحراء .

ــ الا تعتقد بان مدينة من رخام تكمن وراء هذا المرج ؟.

دهشت لهذا السؤال المفاجيء واجبت :

ــ ربما هو السراب ، ما ترى ؟

ــ اعني ربما كانت هنالك مدينة من رخام مطمورة تحت الرمال .

ــ لست ادري !.

هتف بتصميم غريب وقد ازداد شرودا :

ــ اجل ان هنالك لمدينة من رخام تقوم وراء هذا المرج .

✻ ✻ ✻

كان من الطبيعي فيما بعد ، ان نستغل فرص العطلات للانسياح في المنطقة بأسرها ، حتى غدت مدن الماضي بالنسبة الينا ، وعلى الاخص بالنسبة اليه هو ، هي المدن المعاصرة لنا ، واستحالت مدن الحاضر الى اطلال تحرسها الاشباح وهياكل الموتى . وكان يبدو في كل منطقة نرتادها ، كشخص يفتش عن شيء قد اضاعه . كان يفتش بين اطلال بصري ، وفي كهوف البتراء ، وعلى رخام بعلبك ، ويلامس اللوحات البيزنطية الملونة ، ويحدق طويلا في الكتابة الكوفية المشجرة ، وكان يضيع تماما امام خرائب استراحات الصيد التي اقامها الخلفاء في البوادي . وكان يبدو باستمرار كئيبا شريدا ، ما خلا مرتين ، الاولى في متحف دمشق ، عندما هلل بشرا امام عقيقة ملتهبة تحوي في قلبها صورة فاتنة للاله ابولو ، والثانية امام مدخله ، عندما انفجر ضاحكا لمنظر تمثال الالهة اثينا المنحوت من الحجر الاسود ، وقد اخذ يعلق ساخرا على الرؤس الذي حل بالهة اليونان يوم تركوا منازلهم المعلقة فوق السحب ليقيموا بين تلال حوران البركانية .

✻ ✻ ✻

كان فراقنا عاديا كما كان لقاؤنا . وقد ذكر لي في رسائله الاولى بانه استلم وظيفة تافهة في متحف طهران ، ثم انقطعت اخباره عني . وكنت دوما اعرف بان طوفانا من الماضي السحيق يأتي عليه ويغرقه ، فيحجب عنه رؤية نفسه والاخرين . كانت الدعوة الحارة التي حملتها لي بطاقته لموافاته في طهران ضمن مدة محدودة ، مثار عشرات الاسئلة التي دارت في ذهني ، لقد اوضح لي بانه يرغب بشوق حاد ان احضر الاحتفال الذي سيقام بمناسبة اكتشاف مدينة ((بشارا)) . وكنت قبل شهور قد قرأت خبرا في احدى الجرائد المحلية عن اكتشاف مدينة فارسية تحمل الطابع اليوناني في صحراء كرمان . ولم يثر بي ذلك الخبر أي اهتمام يدفعني للاحقته في المجلات الاثرية التي كنت قد انقطعت عن مطالعتها منذ رحيل آية علي . اما عندما اتاني الخبر عن طريق آية علي نفسه ، فقد شبت في كياني رغبة عنيفة لرؤية بشارا ، والاهم من ذلك رؤية آية علي وهو يتأمل المدينة المكتشفة بنظرات تحيل الزمان في تصوره الى كرتين تكمنان ضمن محجريه ، كنت اريد ان ارى المكتشفات الجديدة من خلال ملامحه المتماوجة . وصممت على ان ابذل منتهى جهدي في سبيل الحصول على اجازة تتيح لي فرصة لقاء آية علي.

✻ ✻ ✻

بعد يومين من حصولي على الاجازة ، كنت في طهران ، وقد انتظرت يوما وليلة قبل ان القى آية علي في مكتبه بمتحف طهران .

كان اجتماعنا عاديا صلبا ، كلقائنا الاول ، وكفراقنا الماضي . قال واصداء خافتة كرنين الماضي تتخلف من صوته :

ــ ما كان يجب ان اتأخر في كرمنشاه .

فأجبته ضاحكا :

ــ لكنك تأخرت .

ــ اجل لقد تأخرت .. انها طبيعة العمل .

ثم غير جلسته ، وهتف ببشر :

ــ اني فرح بوجودك .

قلت مازحا :

ــ لماذا ؟!

ــ آه لماذا .... الا تدري ؟

ثم استطرد بحماس :

ــ لكي نرى بشارا معا .. اتذكر كم رأينا معا ؟

ــ اجل اذكر . الا انك لم تعثر على ما كنت تبحث .

فأكتأب فجأة وقال :

ــ اكنت ابحث عن شيء ؟

ــ هكذا كان يخيل الي .

قال بتردد وبصوت مضطرب :

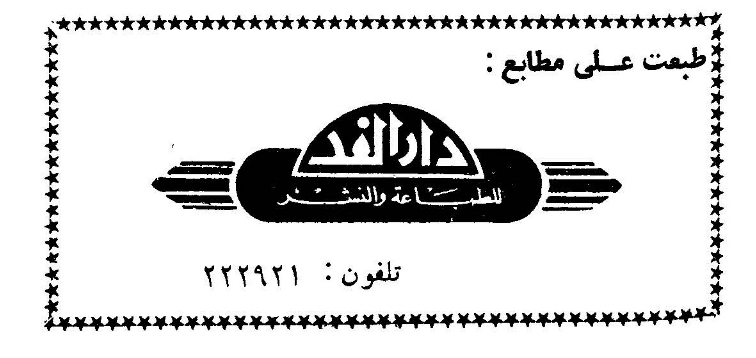
ــ ربما !! .. لست ادري ؟!

ــ والان هات حدثني عن بشارا .

قال وقد برقت عيناه :
ـ هل تصدق بانني انا الذي اكتشفت المدينة ، ومع ذلك فاني لم ارها بعد ؟
ـ هل تمزح ؟
ـ كلا .
ـ كيف اكتشفتها اذن ؟!
لقد أتت برقية من حاكم كرمان الى المتحف يقول فيها بأن الشركة التي تنقب عن البترول في صحراء كرمان قد وجدت اثناء حفرياتها هناك بعض أجزاء من قطع رخامية منحوتة . فأرسلني المتحف لكي أستطلع الامر . فوجدت بأن الشظايا الرخامية ، انما طمرت في ذلك المكان عن طريق الصدفة ، او بفعل الرياح العنيفة ، وان المكان في حد ذاته لا يحوي شيئا ولم يقم فيه قبل ذلك أي عمران . وأخذت أستغل فرصة وجودي هناك لاشبع ميلي العنيف الى استطلاع الصحارى . وذات مرة أوغلت بعيدا في سيارة الجيب ، مدفوعا برغبة مجهولة ، حتى التقيت بمرج واسع بدا كالثوب المتآكل ، لتغطية الرمال بعض أقسامه ، وانحسارها عن أقسامه الاخرى . وكان المرج واسعا جدا ، اندفعت في وسطه ، كان يختفي مرة ويظهر مرة . وكان علي ان اعود قبل آن أصر على اكتشاف نهايته ، مؤجلا ذلك الى فرصة اخرى . وتيقنت بأن قطع الرخام الصغيرة قد أتت من هذا المكان ، أو حملت منه ، لان مدينة بيضاء قد انتصبت في ذهني على حافة المرج . وقلت في نفسي : « لا بد ان تكون المدينة هناك » ولما قدمت تقريري ادعيت بأن قطع الرخام وجدت على مسافة قريبة من المرج ، وانه لا بد من وجود آثار مطمورة وراءه أو في وسطه . ونصحت بالقيام بحفريات هناك .
قلت مقاطعا :
ـ وهكذا أرسلت بعثة تنقيب الى هناك ، فعثرت على المدينة دون ان تكون أنت معها ؟!
ـ على الضبط .. هذا ما حدث .
ـ ولكن لماذا لم تكن ضمن أعضاء البعثة ؟
أجاب ساخرا :
ـ انك تعلم عقلية الرؤساء . فهم دوما يضعونك في المكان الذي لا ترغب فيه .
ـ ومتى ستتوجه الى بشارا ؟
ـ بعد غد في الصباح . اني لن أريك الصور التي التقطت لبقاياها . يجب أن تراها فجأة بكليتها . ان بعض مبانيها قد بقي سالما تقريبا .
ـ أوه .. انك شديد الحماس .
ـ بل اني غريق نشوة لا حد لطاقتها . ان وهجا منيرا صافي الالوان يسطع داخل جبهتي ، انها مدينة المرج الاخضر . ستستمع الى قصتها ابان الاحتفال .
ـ قصة اكتشافها ؟
ـ كلا بالطبع انما قصة بنائها .
ـ وكيف ذلك ؟
ـ لقد وجدت كتابات كثيرة على الجدران والاعمدة والتماثيل ، وعثر على رقع سليمة مليئة بالكتابات الفارسية واليونانية ، وكلها تتحدث باسهاب عن قصة قيام بشارا . وقد وضع أحد كبار موظفي المتحف موجزا لهذه القصة سوف يتلى يوم الاحتفال .
ـ هل أطلعت عليه ؟
ـ كلا بالطبع . انني دوما في مهام خارج طهران . لكنني دهش مما سمعت عنها ، ورأيت من صورها . انها مدينة اغريقية مئة بالمئة ، ومع ذلك فالروح الفارسية تشع منها . ألا تدهش لذلك ؟
أجبت :
ـ ليس كثيرا لانها قد بنيت حتما في العصر الهليني .
ـ ان هذا لا يمنع من كون وجودها أمرا خارقا للعادة .
ـ على كل سنعرف ذلك عندما نراها .
هتف بحماس :
ـ وبعد رؤيتها سنبقى اياما واياما نتحدث عنها مشافهة وبالرسائل . أليس كذلك ؟
ـ اجل . كما كانت عادتنا دوما .
فتبسم آية علي ، وذهب في شرود عميق .

***

استغرق الطريق الى كرمان يوما وليلة . وبعد استراحة يوم في المدينة بدأت سياراتنا تتوغل في الصحراء . كان فريقنا يضم مندوبين عن معظم المتاحف العالمية . وبعد مسير سبع ساعات متواصلة، بدأت تلوح لانظارنا انعكاسات الشمس وهي تتصاعد من أماكن متفرقة على سطح وسفح تلة غضارية . هتف آية علي :
ـ لقد كانت هذه التلة مجرد كثيب رملي يوم اهتديت الى هذا المكان .
قلت :
ـ يبدو ان المدينة بنيت على تلة تشرف على المرج .
فشرد نحو الوهج المنبعث من التلة كالنوافير ، وقال بأسى :
ـ كيف لم أذكر بأن المدينة تقوم على تلة ؟.. كيف لم أذكر ذلك ؟.. كيف ؟!
قلت له :
ـ على كل فان المدينة موجودة وراء المرج . أو هكذا تبدو اذا وقفت في نهايته ، تجاه التلة .
هز رأسه موافقا على كلامي ، بينما ظلت عيناه مشدودتين الى وهج الرخام البعيد .
بدت المدينة لي ، أشبه ببلدة أنيقة تضم مجموعة من المباني المتناثرة هنا وهناك ، كانت تفصلها عنبعضها فيما مضى تربة معشوشبة وحدائق خصبة . وعلى الضبط لم أستطع ان ادرك الغاية من تشييدها، فما كانت أبدا صالحة لاقامة الجمهور . ليس فيها أسواق ، ولا ساحات ولا شوارع أو بيوت تصطف عليها . كان البناء الرئيسي في الوسط وقد أقيم على عمد من الرخام تهدم معظمها ، وحوله حيث يظن انه كانت تقوم حديقة واسعة ، وجدت تماثيل كثيرة لفتيان مراهقين صيغوا على مثال الالهة الاغريقية ، الا ان الوجوه لم تكن تحمل الطابع اليوناني المعروف ، انما كانت تلوح عليها رفة شرقية واضحة . وعلى جوانب البناء الرئيسي ، الذي كان على الاكثر مقر الاقامة لسيد المدينة ، شيدت عدة ابنية منها أبنية دائرية ، ومنها أبنية ذات أبهاء واسعة ربما فرشت بالمرمر ، ولم يكن هنالك اثر لاي معبد ديني . ومجموعة الابنية تطل على مرج واسع أزيحت الرمال عن قسم كبير منه، وظهر انه كان مطمورا تحت مرج متقطع صنعته بعض رشوحات المياه ، وقد اعيد للمرج الجديد بعض نضارته السالفة عندما اجريت عليه العيون التي تفجرت بعد ازاحة أطنان الرمال من على سطح وسفوح التلة . وفي وسط المرج بدت آثار لبركة سباحة واسعة على حوافيها انتصبت قواعد لتماثيل لم يبق منها سوى بعض الاجزاء المحطمة .
قلت لآية علي :
ـ لقد شيدت هذه المدينة بدون غرض .



أجابني وبؤبؤاه يتكسران على رخامهما :

ـ ليس للجمال غرض معين ، ولا غاية للفن ابدا . هذا الرخام ، وهذا الامتداد المخملي الاخضر ، وهذه التماثيل المشرقة ، انها كلها مجرد تجسيد لعاطفة ما ، مرت ذات يوم في لحظة اشراق على هذه الارض .

لم أجد في ذهني شيئا أستطيع به أن أرد على جموح اية علي ، فبقيت سائرا بجانبه الى حيث أعد الموضع الذي سنجلس عليه لنستمع الى قصة خلق بشارا .

اخذ عشرات من المدعوين يصغون باهتمام الى مدير البعثة التي أشرفت على الحفريات . اما انا فقد اخذت نظراتي تتزحلق على جروف التلة ، وتتدحرج على المرج النضير محاولة الامتداد الى ما وراء الصحراء . لقد اخذت افكر بغرابة شخصية اية علي ، وسر انجذابه الى الماضي السحيق ، واهتمامه الشديد بالاطلال . وما حيرني منه سوى تلك الصورة الملتصقة بمخيلته . صورة المرج الاخضر والمدينة الرخامية التي ترتفع خلفه ، وتذكرت يوم لقائنا الاول منذ سنوات في تدمر ، كيف سطعت في مخيلته صورة المدينة البيضاء حالما لمح مرجا من الحشيش يقوم على حافة الصحراء . وتنبهت من شرودي على صوت تصفيق وقور . ثم رأيت المحاضر يجلس ليتقدم غيره ويقول :

ـ « لعل هذه المدينة ايها السادة المحترمون ، هي اول مدينة في تاريخ المكتشفات الاثرية ، تعطي قصة بنائها لمكتشفيها بدون عناء . وانها لقصة كاملة مدهشة سوف يقوم متحفنا عن قريب بنشرها في كتاب خاص . اما الان فاسمحوا لي ايها السادة المحترمين ان أتكلم بخلاصة يسيرة لاحداث هذه القصة ، علها تنسيكم بعض ما تجشمتموه من عناء في تقبلكم دعوتنا » . ثم نظر في الاوراق التي كانت بين يديه واخذ يقرأ : « كان حاكم جنوبي فارس اميرا واسع النفوذ والثقافة ، وكان يتبع اسما الملك السلوقي ، الا انه كان مستقلا في شؤونه الداخلية ، وقد أقام في عاصمته بلاطا مترفا ضاهى بلاط السلوقيين . واستقدم الصناع والفنانين والفلاسفة من المدن الهلينية في سورية ومن اليونان نفسها . وكان له ابن وحيد يدعى « زارا » عهد به ابوه الى مؤدبين من فارس ويونان ، فعلموه حكمة الهند وتعاليم الفرس ، وأثروا عقله بأفكارالفلاسفة الاوائل ، ووسعوا مداركه بالعقول الناضجة للثلاثة الكبار ، وأخصبوا خياله بأساطير الالهة وأصواتها على قمة جبلهم المقدس . وكان زارا بطبيعته ، فتى رقيق الحاشية مرهف الحس ، بعيد الخيال ، كان وجهه الفارسي بالغ النبل والصفاء ، وعيناه كبيرتان حالمتان . كان يهوى التحديق بالنجوم ، وينتظر ساهرا مطالع الفجر ، وكان كثيرا ما يخشع امام عري الرخام . كانت عواطفه المتأججة الضائعة ، بمستوى ثقافته الناضجة .

« وذات يوم كان الامير زارا يجلس بجانب والده في قاعة العرش يشارك في استقبال الحكام الوطنيين الذين وفدوا البلاط لتأييده في محاولة استقلاله عن السلوقيين .. عندما أعلن عن دخول وفد مدينة « قندهار » فلفت نظره وجود فتى في مثل سنه مع الوفد ، قدم الى حاكم كرمان على انه الامير « بشار » ابن حاكم قندهار . وأخذ زارا يتأمل ، بيقظة حسه المراهق ، وجه بشار . لقد كان وجها طفوليا غامضا ، تكتنفه أسرار الحلم ، وينبعث منه ضباب الرؤى . وجها نضرا جميلا ، ملامحه صريحة واضحة كالكبرياء العفوية . وكان وهو ملتف بعباءته الفارسية يبدو كزوبعة من نور اخضر . ولاول مرة يشعر زارا بالغثيان لمنظر قاعة العرش . اخذ ينقل انظاره من الستائر ذات الزخارف الجامدة المنحدرة من عهد الامبراطورية الاولى ، الى الارائك الهندية الموحشة .. الى الشبابيك السورية المشوشة .. الى التماثيل اليونانية المتنافرة مع بلاط القاعة المقبضة للنفس . وتصور أسواق كرمان المكتظة بالباعة والاقذار ، وساحاتها المليئة بنوق القوافل ، ومرت

في مخيلته صورة مبانيها العتيقة التي ليست بالفارسية ولا بالاشورية ولا باليونانية .. حتى انها لم تكن ولو خليطا من كل ذلك . وقال في نفسه « ليس لهذه الاشكال أي معنى خاص بها .. ليس لها أي طابع معين » كانت كلها في بصره وفي بصيرته تبدو بالية هرمة متآكلة على وشك الانهيار والانقراض . وعاد يتأمل الوجه النقي كقطرة الندى . فأحس هذه المرة بلهيب الحياة يسري في عروقه ويثقب أحشاءه ، وشعر كأنه مقبل على مصير جديد يهز نفسه وكرمان معا .. بل يهز فارس بأسرها . وسمع صوتا في داخله يزلزل أعماقه « ان بشار هو الروح الجديدة لفارس » . وازداد تحديقا ببشار وبعينيه الخضراوين.. الا ان ملامح الوجه بدأت تختفي شيئا فشيئا أمام ناظريه ، وتحل محلها صور واضحة لازهار الجلنار الملتهبة ، ولاسياخ الزئبق الابيض . وللاعمدة الرخامية الناصعة ، والمباني البيضاء النظيفة ، والدروب المرصوفة بالمرمر . وبدأ مرج اخضر يمتد في بصيرته ويسحب خياله وراءه الى اللانهاية ، فيرتد عنه الى رؤى جديدة لتماثيل متناثرة فوق المرج وهي تحمل ملامح بشار . ولم ينتبه من شروده ، ويؤوب من متن رؤاه ، الا عندما انسحب وفد قندهار من القاعة ، وغاب عنه وجه بشار ، فأحس وكأن قرص الشمس قد سقط من وسط النهار ، وغاب في قرار سحيق . فقام واقفا وانسحب بهدوء الى جناحه وهو يشعر بأنه استحال الى مجرد دوامات ملتهبة من الاحاسيس . ومن هناك استدعى فورا مربيه « مليتس » الفيلسوف اليوناني . ولما مثل بين يديه ، قص عليه كل شيء ، وتوسع في وصف رؤاه ، وأخبره بأن قوة عجيبة في نفسه نمت فجأة ، وهي قادرة على خلق العالم من جديد . وأدرك الفيلسوف بحدسه المرهف بأن شيئا ما سوف يولد على هذه الارض ، فهتف بتلميذه قائلا : « لم لا تجسد رؤاك واقعا » . وفهم زارا قصد مربيه وقال : أجل . يجب ان أبني مدينة جديدة بعيدة عن كرمان وقراها ودساكرها . مدينة لا يدخلها الغبار المتسخ أبدا ، تحمل كل أناقة بشار ، مدينة لن يدخلها سوانا أنا وبشار وحاشيتنا . ليس هنالك في كرمان أو في قندهار أو في انطاكية نفسها مكان يصلح لكي يمشي عليه بشار . عندما سأنشر مخيلتي على الواقع ، وأجسد رؤاي على الارض ، أكون قد خلقت ما هو بمستوى بشار ... وقسما اني لن أراه ثانية الا في المدينة الجديدة حيث يجب ان يكون .

« وبدأ زارا يرسل الفرسان الى أرجاء البلاد ، والى أراضي المقاطعات التي تدين بالولاء الى كرمان ، طالبا منهم البحث عن مرج اخضر يكون في برية منعزلة ، او في سفح جبل بعيد ، أو في قلب الصحراء . وأخذ يتسقط أخبار القوافل ، ويسأل عن ممراتها ومسالكها ومشاهداتها . وأرسل وراء المهندسين والبنائين والمثالين ، فتقاطروا عليه من أثينا والاسكندرية وانطاكية . واستطاعت مجموعة من الفرسان ، كان رئيسها قد افتتن بأميره الشاب ، أن تتوغل في صحراء كرمان ، وتهتدي الى مرج خصب نقي الاخضرار ، تغذيه عدة ينابيع تنحدر اليه من سفح تلة تقوم على جانبه .

« وأعجب زارا بالمرج ، حيث سطعت في بصيرته فور رؤيته له ، صورة ملونة لبركة سباحة تفور في وسط المرج وتبلط بالمرمر . وتقام التماثيل على جوانبها . وأخذت كتل الرخام الضخمة تفد الى كرمان من كافة المقالع . ومن هناك تنقل الى موضع المدينة الجديدة . وكان زارا يشرف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة ، حتى خيل لجميع البنائين والمثالين بأنه برغب في ارسال حيويته المتفجرة الى أعماق الرخام . لقد كان هو الذي خطط المدينة ، وهو الذي وزع الابنية ، وهو الذي رسم شكل الاعمدة . ومن وصفه استطاع المثالون ان ينحتوا عشرات التماثيل للامير بشار . لقد كان يقتنص من وقته ساعة الغروب فيتمدد على المرج ويغمض عينيه ، ويترك لصور أحلامه وذكرياته ان تصنع له رؤى المرج النضير المثقل بذهب الاصيل ونور الابداع . ومع مضي الايام أخذ زارا يتناسى بشار شيئا فشيئا ، وأخذ اهتمامه يزداد بالرخام والنقوش والتماثيل وتسوية المرج وبكل عمود يرفع من جديد وبكل حجر يكمل نحته . ومضت عدة سنوات من العمل المستمر قبل ان ينتهي بناء المدينة الجديدة . وفي يوم العمل الاخير ، وقد اكتملت المدينة كما كانت في تصوره ، وقف زارا على شرفة الدار الرئيسية المقامة في أعلى التل ، وهو يرقب مدينته الطازجة وبجانبه مربيه « مليتس » وبعض أفراد حاشيته ينظر تارة الى مبنى المسرح وطورا الى ملعب الرياضة ، ثم الى مساكن الحاشية ، وأخذ يتأمل بزهو جمال بناء المكتبة وما جلب اليها من كنوز فكرية . وشعر بانشراح لمنظر الاعمدة المصطفة وراء بعضها في الفراغ . وكأنها على وشك الطيران. ثم أرسل نظره بعيدا الى بركة السباحة الواسعة في قلب المرج ، والى التماثيل الناضرة العري القائمة حولها . وكانت شمس الخريف الواهنة تلامس الرخام بأشعتها الارجوانية ، فتضفي على المباني والاعمدة والمرج سحرا أخاذا ، ارتد في رؤى زارا لهيبا أحرق حجاب مخيلته ، حيث بدأت معالم المدينة تختفي من أمام ناظريه شيئا فشيئا .. وتحل محلها الملامح الانيقة الناضرة للامير بشار ، وهنا نفض زارا رأسه كمن أصيب بصداع مفاجيء ، والتفت الى مربيه قائلا وكأنه يخاطب نفسه :

– اين بشار ؟! لقد نسيت ان ارسل وراءه .

ثم هتف عاليا :

– الي برئيس الحرس .

ولما مثل بين يديه قال له :

– هيىء نفسك للسفر الى قندهار لتأتي بالامير بشار .

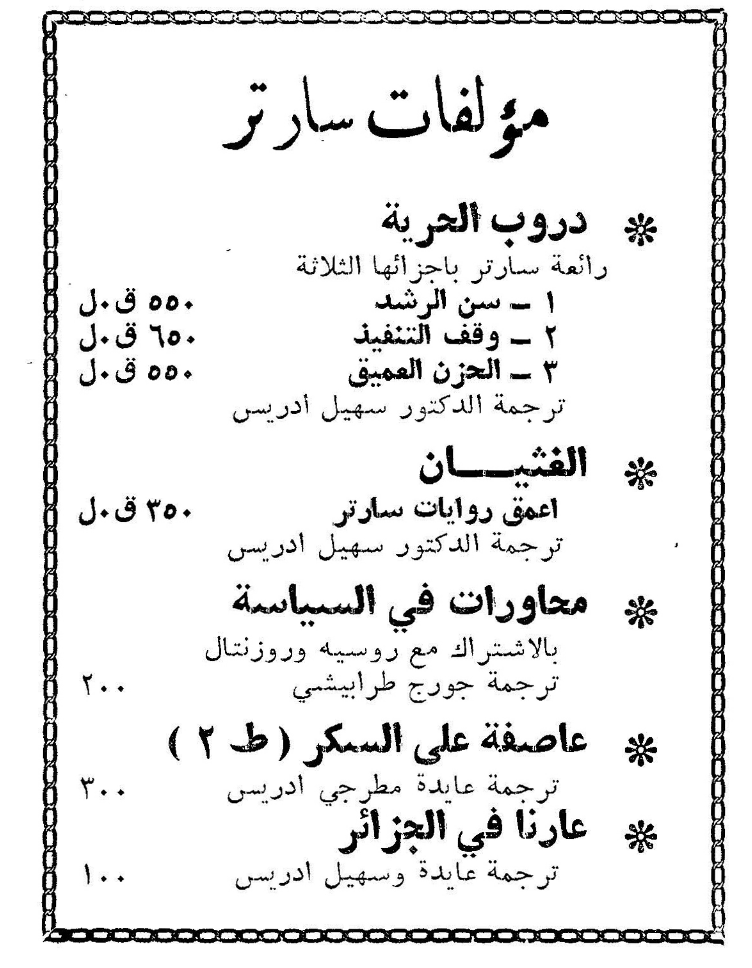
فتجمد رئيس الحرس في مكانه ولم يحر جوابا .

فصاح به زارا :

– ما بك ؟ انطلق !

فأجابه بتلعثم بعد ان شجعته نظرات « مليتس » المطمئنة :

– يا مولاي . ان الامير بشار قد مضى منذ سنتين .



فصاح بالم :

ـ هل مات ؟!

اجابه رئيس الحرس بارتماش :

ـ أجل يا مولاي لقد مات . انه قلبه .

فصاح بعصبية وقد لطم وجهه :

ـ كيف يموت ؟.. كيف ؟

فاجابه مؤدبه الفارسي بصوت هادىء عميق :

ـ كما تموت الشهب والعبقريات والازهار والحضارات ، وكما يموت البرق وكل شيء خارق للعادة ... ما يكاد يتوهج حتى يتلاشى .

وهنا استرد زارا بعض وعيه ، ونظر باستعطاف الى وجه مليتس وقال بصوت كأنه البكاء :

ـ هل حقيقة يا مليتس ان بشارا قد مات ؟

فاجابه مربيه اليوناني بألفاظ لها رنين النشوة :

ـ كلا يا مولاي . انه لم يمت . انظر أمامك .

ثم صمت قليلا وأشار بيده الى المدينة وقد ألهبت شمس الغروب رخامها ومرجها ، وتابع قائلا :

ـ هذا هو الامير بشار . »

ران على الجميع صمت عميق ، وكان شعور بالرهبة يجتاحنا جميعا ، ساعدت أشعة الغروب اللامسة لبقايا المباني والمرج على تعميقه في نفوسنا . وكان اية علي قد وصل بالتعابير المرتسمة على وجهه الى منتهى المرض وقد فاضت عيناه بالدموع . وكنت طوال اصغائنا أرقب تحول وجهه السريع . كنت أعرف بانه يحترق من الداخل ، وان طاقة الحياة تتسرب من جوانبه شيئا بعد شيء . كنت أرتهب لمجرد همسة أسكبها في اذنه .

وعندما بدأ الحاضرون يتوجهون نحو السيارات ، قام اية علي وتوجه نحو الجهة المخالفة بدون ان ينتبه لوجودي قربه . ثم وقف مستندا على أحد الاعمدة الرخامية ، وشمل المرج بنظرة كليلة ، ثم استدار نحو العمود ، ووضع شفتيه على الرخام البارد ، وظل يضغط عليه .. الى ان سقط على الارض . ولما انحنيت فوقه لاعينه على الوقوف ، كانت روحه قد فاضت من جسده .

وركض معظم الموجودين الى حيث كانت جثة اية علي مسجاة فوق الحشائش الخضراء ، وأخذوا يهمهمون ويتهامسون باطلاق تعابير الاسى والحزن . وصاحت احدى السيدات المسنات ، وكانت زوجة أحد علماء الاثار الانكليز : « انها مشؤومة هذه المدينة ، لقد بدأت لعنتها تحل علينا » . كان الذعر قد ارتسم على معظم الوجوه . أما أنا فلم أعد أشعر بشيء ، وأحسست بانطفاء شامل ياتي على قواي . ولما حملت الجثة الى السيارة ، كنت أتمنى شيئا واحدا ، هو ان توارى جثة اية علي تراب المرج النضير .

***

عندما عدت الى مدينتي ، بدأ الشعور بالفاجعة مع مرور الايام يخف في نفسي شيئا بعد شيء . وذات يوم خريفي كئيب الضحى ، كنت أمر صدفة من امام مدخل المتحف الوطني عندما استوقفني منظر تمثال الالهة أثينا المنحوت من الحجر الاسود ، فأخذت انظر اليه بينما تجمعت في ذهني تعابير وحركات اية علي يوم انفجر ضاحكا امام هذا التمثال ، وأخذت ضحكاته الصافية ترن في اذني ، وتعبر مخيلتي كأمواج من نور . ولم يلبث الرنين المتماوج ان تجمد خلف جبهتي واستحال الى صورتي زارا وبشار . وعلى الفور تابعت طريقي وقد انبعث من وهج الصورتين سؤال مفاجىء اخذ يحفر ذهني : ترى من كان اية علي ؟ هل كان الامير بشار ؟ أم كان الامير زارا ؟

وما زال هذا السؤال يتردد في خاطري الى اليوم .

دمشق : **انور قصيباتي**

النهر

انا في انتظار الغائبين ، والف نائحة امامي
وجهي على شفة الزجاج ووجه امي في الظلام
وربيعك الفضي ، ملء يد النعاس ، بلا لثام
والماء يهرب من يدي كشعرك العبق الزؤام
عين تثلج ماؤها الذهبي ملء يدي وجامي

مدن وراء زجاجنا المائي يلهثن انبهارا
ويد كماء الحلم دافئة كانفاس العذارى
وحدائق من زرقة الامطار اغرقت النهارا
كنا عرايا ابرياء وكان كل دمي اخضرارا

....

اغرقت روحي في اصفرار يديك عمرا من ظلال
حجر تهشم قرب مرآة ، واشرعة انخذال
الموج عاد بها هشيما دون مرفئها المحال
لمح على الصحراء من عدن توهج ثم زال
بيني وبين عيونك الزرقاء عمر من ظلال

يا رعشة كالصوت يلتمس الطريق الى الشفاه
يا صوتنا المنسي يا نهرا جفتنا مقلتاه
كانت لنا سفن واشرعة ولمح من سناه

....

يا رعشة زرقاء يا طعم الندى يا منتهاه

نهر رمادي يسيل على شفاه من غناء
عيناه اقمار اخضرار طفولة وظلال ماء
ورؤى فوانيس وهمس مجارش واسى ثغاء
يا سمرة الصفصاف يا نهرا رمادي النداء
ضعنا وضيعناه في صحراء ملح وانطفاء

موسكو ـ **حسب الشيخ جعفر**

«في شمسي دوار»

صوت من الجيل الجائع

بقلم أحمد طه الرفاعي

« ان الحضارات التي تنضج لا تمـوت قط بأهوال الخريف ، وانما تبدل ريشها ، والجمود وحده هو الذي يهدد بالخطر . » . بمثل هذه العبارات كان ينهي كلمته سان جون بيرس من على منصة تكريم الشعر فيه . واذا كانت شجرة الشعر العربي قد أعطتنا ذات يوم خضرة وظلا وفي يوم آخر طلعت الشمس لنجد الشجرة هيكلا تفـزل اخر اوراقه الصفراء هاوية الى الارض زمن عصور الانحطاط ، فلا بد اذن من ان تبدل الشجرة ريشها ـ كما يحلو لبيرس ان يقول ـ ولا بد اذن من هذا الايراق الجديد في الشعر العربي .

وما نسيت يوما تلك الرايات الشعرية القديمة مركوزة فـوق رأسي ورؤوس الاخريـن تشدني الـى الصحراء حيث يتعانق الشعـر والتاريخ ، ولم أنكر شيئا في الشعر انكاري للاصوات التي تحـاول الفصل بين شعرنا وتاريخنا ، بين شعرنا وحياتنا في كل حين .

وقصتي مع الشعر الحديث تبدأ خلال ندوات شعرية كنت احضرها هنا وهناك في بعض الامسيات ، كنت أخرج والرذاذ يغسل الطرقـات وصدى الكلمات العذبة تنطرح مجروحة كسلى في دربي . أهو الشعور بالحزن أو التفريج أو الكسل لا أدري . ولكنني كنت اشعر بخفة لدى سماعي لهذا الشعر المترنح ترنح السكارى ، هذا شعر لا يعتمد على قرع الحروف النحاسي للوصول الى عتمات نفوسنا ، لا يعتمد على السقوط الراسي السريع كما يسقط البرد في قاع البئر ولكنه ينسل جانبيا انسلال النبع . ولست أزعم ان كل ما هو حديث من الشعـر يروق لي ، لانني لا أميل الى الفلسفات الجافة التي انتهى اليها بعض رواد الحركة الشعرية الحديثة ، فأنا أحب أن أقرأ وأتمتع وأسمـع وأستسلم ، أحب ان اجلس في ركن لاعيش كل روح شعري عن طواعية ورضى ، لا ان اقرأ شيئا لا يعلم ما هو الا الله والراسخون في العلم .

« في شمسي دوار » لفواز عيد . أعترف مسبقا ان اسم هـذه المجموعة الشابة قد اجتذبني منذ أن اعلنت الاداب عنها خاصة وانني قد استمعت الى شاعرها ذات أمسية وأعجبني انشاده لانني أحسست بصوته حزينا يحمل جوع شعب كامل ترك وطنه وألفى نفسه جـائعا على كل درب وتحت كل مصباح ليؤدي فريضة طواف صامتة مجهولة .

قرأت المجموعة للمرة الثانية لاحاول الكتابة ، فالمتعة الشعرية شيء والبحث عن مواطن هذه المتعة شيء آخر .

الى أين وصل هذا الجيل المتفتح تحت هذه الشمس الدائخة ؟ وهل استطاع ان يعبر عن نفسه وحاجاته في شعره ؟ أم ما زال يخبط على غير هدى ؟ وماذا يريد هذا الشباب منا ؟ لماذا لا يريد الاعتـراف بوقار الشعرات البيض في رؤوس الاخرين ؟ ألأنه أحس انه مجبر على ان ينظر الى القمم البعيدة اكثر مما ينظر الى نفسه ؟ وان ينكس رأسه راضيا بمعطيات الاجيال السابقة ؟

قد يكون هذا أو ذاك أحد الاسباب التي تدفع هؤلاء الشبـاب الى الرفض المر والوقوف باعتداد امام ما يريدون الحصول عليـه ، وتحقيقه وما يريده لهم الاخرون من صنع وتحقيق ، فاذا فشـلوا في احداث الانسجام ارتفعت أصواتهم جائعة غارقة بشيء من الفوضى والقلق والخيبة بالضحك الصاخب حينا وبالصمت والاكتئاب حينـا آخر . انه جيل يفتح عينيه تحت شمس زائفة على عواصف ترتفـع في آفاقنا بين حين واخر ، ونكبات مزروعة في صحونا على الحيـاة الجديدة ، وعندما يكتشف هذا الجيل لا جدواه في حديثه وانزوائـه وتفرجه يصحو ليرى ان الزمن ماض لا يلوي على شيء وانه لا يستطيع ان يصنع شيئا للحاق به ، انه محنط كالموميـاء في زوايا المعـاهد والجامعات يتحدث ويتحدث ثم ينتصب عندما يبرد الجرح ويثور الالم ليعلن انه قد نضب :

مضغنا الزمـان ..
مضغنـا الاحاديث في مذبح الركـن ..
قلنا : نضبنـا
تسابقنا .. فـي الصقيع الممدد فيها ..
العقـارب ..
حتى تعبنـا

ان الجامعة هذا الشح الحضاري الكبير لم يعد قادرا على احتواء هموم شبابنا ، وان كل ما يكسبه هذا الشباب هنا لهو صداقات علـى الموائد تكر عليها الاعوام ويتفرق الصحب مخلفين أعقاب لفافات مقتولة على الموائد وأيد ملوحة في الخاطر كل جناح يقصد أفقا نائيا ، ملوحة دونما أمل بلقاء جديد :

سأروي
اذا اتكأ الليـل .. فـي خاطـري
في قراري
سـأروي
وان في ضباب الطريق الـى الريح ..
يومـا
تناستني الريح ..
أروي
عن الاصدقاء القدامـى ..
مضـوا
نشروا الاجنحه
أشـاروا مـع الريـح ..
في المنحنى
وزفتهم الطرق الجامحه

والنهاية الحزينة المتفجعة تبقى عالقة متأرجحة في البال تأرجح الامواج القلقة التي صلب عليها لياليه الطوال فهي جلاده الامين الذي لا يسـأم :

سأروي لكم أصـدقائي القدامـى ..
احـاديث وجد
بصدري قديمه
عـن البحر
عن عابـر صلبتـه الرياح عليـه ..
معي
وجلادنا الليـل ..
شيخ
طويل
عريض القفا

واذا كان لا يقوى على الفراق المض فسيبقى يتحسس حبوله اطياف اولئك الاصدقاء يتلمس شخوصهم في عتمة لياليه ويمد يديه ليقول لهم ويقول بعد ان رحلوا لينفث الدم العالق في صدره مغمض العينين لا يريد ان يفتحهما ليرى نفسه وحيدا :

سأغمض عيني

أروي لكم أصدقائي القدامى
فظلوا معي
لا تقولوا : كفى .

لقد وقفت وقفة ليست بالقصيرة عند احدى روائع هذه المجموعة - في نظري على الاقل - لانها تاج اختلط فيه الدم بالماس ، والتفجع باللهب ، والغناء في موكب الجنازة .

وقبل اليوم كان الحب سلوى الشعراء يغرقون في وصف لياليه الهانئة ويتغزلون باعطاف المحبوبة ونهودها ، ومتى أحب الشاعر الحديث هنا عاد ليلتف بشيء أسمى من هذا وابعد منالا ليهيل على حبه الوانا من « الف ليلة » ومسحات من صوفية الشرق ووجدانه ، ان المراة عنده شيء اكثر من متعة ، ولكن المراة الشرقية تحاول ان تقنع نفسها اليوم بأنها لا تريد ان تكون حلما يتجلى في لحظات من الاشراق الصوفي الشعري انها تركض وراء البريق ، اذن فالخيبة مفتوحة امام فقر الشعراء :

شهرزاد
شهرزاد
كلما فتشت في بغداد عن قرط وشال°
عن سوار ناحل ..
عن خاتم ..
عن قوس فضه ..
قيل : بغداد كوى مفتوحة في عرض دجله°
- ربما خاتمها يسقط من اصبع طفله

فالحب هو ايضا رحلة جائعة ، رحلة خلف مجهول شارد نطلب منه عطاء ، نطلب منه شيئا نحيا به بعد ان أعيانا البحث والطواف :

شهرزاد
ضنت الريح علينا فامنحينا
واذا جئناك حيارى
وقصدناك ..
تلوب الخيبة الحرى بعينينا .. اعذرينا
واذا قلنا انتهينا .. باركينا .

انه الشوق الى المجهول الى ماء علوي نطهر به أدران آدميتنا الى شيء يشبه ان يكون رحلة لطير جائع في صفاء ليال قمرية .

***

واذا عدنا الى تحليل ما بين الشباب والشيوخ من تناحر وخصومة وجدنا هجوم الشيوخ يتركز في الدفاع عن اللغة والاوزان الشعرية المتوارثة وهو رأي لا أشك لحظة في صوابه ما دامت غاية هؤلاء هي الدفاع عن اولى مقومات قوميتنا والمحافظة على صلتنا بتاريخنا العربي، وحجة اخرى سليمة يشهرها الشيوخ هي ان بعض هؤلاء الشباب يحاولون القفز عن الحواجز اللغوية بحجة التجديد والابتكار لانهم لم يتسلحوا بهذه اللغة من قبل ولم يتقنوها وفي رأيي ان بعض الاقلام الشابة قد أثبتت حبها للغة وقدرتها على تكييفها لامتصاص الانفاس الشعرية دونما حاجة الى ضغط لهذه الانفاس . أثبت حجازي ببساطة كلماته ولغته انه شاعر ، واثبت الصوفي بحرارة كلمته انه شاعر ، وكانت اخيرا هذه المجموعة الشابة علما اخر فوق أقواس الشعر العربي الحديث . ان ما يميز هذه المجموعة عن سواها هو جدتها وصدق النبرة فيها والحزن المنتصب في أرجاء عباراتها .

شباب يقف امام كارثة لا يستطيع ان يفعل شيئا يرى الرياح تنهب كل شيء امام عينيه ولكنه مغلول لا يقوى حتى على الصراخ .

وصاحب هذه المجموعة نموذج لهذا الشباب العربي الشريد . ان بيوت قريته المذرورة على شاطىء البحيرة قد تهدمت وحرم منها ليعيش بلا وطن بلا استقرار بلا غاية ، يمضغ حزنه وضياعه وصمته وينقلب الى مراقبة الناس الذين يحاولون ان يعيشوا ليلهم كاملا ، براقب ليعيش ولكن الجرح لا يرحم :

تزحف الانغام من كهف .. لكهف
وعروق البوق تلوي
وتدب النشوة الحمقاء فيهم .. ثم تذوي
ويرش الكهف في الاهداب ألوانا سخينه°
توثق الاقدام بالبوق .. فلا تدري :
متى كانت رزينه°

بعد هذه الرقصة المائجة تحت الالوان الساخنة يتسرب البرود والعياء وينتهي عمل المخدر وتثور الجراح عنيفة قاتلة ويفيق الشاعر على صقيع تجربته ويدب الذعر فيه من جديد :

ليلة ضاعت ..
وتتلوها الليالي
باردات ..
أعين جوفاء يقعي الذعر فيها
راحل الانغام يغرينا .. ولكن
قد عيينا
تعبت اقدامنا ..
في الكهف ريح بارده° ..
وارتمت منهارة فيالليل عينجامده° ..

انه يتطلع الى الخلاص الى ما يغسل احزانه وجوعه وسواد لياليه وانطواءه . انه بحاجة الى ما يبعث حياته جديدة ناصعة ، الى قطرات مطر ترن في قرارته تزخ على وجهه تعيد الى تقاطيعه المنحوتة بعض نضارتها وشبابها :

الله ما أصفاك !
أنت اذن هنا ؟!
الله ما أصفاك !
يرشح في صميم العظم دفؤك .. يا مطر°
لا بأس ..
جدراني مغبرة
وأنسجة الكروم حزينة
لا بأس ..
ينسفح الغمام على مدى وجهي ..
يبلل قامة الاحزان من حولي ..
يزخ ..
يزخ ..
يرشح في صميم العظم دفؤك
يا مطر°

***

لقد سجل الشاعر بعض اللقطات الجميلة مكتفيا بالايماء الموحي وباللفتة اللبقة . انه يضيف الى أعمال الشعر الحديث غنى وعذوبة وبكارة ، ففي قصيدته « اندلسية » يفرد الشاعر مقطعا لوصف الراقصة في معبد الرقص :

مثلما يرعش في ذعر الخريف
الورق
وردة حمراء ..
في بركة ضوء لاهب ..
تحترق
خطوها الذاهل صمت ..
شهقة في اثر شهقه°
ويذر الألق الزاهي ..
على زنبقة الاذرع ..
سحقه°
خبب في الصدر ..
ايماء حيي
ومزامير لعرس وثني .

والقمر السابح بخفر بين أساطير الشرق وغلالاته الشفافة ترتفع الاكف اليه ليلة تمه ، لتباركه ، وتدور الالسنة لتنسج حوله وحول ابنة عمه من النجوم أساطير وثنية كثيرة . لا أدري لماذا احب ان أترنم كثيرا بذكر القمر ، ألانه يذكرني بأصوات فلاحي قرانا تتناهى شجية مجروحة أيام الحصاد تحت صفائه أم لانه يمثل رمزا من رموز الوصول

والاطمئنان . ولقد اختار الشاعر عروس بادية الشام ((تدمر)) ليعجن من طين تاريخها ، تاريخ انفـة زنوبيا وكبريائها رمزا لنكبة وطنه السليب . واذا كنت قد فهمت القصيدة فان القمر يمثل الامل للاطفال الذين نهب الرومان بلدتهم وهدموا بيوتهم ، ان القمر صديق لهم ثريا معلقة في سماء عيونهم ترتعش لاحزانهم ودموعهم :

ومر البدر في صحراء أعينهم ..
فبللها
وفي عينين سوداوين ..
طافت غيمه
دمعه
فاشعل في قرار سوادها
سمعه

ولكن الحوت يطارد القمر محاولا اصطياده وابتلاعه :

ـ أحبائي
روى العراف .. أمس ..
على الطريق
حكاية الحوت
اذا يقتات بالقمر
وقال :
يظل يبحر خلفه ..
وينوش اطرافه
ويطعم للصغـار الجائعين ..
هناك ..
أصدافه

جميلة هذه الرموز التي جمعها الشاعر واستطاع اداءها اداء شعريا محافظا على التسلسل المنطقي الذي يتطلبه المزج بين التاريخ والاسطورة من جهة والشعر والاقصوصة من جهة ثانية ، واخيرا من ناحيتي الوزن الشعري الهادىء والربط المحكم بين كافة هذه العناصر بحيث تكون مجتمعة قابلة للتوجيه الى تاريخنا القديم مرة والى التاريخ الحديث مرة ثانية .

ان قدرة أي شاعر تتجلى في مهارته على خلق الكلمة الشعرية والعبارة الموحية في احياء الموات من طين الانسان الشعري .

الكلمة الشعرية هي التي تخلق نابضة شفافة بحيث لا تدس وجهها السميك بيننا وبين ما نريد أن نعبر عنه ـ كما يحلو لبرغسون ان يقول ـ بل تعود براقة كآنية تعاورها الناس والزمان فانطفأ ألقها ورنينها حين امتلأت مسامها بالدهن اليومي ، ويأتي الشاعر اخيرا ليمسحها براحتيه وليطهرها بلهبه .

هذا ما استطاعت المجموعة ان تثبته ، ان تثبت قدرتها على اقتلاع الكلمات بجذورها من مكانها اليومي لتجد نفسها في حديقة الشعر :

من قديم كـان يحكى
من قديم .. من قديم
قصـة تنبت بين القصب المتعب ..
تنمو
عنـد اجفـان السواقي المثقلات
يرتخي مـن حولهـا الصفصاف ..
يهرم
ومع الريح ليـالي الصيف تحبو ..
تتكوم

الى جانب محافظتها في هذه القصيدة وبعض القصائد الاخرى على الايقاع الموسيقي الذي تهواه الاذن الشرقيـة ، فهي تردد بعض أبيات القصائد ترداد الاقفال في الموشحات :

فتعرت في حقول الليل قامات القصب
ورذاذ من عيون النجم صلى ..
وانسكب

وتنتهي القصيدة بهذه الابيـات الجنائزية الوقـع :

وتجوس الريح أقـواس السكينه ..
وتروي من جرار الليل قامات القصب
ويدق النهر في الشطآن أجراسا حزينه

ومن مرارة الغريب الضائع في اسواق المدينة وفي دهاليز المعامل يدخلها الرجال قبل بزوغ الشمس ويغـادرونها عندما يهبط الليل لتقذف بهم بعد أيام واحدا بعد واحـد جثثا معطوبة الرئتين غريبة الملامح الى مقبرة نائية ، من هذه المرارة كانت قصيدة ((الطريق الى المقبرة)) . ففي صبيحة العيد والصقيع يحاصر انفاس النوافذ المغلقة والدروب خالية يقصد جماعة مقبرة نائية لا يعرفونها ويصادفهم شيخ عائد لتوه من المقبرة فيسألونه :

ـ يا عم ..
أين الدرب نحو الغـاب ؟
نحو الشارع الغربي
نحو المقبره
قالوا :
((نمر بحيكم هذا بعطار بأوله ..
وآخره بقايا قنطره))

وعندما يسألهم الشيخ عن أكاليلهم التي يحملونها ومن أي بلاد هم يثورون في وجهه :

ماذا تخبىء للغريب عيون دوركم ؟؟
.. ترى ماذا تخبىء للغريب ؟
نمضي .. وتخطف كل زاوية صديقا ..
أو حبيب

انهم غرباء بسطاء لا يريدون شيئا بل يذرعون ايامهم بحثا عن كوخ واطفال وامطار .

وننام ..
ملء عيوننا شوق لمزرعه
وكوخ عامر بالصبية اللاهين
بالامطار
صوت الديك خاط ظلامنا بالصبح ..
وانتحر الزمان

***

ولا اود ان اختتم هذه الدراسة قبل ان اتحدث عن الاوزان الشعرية في المجموعة فاوزانها طويلة في اغلب القصائد . ففي القصيدة الاولى ((الابواب)) تختفي القافية تماما وتظهر عوضا عنها وحده النشيد بحيث نستطيع ان نجمع هذه القصيدة في ثلاثة ابيات فقط ((طارق ـ تمثال ـ المطر)) .

وفي قصيدة ((لا نقش للغرباء)) نلمح مثل هذا البيت الشعري الطويل : اواه

كم اشتاق : لو اطويك ..
ملء سواعدي
اطويك .
انهل نهلة الصديان من حقيك
اعصر توت حلمة كل نهد فيك
مثل الموت
اعصر كل نبض في دواليك الحرون

وفيه خمس عشرة تفعيله من الكامل وهذا القدر مـن التفعيلات يحتاج الى مقدرة على اطالة النفس الشعري ..

***

انه صوت من جيل عربي جائع برهن فيه الشاعر على ان شبابنا قادر على العطاء اذا فتحت امامه السبل ولا يحتاج الا الـى الكلمة الصادقة الخيرة .

ان نظرة الى عناوين قصائد المجموعة ((الابواب ـ شهـرزاد ـ العقب والمرايا ـ الفرسان ـ اندلسية ـ الاطفال والقمـر ـ الراوي ـ لا نقش للغرباء)) تحمل وتبين جدة هذه المجموعة الشابة وخصب عطائها .

جامعة دمشق

احمد طه الرفاعي

الهجرة في الشعر العربي

بقلم عبد اللطيف اليونس

قبل ان نتحدث عن الشعراء المهجريين والتجارة، وعن وطنيتهم، وحنينهم الى الوطن الام، نحب ان نعطي صورة سريعة عن الهجرة في الشعر العربي القديم.

الشاعر مرآة قومه .. تنعكس عليها حياتهم الخاصة والعامة، وتعطي الاجيال القادمة صورة حية عنها ـ بكل ما فيها من مساوىء ومحاسن، وامل ويأس، واشراق وتجهم، وانطلاق وجمود.

والهجرة في حياة العرب وتاريخهم شيء ضخم. وعامل اساسي من اقوى عوامل وجودهم وبقائهم، واكثرها اهتماما بالدراسة، وامعانا بالبحث والتنقيب.

فالعربي الذي انطلق من صحرائه، وانفلت من أسر رمالها الظامئة المجدبة، وارتحل شرقا وغربا، وعسكر هنا.. وأقام هناك.. وانتقل بين آسيا وافريقيا واوروبا، ومن ثم امريكا، ينشر اخلاقه، ويبشر بتعاليمه، ويغمر الدنيا بفيض لا ينقطع من لألاء نفسه المتوثبة الحرية، وقلبه المتفتح للحياة.

هذا العربي .. الذي هجر أرضه الى ارض جديدة، لم يسلُ أرضه الاولى، ولم يجفها، وانما ذهب ليضم اليها ارضا اخرى، ويصلها بها .. ويشدها نحوها بسلاسل من لغته وتراثه، ونفحات وجدانه وايمانه. واذا بالارض الجديدة جزء من الارض القديمة، وشعوب غريبة وكثيرة، تتكلم لغته، وتدين بدينه، وتؤمن برسالته ...

ذاك فتح لم يعرفه الفاتحون. ومجد وقف الناس عنده حيارى باهتين. البقعة العربية تتوسع وتمتد ... حتى تصل الخليج بالمحيط، وتتخطاها بمدنيتها ـ يوم لا مدنية ـ الا عند العرب، وبحضارتها ـ يوم كانت الحضارة كلمة جامدة .. لا معنى لها، ولا مدلول.

يوم كانت اوروبة تعيش في ظلام دامس من التأخر والجهل، وتخضع لانظمة اجتماعية جائرة، واقطاعية مستبدة طاغية!

يوم كان الجهل يعشش في قلوب الناس وعقولهم، ويتخذ من اذهانهم مطايا، ومن السنتهم دعاة ومبشرين!

في تلك الغمرة الرهيبة من الجمود والتأخر والتخلف، كان العرب دعاة هدي وخير واصلاح.

ولولا هجرتهم من أرضهم، الى بقاع الدنيا، لما كانت تلك الفتوحات ـ التي كان رائدها المحبة، والانسانية، والعقيدة الخيرة السمحة.

ونحن هنا في هذا المقال، لسنا بمعرض التحدث عن الهجرة بصورة عامة ومسهبة، ولا عن بحث جزئياتها وظروفها، والمكاسب التي حققتها الامة العربية منها ... وانما نحن بمعرض البحث عن الهجرة في الشعر العربي، واثرها في حياة بعض الشعراء العرب. متوخين الايجاز ـ ما امكن، ومتوخين اعطاء صورة عن حياة الشعراء الذين كان دأبهم التنقل من مكان الى مكان، وهدفهم الهجرة من بلد الى بلد، ومن اقليم الى اقليم ..

وربما كان الشعراء العرب اكثر شعراء العالم تنقلا وعدم استقرار. ويعود السبب في هذا الى الحياة القبلية التي كانوا يحيونها، والى المغريات الجمة التي كانت تدفعهم للتنقل من ارض الى ارض، ومن بقعة الى اخرى.

ويستطيع القارىء ان يسميها « هجرة »، أو أن يضفي عليها أي اسم أراد. وهي لا تخلو عن كونها تغيير مكان بمكان، واستبدال قوم بقوم، وبيئة ببيئة.

ولا نستطيع ان نقف الا عند عدد قليل ومحدود من الشعراء الذين هجروا موطنهم، وهاجروا منه .. أو ارتحلوا الى أماكن اخرى .. ولعل « الشنفرى » اول شاعر تحدث عن «الهجرة» ودعا اليها:

أقيموا بني أمي صدور مطيتكم
فاني الى قوم سواكم لأميلُ
فقد حمّت الحاجات والليل مقمر
وشدت لطيات مطايا وأرحل

وهو اول شاعر، من القدامى، الذين وصلنا شعرهم، يعدد فوائد « الهجرة »، ويذكر بواعثها ومسبباتها، في شعر قوي متين:

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى
وفيها لمن رام العلى متحول
لعمرك ما في الارض ضيق على امرىء
سعى راهبا او راغبا وهو يعقل
لأستف تُرب الارض.. كي لا يرى له
علي من الطول امرؤ متطول

وارتحل « امرؤ القيس » الى بلاد الروم، يستعدي مليكها على قتلة ابيه ـ وهو القائل:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عينك انما
نحاول ملكا.. او نموت فنعذرا

وكان « التكسب » في الشعر اكثر ما يصيب الشاعر في الجاهلية. ورواة التاريخ يتهمون « اعشى قيس » بأنه اول من استن فكرة « التكسب »، وولج بابه، واتخذه وسيلة للعيش. فكان ينتقل من مكان الى آخر للمدح وقبض الثمن! وكان الناس يلقبونه بـ « صناجة العرب » ـ فكم رفع اسما وضيعا، ووضع اسما رفيعا!

ومما يروى عنه انه كان في بلاط « كسرى »، وقد بلغ به الارق مبلغه، فراح يردد:

أرقتُ وما هذا السُهاد المؤرق؟
وما بي من حزن، وما بي معشق

وصدف ان مر كسرى، وسمع « الاعشى »، فسأل عنه، وعن الكلام الذي يردده. ولما ترجم له قال: « ان الذي يأرق من دون حزن أو عشق يكون لصا ».

ومن الشعراء الجاهليين الذين هاجروا الى خارج بلدهم، «النابغة الذبياني» الذي اتهم بحب « المتجردة » زوجة « النعمان بن المنذر » ملك الحيرة، فقد هاجر من العراق الى دمشق، واستوطنها. وظل يستعطف

« النعمان » بقصائد بالغة جد الروعة . وهو صاحب البيت المشهور - يخاطب به « النعمان » - ويقال انه ابلغ ما قيل في الوصف :

وانك كالليل الـذي هو مدركي
وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن الشعراء الذين هاجروا الى دمشق في عصر الجاهلية « حسان بن ثابت الانصاري » . وقد أدرك الاسلام وعاش حتى عهد معاوية . وله في وصف ملوك الغساسنة قصائد رائعة .

وفي العصور الاسلامية كثرت هجرة الشعراء العرب من بلد الى بلد . بعضها في سبيل العمل ، واكثرها في سبيل الكسب . ومن الصعب ذكر اسمائهم جميعا. لان ذلك يقتضينا ذكر اسماء اكثر الشعراء . ولكن لا بد من ان نقف عند بعضهم - ولو وقفة عابرة .

هاجر « الاخطل » الى دمشق من العراق . واقام في بلاط الخليفة ، وكان شاعر الامويين .

وارتحل « ابو تمام » مع والده الى مصر . وكان ما يزال فتيا . لكن أمله لم يتحقق بالاقامة في ارض الكنانة، فعاد الى سورية ، بعد ان عاتب أمير مصر لانه أبطأ باجازته:

الفطر والاضحى قد انسلخا ولي
أمل ببابك صائم لم يفطر
حول ولم ينتج نداك .. وانما
تترقب الحبلى لتسعة أشهر

وذهب « ابو تمام » الى ايران . ثم عاد الى العراق. واستقر في مدينة الموصل حيث عين مديرا لبريدها ، الى ان توفي فيها - وهو القائل :

بالشام أهلي. وبغداد الهوى. وانا
بالرقمتين ، وبالفسطاط اخواني
وما أظن النوى ترضى بما عصفت
حتى تشافهني أقصى خراسان

وهو القائل ايضا :

وطول مقام المرء في الحي مخلق
لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة
الى الناس، ان ليست عليهم بسرمد
ولم تعطني الايام نوما مسكنا
ألذ بـه ، الا بنوم مشرد

والشاعر الذي ضرب بسهم وافر في الهجرة والتنقل كان «ابا الطيب المتنبي » الذي ولد في « الكوفة » ، ووالده من اليمن . وظهرت عليه دلائل النجابة ، وسيماء الذكاء من صغره ، فحمله والده الى سورية حيث أدخله المكتب ليتعلم . ولم يلبث الوالد أن توفي وترك ابنه يتيما . ولما كبر شرع يتنقل بين القبائل العربية، ويتخذ منها اصدقاء. ولم لبث أن اتهم بادعاء « النبوة » ، فسجنه والي حمص. ولما أطلق سراحه ذهب الى اللاذقية ، ثم صعد الى حلب، حيث استقر في بلاط « سيف الدولة » مدة طويلة مدحه خلالها باروع الشعر العربي ، واخلده وأغناه - وغادر حلب بعد ذلك الى مصر مارا في جبال لبنان :

وجبال لبنان . وكيف بقطعها
وهو الشتاء ، وصيفهن شتاء
سد الثلوج بها علي مسالكي
فكأنها ببياضها سوداء

وعاد من مصر الى العراق . ثم سافر الى بلاد فارس . واغتيل وهو في طريق عودته الى دمشق بالقرب من مدينة الكوفة .

و « ابو نواس » من الشعراء البارزين الذين ارتحلوا الى مصر . وله في مدح اميرها « الخصيب » قصيدة تعتبر من رائع الشعر العربي . منها :

تقول التي من بيتها خف مركبي
عزيز علينا ان نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب
بلى ان أسباب الغنى لكثير
فقلت لها ، واستعجلتها بوادر
جرت فجرى في جريهن عبير
دعيني اكثّر حاسديك برحلة
الى بلد فيها « الخصيب » أمير
اذا لم تزر أرض «الخصيب» ركابنا
فأي فتى بعد «الخصيب» نزور ؟
فتى تنبت الامال من غوث كفه
ويعلم أن الدائرات تدور

ويقول المؤرخون : حينما وصل ابو نواس الى قوله: «دعيني اكثّر حاسديك برحلة» فقال له الامير : « وسيكثر حاسدوها ان شاء الله » . وأمر له بالف دينار أنفقها الشاعر كلها قبل ان يعود الى بلده .

وارتحل « ابو العلاء المعري » الى بغداد ، وكان ينوي الاقامة فيها . وكانت في ذلك الحين ملتقى الشعراء والفقهاء والعلماء . ولكنه اضطر للعودة الى سورية بعد الحادث المؤلم الذي جرى له في مجلس «الشريف المرتضى». وله في وداع بغداد ابيات رقيقة - يقول في مطلعها :

أودعكم يا اهل بغداد والحشى
على جمرات ما ينين من اللذع

ويربط بعض المؤرخين بين خروج « ابي العلاء » من بغداد وبين قوله :

ولم أعرض عن اللذات الا
لأن خيارها عني خنسنه

وقوله :

لو أنصف العيش لم تذمم صحابته
وما غدرنا ، ولكن عيشنا غدرا

* * *

وقد جرى ذكر « الهجرة » على السنة كثير من الشعراء . وما ابلغ هذه الصورة، يصور بها احدهم نفسه وهو « عمر بن ابي ربيعة » :

أخا سفر جواب ارض تقاذفت
به « فلوات » فهو أشعث أغبر

قيل : ان « هارون الرشيد » بعد ان عاد من احدى غزواته في بلاد الروم - وكان له غزوتان في السنة ، اسماهما : « الصائفة » و « الشاتية » - طلب من في بابه من الشعراء . فدخل « الاصمعي » . فاتخذ الخليفة متكأ له ، وقال : أنشدني ما عندك . فأنشده قول « عمر بن ابي ربيعة » :

رأت رجلا . أما اذا الشمس عارضت
فيضحي ، وأما بالعشي فيحضر
أخا سفر جواب ارض تقاذفت
به فلوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله ...
سوى ما نفى عنه الرداء المحبر

فقال الرشيد : لكأني ذلك الرجل .

يقول « الطغرائي » في « لاميته » المشهورة باسم « لامية العجم » :

ان العلى حدثتني ، وهي صادقة
فيما تحدث أن العز في النقلِ
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وشجع « الامام الشافعي » على « الهجرة » ، ويحبب النزوج عن الاوطان :

ما في المقام لذي عقل وذي أدب
من راحة فدع الاوطان ، واغتربِ
سافر تجد عوضا عمن تفارقه
وانصَب فان لذيذ العيش في النصب
اني رأيت وقوف الماء يفسده
ان سال طاب، وان لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة
لملها الناس من عُجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى في أماكنه
والعود في أرضه نوع من الخشب
فان تغرَّب هذا عز مطلبه ..
وان تغرب ذاك عز كالذهب

وقال ايضا :

اذا قيل في الاسفار ذل ومحنة
وقطع الفيافي ، واقتحام الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته
بدار هوان بين واش وحاسد

وهو القائل :

أمطري لؤلؤا جبال سرنديب
وفيضي آبار تكرور تبرا
همتي همة الملوك ، ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفرا
انا ان عشت لست أحرم قوتا
واذا مت لست أحرم قبرا

مثل هذا الاباء العربي ، يفيض به الشعر العربي . وقل ان تقرأ لشاعر مجيد الا وتجد هذا الاباء ينبض في قصائده ، ويسيل على يراعته . يقول « جرير » :

واني لعفُّ الفقر مشترك الغنى
سريع اذا لم أرض داري انتقاليا

ويقول « سلمة بن يزيد » ــ وهو يرثي اخاه :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه
اذا هو ما استغنى ويبعده الفقر

ويقول « كلثوم بن عمرو » :

ان الكريم ليخفي عنك عسرته
حتى تراه غنيا ، وهو مجهود

ويقول « حاتم الطائي » :

فما زادنا بغيا على ذي قرابة
غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر

ويقول « ابو فراس الحمداني » :

اذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذللت دمعا من خلائقه الكبر

ويقول « بدوي الجبل » :

وأحمل عن اخواني العسر جاهدا
ويبعدني عنهم اذا أيسروا اليسر
ونفسي لو أن الجمر مس اباءها
على بشرها الريان لاحترق الجمر

ونحب ان نختتم هذا الفصل بقصة الشاعر « علي بن زريق » الشاعر البغدادي الذي ارتحل الى المغرب يمتدح اميرها . واحب الامير ان يداعبه فقال له : « قد مُدحنا بقصيدتك هذه ، وسمعناها من سواك قبل ان نسمعها منك » .

فأغتم الشاعر . وكان قد غادر بغداد ليظفر من امير المغرب بمهر خطيبته ، وكان آلها قد أبوا ان يبنوا له عليها الا بعد ان يقدم « المهر » الذي طلبوه ــ وكان مبلغا جسيما. وفي اليوم التالي بعد ان استنفدت النكتة غايتها، ارسل الامير من يتفقد الشاعر ليجزيه ، فوجدوه ميتا وتحت وسادته قصيدة من روائع الشعر العربي ــ ولعلها اروعه وأبدعه واحلاه، وآنقه ديباجة ، وأجمله سياقه ، وأرقه معنى . وهذه بعض ابياتها :

لا تعذليه . فان العذل يولعه
قد قلت حقا ، ولكن ليس يسمعهُ
جاوزت في لومه حدا أضر به
من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا
من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعا بالخطب يحمله
فضلِّعت بخطوب البين أضلعه
يكفيه من روعة التفنيد ان له
من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر الا وأزعجه
عزم على سفر بالرغم يزمعه
تأبى المطالب الا ان تكلِّفه
للرزق سعيا ولكن ليس يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل
موكلٌ بفضاء الله يذرعه
اذا الزمان أراه في الرحيل غنى
ولو الى السند أضحى وهو يقطعه

* * *

أستودع الله في بغداد لي قمرا
بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودعته ، وبودي لو يودعني
صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه
وللضرورات حالٌ لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى
وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب اللهَ ثوب العذرِ منخرق
عني بفرقته لكن أرقعه
اني أوسع عذري في جنايته
بالبين عنه ، وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته
وكل من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا
شكر عليه فعنه الله ينزعه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته
كأسا يجرع منه ما أجرعه
كم قائل لي ذقت البين قلت له :
الذنب والله ذنبي لست أدفعه

عبد اللطيف اليونس

جزيرة أكثر بعداً ...

مسرحية في فصل واحد

بقلم مصطفى ابو النصر

« زنزانة في سجن . الاول ، يجلس على الارض، بجانب الحائط . الثاني ، يقف في الوسط ، يلعب ألعابا رياضية. يرتديان ملابس الاعدام الحمراء ».

الاول : ما هذا ، لم لا تجلس ساكنا ؟

الثاني : انما أسلي نفسي .

الاول : ألم تجد شيئا تتسلى به غير هذه الحركات ؟

الثاني : هل لديك شيء اخر تقترحه ؟

الاول : ألا تفكر في مصيرنا ؟

الثاني : مصيرنا معروف ، فلماذا أفكر فيه ؟

الاول : لان هذه الحركات لا فائدة منها

الثاني : وكذلك التفكير ، لن يقدم أو يؤخر .

الاول : ولكن ربما نستطيع .

الثاني : لا تكن أحمق ، ألم يحاول المحامي أن يخترع حكـــايات وحكايات دون جدوى ؟

الاول : اذن ما الذي يمكن ان نشغل به أنفسنا ؟

الثاني : لم لا تفعل مثلي ؟

الاول : انني لا أحب الرياضة ، انها ارهاق لا ضرورة له.

الثاني : وكذلك الراحة التي أنت عليها ، (يتوقف عن اللعب) هل تستطيع أن تقول لي ما هي نهاية جلوسك هكذا في الركن ؟

الاول : انني أنتظر اللحظة الاخيرة ، انني أفكر في تلك اللحظة التي سينتهي فيها كل شيء.

الثاني : وما فائدة هذا ؟

الاول : في الواقع لا يوجد الان ـ بالنسبة لنا ـ شيء له فائدة ، حتى التفكير ، ولكن ما الذي يمكن أن أفعله ؟

الثاني : مثلي .

الاول : ألم أقل لك انني لا أحب الرياضة ، ثم انني أشعر بالتعب بسرعة .

الثاني : اذا فعلت ذلك كل يوم مبتدئا بخمس دقائق ، أمكنك فـي النهاية ، أن تلعب لمدة عشر ساعات مثلا ، وحين تتعب تستطيع أن تنـــام نوما هادئا .

الاول : ان النوم بالنسبة لي ، أصعب من اليقظة ، ذلك أنني أحلم دائما ، وكلها أحلام مفزعة .

الثاني : هذا هو وجه الخلاف ، اذا تعبت نمت نوما ثقيلا ، فلا تحلم بشيء على الاطلاق .

الاول : أرجوك أن تتركني وشأني ، فرأسي لا يحتمل .

الثاني : ولكني أريد أن أتكلم ، ولا أحد سواك استطيع ان اتكلم معه، لم لا تبادلني الحديث ؟

الاول : لا فائدة من الحديث

الثاني : شيء نقطع به الوقت ، فالسجان شخصية جامدة لا يمكن الحديث معها .

الاول : فأنت تريدني أن أسليك وأرفه عنك .

الثاني : ولم لا ؟

الثاني : ان أيامنا معدودة ، ولا يمكن أن نقضي اخر ايامنا في صمت أو كراهية أو ضيق

الاول : لم أكن في يوم من الايام مسليا لاحد .

الاول : وما فائدة أن نقضيها سعداء ، طالما أن النهاية معروفة، فلا معنى لكل ما نقول أو نفعل.

الثاني : انك بذلك تلغي أشياء كثيرة مهمة في هذه الحياة، فالنهاية بالنسبة لنا أصبحت محددة ، هذا حق ، ولكن أليست تلك هي نفـــس النهاية بالنسبة لجميع سكان الارض ؟

الاول : ولكن يوجد فرق ، فرق كبير

الثاني : ما هو ؟

الاول : انهم لا يعلمون متى ستكون أو كيف ، أما نحن فنعلم

الثاني : هذا فرق شكلي ، فالموت هو الموت ، سواء أكان على السرير أو على المشنقة .

الاول : تلك هي أفكاري ، وأنا لا أحب من أحد ان يتدخل في شؤوني الخاصة .

الثاني : انني مضطر الى التدخل في شؤونك الخاصة

الاول : ولماذا أنت مضطر ؟

الثاني : لانني برمت من الصمت ، ومن الضروري ان اتكلم، أن أقول أي شيء .

الاول : ألا تستطيع أن تفكر ؟

الثاني : لم يكن في حياتي وقت للتفكير

الاول : وكان فيها للقتل فقط ، أليس كذلك ؟

الثاني : غيرك هو الذي يقول هذا الكلام ، أما أنت فتعرف الحقيقة كـــاملة .

الاول : انني في الواقع لا أعرف شيئا على الاطلاق

الثاني : كيف ! ألم تكن شريكا لي في الجريمة ؟

الاول : هذا موضوع قديم ، لنتكلم في شيء جديد

الثاني : لماذا تهرب دائما من الكلام عن هذا الموضوع ؟

الاول : لانه لم تعد هناك فائدة من الكلام عنه .

الثاني : انني أعرف لماذا لا تريد الكلام.

الاول : لماذا ؟

الثاني : لانك انت القاتل الحقيقي .

الاول : لم يعد ذلك يعني شيئا الان .

الثاني : سأطلب مقابلة مأمور السجن .

الاول : لن يستجيب لشيء مما تقول .

الثاني : واذا كنت أملك دليلا قاطعا ؟

الاول : (يعتدل في جلسته) ماذا تعني ؟

الثاني : أستطيع أن أبرىء نفسي تماما

الاول : (بثقة) لن تستطيع

الثاني : (بتحد) بل أستطيع ، ولكنني لا أريد

الاول : فلم لم تبرىء نفسك قبل صدور الحكم ؟

الثاني : لقد اكتشفت هذه الحقيقة بعد صدوره .

الاول : (في شبه استعطاف) قل لي ما هي ؟

الثاني : لن أقول لك شيئا ، حينما يحضر لنا السجان العشـــاء ، سأطلب منه أن يخبر المأمور بأنني أريده .

الاول : اذا كنت كما تقول تملك الدليل ، فلم لا تشركني معك ؟

الثاني : لانك قد اعتبرت الموضوع منتهيا ، ثم انك لا تريد انتعيش.

الاول : هل صدقت كلامي ؟

الثاني : ألم تقل ذلك أمس ، وأنت تتأمل السماء ؟

الاول : حقا قلت ذلك، ولكني لم أكن أعنيه ، انها حجة انسان عاجز.

الثاني : اذن لقد اعترفت بأنك عاجز

الاول : وأنت ألست عاجزا ؟

الثاني : كلا انني ألعب رياضة ، ثم انني غير يائس.

الاول : انك تتكلم بثقة غريبة ، قل لي ما هي تلك الحقيقة التي اكتشفتها ؟

الثاني : (منفجرا في الضحك) يا لك من أبله ، أصدقت ما أقول؟

الاول : (مدهوشا) ماذا ؟

الثاني : انني فقط أريد أن أتكلم .

الاول : ألم تجد حديثا غير هذا ، من الافضل أن تصمت ، فانا لا اريد ان اثرثر.

الثاني : ليس ما نقوله ثرثرة .

الاول : اذا لم يكن ثرثرة ، فما هو اذن ؟

الثاني : انما هو حديث ، حديث بين اثنين حكم عليهما بالاعدام، وأي كلام ينطقان به ، لا بد أن يكون له معنى

الاول : (ساخرا) وأي معنى فيما قلت ؟

الثاني : ليس من الضروري أن نكتشف أو نعرف المعنى ، انهموجود وهذا يكفي .

الاول : لم لا تجلس بجانبي وتتأمل السماء ؟

الثاني : أتأمل السماء !! ما الذي أفيده من تأملها ؟

الاول : أليست هي التي ستصعد اليها قريبا .

الثاني : أنا لا أحب أن أشغل نفسي بما هو آت ، انني أعيش في اللحظة التي أنا فيها .

الاول : تكذب على نفسك .

الثاني : أليس أفضل من أحلامك المفزعة ؟

الاول : اذا نظرت الى السماء ، من خلال هذه القضبان ، أمكنك أن تكتشف أشياء كثيرة ، كثيرة جدا ، ما كان لك أن تعرفها وأنتفيالخارج.

الثاني : لا تهذ .. أصمت أو نم .

الاول : (متابعا) في الخارج ، وأنت مشغول بالحياة مع الاخرين ، قلما ترفع بصرك الى السماء ، غالبا لا تثير فينا أي شيء ، ذلك إنها واسعة ولانهائية ، متكررة دائما ، واذا مرت سحابة ، بيضاء خفيفة ، أو سوداء مثقلة بالماء ، فنحن نعرف النتيجة ، انها هي هي منذ الافالسنين. (فترة صمت) وفي المساء ، حينما ترفع رأسك وترى النجوم ، حقا انها كثيرة وجميلة وبراقة ، ويمكن لجميع شعراء العالم أن ينظموا قصائد في جمالها وتألقها ، ولكن (فترة صمت) ما الذيأفدناه نحن من ذلك.. أنا وأنت وأمثالنا ؟!

الثاني : فلماذا تحدق فيها الان ؟

الاول : الامر في هذه الحالة مختلف تماما ، من الماضي ، أقصد حينما كنا احرارا ، كانت السماء تعتبر شيئا ثانويا بالنسبة لنا ، اما الان ، فليس امامي سواها .. حقا ان الجزء الذى اراه منها صغير ، وقلما الح فيه سحابة عابرة ، او نجمة مضيئة ، فهو لا اكثر من جزء ازرق مربع مقسم الى تسعة اقسام . في الحقيقة ، انه لايعطيني شيئا جديدا أو عجيبا ، وانما فقط يريح بصري .. ألا يكفي هذا كي يجعلني اديم النظر اليها ؟

الثاني : ((فى سخرية)) يبدو انك قد تحولت الى شاعر

الاول : كلا ، انني لم اقرأ شعرا فى حيانى ، وانما الذى يعنينى الان هو ان اتخلص من النظر الى تلك الحيطان السوداء التى تحيطنا، ان لونها الاسود الكئيب ، يكاد يقتلني (يضرب بقبضة يده على الحائط) انني انمنى لو استطعت ان احطمها .

الثاني : انني لا افهم شيئا مما تقول ، من الافضل ان تنام، فاعصابك تبدو مرهقة

الاول : لم اعد احس بشيء على الاطلاق ، وما فائدة ان انام،انني انعجل النهاية (فترة صمت) الا تعرف متى سنعدم ؟

الثاني : كلا

الاول : لم لا نسأل السجان عن الميعاد ؟

الثاني : انه لا يعرف ، فالميعاد لا يعرفه احد عادة سوى المأمور.

الاول : كم يوما مر علينا هنا ؟

الثاني : لا اعرف ؟

الاول : الا تستطيع ان تخمن ؟

الثاني : ربما ثلاثة او اربعة اشهر .

الاول : انني اتصور ان اعواما طوالا مرت علينا .

الثاني : لانك لا تحاول ان تفعل شيئا تتخلص به منالشعوربالوقت.

الاول : وماذا تريدني ان افعل ؟

الثاني : ان نلعب معا .

الاول : (يبدو شاردا) ربما يكون موعد اعدامنا غدا .

الثاني : (وكأنه يخاطب نفسه) غدا ربما يكون يوم الاعدام

الثاني : أتظن ذلك ؟

الاول : ذلك محتمل جدا

الثاني : ما الذى اوحى لك بهذه الفكرة ؟

الاول : مضى علينا وقت طويل، ولا اظنهم يحتملون اكثر من ذلك

الثاني : لماذا ؟

الاول : أتسيت اننا نكلفهم كل يوم اكلا فاخرا ؟

الثاني : هذه فكرة تافهة ، لا بد أن هناك اسبابا اخرى .

الاول : ما هي ؟

الثاني : لا ادرى تماما ، ولكن مسألة الاكل هذه مسألة لا قيمة لها.

الاول : لقد بدأت ابرم بالحياة هنا

الثاني : وأنا !! هل تظنني لم ابرم ؟

الاول : فأنت تفضل الموت ؟

الثاني : طالما انه النهاية الحتمية ، ولا امل فى شيء فلاباس من التعجيل حتى نتخلص مما نحن فيه

الاول : قد يحدث ما يغير مصيرنا

الثاني : انت الذي تقول هذا .. التغيير الوحيد الذى نأمله هو الموت .

الاول : (وهو شارد) هل رأيت مشنقة فى حياتك ؟

الثاني : كلا .

الاول : ترى ما هو شكلها ؟

الثاني : ليكن شكلها ما يكون ، العبرة ليست بالشكل

الاول : بها حبل .

الثاني : انه الجزء الاساسي فيها .

الاول :لو ان جميع الحبال من العالم تلفت

الثاني : ما هــذا الكلام الفارغ ؟
الاول : انهــا امنيــة .
الثاني : بعيدة التحقيــق
الاول : كل الامــاني بعيدة التحقيق
الثـــاني : كيف ؟
الاول : لم تتحقق لــي امنيةواحدة في حياتي
الثاني : مــا الذي كنت تتمنــاه ؟
الاول اشيــاء كثيــرة
الثاني : مــثل مــاذا ؟
الاول : لا اتذكر الان منها شيئا ، لقــد اصبحت بعيدة ، بعيــدة جــدا ، ولم يعــد لتذكرهــا اى قيمــة
الثاني : كنت اتمنى ان اكــون مصارعــا
الاول : وهل تجحت ؟
الثاني : ماذا تقول !؟ لقد صرت قاتــلا
الاول : لقد اعترفــت
الثاني : (بصوت خافت منكسا راسه) لم يعد الانكار يجدى
الاول : أتبكي ؟
الثاني : كــلا ، وانمــا دمعت عيناى فقط
الاول : أتريــد ان تنــام ؟
الثاني : (يرفع راسه ويهز كتفيه) ولماذا انام ؟
الاول : تستريــح
الثاني :يتمتم ؟
الاول : الذكرى
الثاني : (يلوح بيده) انظــر الى نافذتك ، انني فقط اريـــد ان اصمــت
الاول : بــدأ الظـــلام .
الثاني : منذ وقت ولم تشعــر به
الاول : حــان موعــد العشــاء
الثاني : أتشعر بالجــوع ؟
الاول : كــلا وانمــا تذكرت الميعاد فقط
الثاني : لم اعــد احس للاكــل بطعم
الاول : ولا أنــا ...
الثاني : ترى ما الذى سنأكله الليلــة ؟
الاول : فرخــة لكل منــا
الثاني : لم نكــن نحلم بها في الخارج
الاول : لم يعــد لهــا قيمــة
الثاني : ولا طعــم
الاول : كنت في الماضي أنام جائعا ، ولكني كنت سعيدا
الثاني : والان ؟
الاول : لا هذا ولا ذاك
الثاني : مــاذا تعني ؟
الاول : لا شيء .. مجــرد كــلام
الثاني : (يلتفت الى النافذة) انظر .
الاول : (يلتفت) مـــاذا ؟
الثاني : هــذه النجمــة
الاول : انني أراهــا كل ليلــة
الثاني : انهــا تلمــع
الاول : ككل النجــوم
الثاني : ولكنهــا اجمــل
الاول : لاننــا لا نرى سواهـــا
الثاني : في الخارج يمكــن ان نرى الكثيــر
الاول : ستضيع بيــن النجــوم
الثاني : ولكنها تلمــع
الاول : كل النجــوم تلمــع

الثاني : لم نلاحظ ذلك مــن قبل
الاول : ونحن أحرار ؟
الثاني : نعــم
الاول : لان السمــاء كانت عريضــة
الثاني : ماذا تعنــي ؟
الاول : شيء .. مجرد كــلام
(تسمع خطوات تقترب ، ممزوجة بدقات ساعة السجن البعيدة . ينصت الاثنان . يظهر السجان خلف قضبان الباب ، يفتحه ، ثم يدخل حاملا صينية عليهــا طعام فاخر ، يضعها على مائدةمنخفضــة بينهمـــا .)
السجان : مساء الخيــر
الثاني : مســاء الخيــر
السجان : (وقد وضع الصينية ، يتلفت لهما) مالكما ؟
الثاني : لا شــيء
السجان : (للاول) وأنت ، لمــاذا لا تتكلم ؟
الاول : مساء الخيــر
السجان : لقــد احضرت لكمــا اليوم طعامــا ممتازا
الثاني : نحن نشكرك على هذا الاهتمـــام
السجان : الفضل للمأمــور
الثاني : اشكره نيابة عنــا
السجان : (للاول) مالــك ؟ هيــا اقدم على الطعام ، لو انتـــي مكانــك لمــا توانيت لحظــة
الاول : (للسجان)كم الساعــة الان ؟
السجان : (يضحك) لمــاذا تسأل عن الساعــة ؟ هل وراءك ميعاد !!
الاول : (وكأنه لم يسمع كلام السجان) كم الساعة الان ؟
السجــان : الم تسمعها ؟! الثــامنــة
الثاني : (وهو يتامل اصناف الطعام) ما كل هذا الطعام ؟
السجان : تلك هي الاوامــر
الثاني : هل تعلم متــى ؟
السجان : عــن اى شــيء تسأل ؟
الثاني : الا تفهــم !
السجان : كــلا
الثاني : لا تكن خبيثا ، قل ولا تخف
السجان : انني لا افهم ، مــاذا تريــد ؟
الاول : أتتغابــى ؟
الثاني : يبدو ان ذلك سيكون غــدا
السجان : انــا لا افهم شيئــا
الاول : ليكن ، نحــن لا نخاف ، ثم ان تلك هي النهايــة
السجان : (ينقل بصره بينهما) تقصدان ..؟
الثــاني : نعــم
الثاني : نعــم
السجــان : (وهو يتراجع) لا أظـــن
الاول : ولماذا لا تظــن ؟
السجان : اننــا عادة ، نعلم قبلهــا باسبوع على الاقل
الاول : وكيف تعــرف ؟
السجان : تلــك هي اســرار المهنــة
الثاني : وهل في مهنتكم اســرار ؟
السجان : كلهـــا اســرار
الاول : لمــاذا تخفى عنــا ؟ اننا نعلم كل شيء ، ثم ان ذلك لا يغير مــن الحقيقــة شيئــا
السجان : صدقوني ، انــي لا اعلم شيئــا
الاول : سواء قلت او لم تقل ، فنحــن على استعداد دائمــا
السجان : (يشير الى الصينية) لماذا لا تأكلان ؟! هيا ، هـــل تطلبــان شيئــا اخــر ؟

الثاني : كـلا .. شكـراً
الاول : شكـرا
(يغادر السجان الزنزانة . تمضي فترة صمت)
الثاني : كـان لطيفـا اليـوم
الاول : نعم كان لطيفـا
الثاني : لا بـد انـه اليـوم الاخيـر
الاول : يخيـل الي ذلـك
الثاني : (يشير الى الصينية) ألـن تاكل ؟
الاول : كـلا .. لا اشعر برغبة
الثاني : ولا أنـا
الاول : ومـا فائـدة ان ناكل ، اذا كنـا ..
الثاني : (في سخرية) يتصورون اننا نشعر بالجوع
الاول : حقـا منذ ان جئنـا الى هنـا ، ونحن لا نحس لشيء طعما
الثاني : ألم تسمع من قبل عن احد تم اعدامه ؟
الاول : سمعت طبعـا
الثاني : قل ماذا سمعت ؟
الاول : نسيـت
الثاني : كيف ! الا تتذكـر شيئا على الاطـلاق ؟
الاول : اننـي لا احس براسي
الثاني : ما هذا الكلام ،هل انت خائف ؟
الاول : يتمتـم ؟
الثاني : مـن اى شيء
الاول : لم اعـد استطيع التفكيـر
الثاني : (يهم بالقيـام ولكنه لا يفعل) اذن هيا نلعب
الاول : وما فائـدة ذلـك ؟
الثانـي : ان ننسـى
الاول : انني احسـدك
الثاني : ما دامت لا توجد ايـة فائدة ، فلـم لا ناكل مثـلا ؟
الاول : كل انـت اذا اردت
الثاني : (متعجبا) آكل وحدي !
الاول : لـم لا ؟
الثاني : كل معي ، يفتح كل منا شهية الاخر
الاول : أسكت ..
الثاني : ولماذا اسكـت ؟
الاول : ولماذا تتكلـم ؟
الثاني : هل تستطيع أن تقول لي عن شيء اخر نفعله ؟
الاول : في الواقع ، انني لا اتصور كيف سيتم ذلـك
الثاني : ببساطـة يحسدنـا عليها الاخرون

الاول : انت لا تهتم بشيء يستحق الاهتمـام .. (ثم ببساطـة متكلفـة) ، قبل الميعاد المحـدد بنصف ساعـة تقريبا ، سيفتح هـذا البـاب ، وسيظهـر لنـا مأمور السجن . ومن الطبيعي انه سيبتسم ، يريد ان يخدعنـا ، ثم ينادى على احدنـا ، (متذكرا) ترى من سيكون الاول ؟
الاول : أنـا بالطبع ، رقمي اقل من رقمك
الثاني : لم لا يكـون العكس ؟
الاول : هذا محتمـل ايضـا

الثاني : (متابعا) على ان المأمور سيكذب في هذه اللحظة ، لا بد ان يقـول شيئـا جميـلا ، مثل : جاءك زوار ، او ان هنـاك امـلا فـي العفـو عنـك ، او اى شيء مـن هذا القبيل . ثم فجاة ، في منتصف الطريق ، سيظهر شيخ عليه علامات الوقار ، ويصحبني الى الغرفـة، ويطلب مني ان اسأل الله الغفـران
الاول : هل ستطلب الغفران ؟
الثاني : لم اسأل نفسي هذا السؤال ، هل ستطلب أنت ؟
الاول : لا ادري

الثاني : علينـا مـن الان ان نستعـد
الاول : كيف ؟
الثاني : ان نصلـي
الاول : وهل تنفـع صلاتنـا الان ؟
الثاني : ان الله يتقبل الصلاة في أي وقت
الاول : أنسيت اننا مـن القتلة ؟
الثانـي : كلنـا يخطىء .. من من الناس بلا خطيئـة ؟
الاول : ولكن الضحيـة لم تصل
الثاني : فلنصل من اجلهـا
الاول : انت تخدع نفسك ،وتريـد ان تخدعني كذلـك
الثاني : هل هذا وقت الخديعـة !!
الاول : اذن فلم لم تصل مـن قبل ؟
الثاني : متـى ؟
الاول : منذ ان حكم علينـا
الثاني : (في ضيق) لماذا تفكر بهذه الطريقة ؟
الاول : انـي اسألك فقط
الثاني لم افكـر في ذلك الا الان
الاول : يستحسن ان تنـام
الثاني : لا أشعر برغبة في النوم
الاول : حـاول
الثاني : ان رأسي بدأ يؤلمنـي
الاول : من كثرة الكلام
الثاني : وأنت ، هل رأسك يؤلمك ؟
الاول : اننـي لا أشعر به على الاطـلاق
الثاني : فلتنم أنت ايضـا

الاول : (بشرود) ليتني استطيع ،كلمـا حاولت النوم ، احسست بشيء غريب يتحرك في نفسي ، انني الان أحس بكل شيء ، وأرى كل شيء ، واستطيع ان المس كل شيء . ارفع يدي وأنـا اريـد انارفعها، واخفضهـا حين اشاء . استطيع ان اضم اصابعي وافردهـا . أن ارفع صوتـي بالبكـاء او الغنـاء ، بالضحك او الكلام . اجلس ، اقف ،انام. (فتـرة صمت) ولكـن ذلـك النوم الغريب ، ذلك النوم الثقيل ، ترى مـا هـو ؟ في الخارج كنت اسخـر مـن ذلك الانسان الذي لا يفكـر الا في المـوت ، وهـا أنـا الان ، لا افكـر الا في ذلـك

الثاني : (ساخرا) لهذا راسـك يؤلمـك
الاول : مـاذا ؟
الثاني : الا تعرف مـا هو المـوت ؟!
الاول : وانت .. هل تعرفـه ؟
الثاني : من منـا لا يعرفـه !
الاول : لم يعرفه بعـد احد
الثاني سنعرف ما هـو بعـد حيـن
الاول : حقا ، لم العجلة ، كل شيء آت بأسرع ممـا نظـن
الثاني : (مشيرا الى الطعام) لم يأت السجان ليأخذ الاطباق الفارغة
الاول : وهـل فرغت الاطبـاق !
الثاني : ومن ايـن له ان يعلـم ؟
الاول : لاحظ ما نحـن عليه ، فآثر ان يتأخر الليلـة
الثاني : يالـه من ذكي !
الاول المسألة لا تحتاج الى ذكاء ، كل شيء يعلمه بالتجربة
الثاني : ترى كم من ألسنين مضت عليه هنـا ؟
الاول : لا اقل من عشريـن عامـا ، الم تر شاربه الابيض ؟
الثاني : انـه سجيـن مثلنـا
الاول : ومحكوم عليه بالاعـدام
الثاني : تـرى هل هـو سعيـد ؟
الاول : السعادة شيء صعب المنـال

الثاني : اذن فهو شقي
الاول : ليس من الضروري ان يكون كذلك ، فلا اظنه يفكر في شيء من هذا ، فهو يعيش فقط
الثاني : الا يشعر بالضيق من هذا المكان ؟
الاول : وحتى اذا كان يشعر ، ما الذي يستطيع ان يفعله؟
الثاني : اى عمل
الاول : يبدو انه لا يحسن عملا اخر
الثاني : وهل تسمى ذلك عملا ؟
الاول : ما دامت الدولة محتاجة اليه ، فهو عمل اذن !
الثاني : انه عمل كئيب ، لو عرض علي لما قبلته
الاول : لماذا ؟
الثاني : انني لا اطيق عملا كهذا
الاول : من يدري ، ربما الظروف هي التي اجبرته على ذلك !
الثاني : دائما تتهم الظروف
الاول : اذا لم تكن الظروف ، فاى شيء اتي بنا الى هنا ؟
الثاني : هذا موضوع اخر
الاول : كلا انه نفس الموضوع
الثاني : فلنحاول اذن ان نسأله حينما يأتي ، عن سبب مجيئه الى هنا
الاول : وما الذى يعنينا من ذلك ؟
الثاني : الا تريد ان تعرف السبب ؟
الاول : (ينزلق بجسمه على الارض ، ولا يبقى مرتكزا على الحائط سوى راسه) ليس لذلك اية اهمية بالنسبة لنا
الثاني : انك تبدو منهارا
الاول : (يهم بحمله) أنا ! انا منهار ، ولأي شيء أنهار ؟!
الثاني : لاننا سنعدم قريبا
الاول : أرجوك .. اترك هذا الموضوع
الثاني : أضايقك كلامي ؟
الاول : انك تتكلم عن اشياء منتهية ، والكلام لا يعنى شيئا الان.
الثاني : اذن فاتت تفضل لو ان كلا منا بقي في زنزانته بمفرده؟
الاول : ليس كذلك بالضبط ، انني فقط اريدك ان تغيرالحديث
الثاني : الم تكلمني عن الموت ؟
الاول : الموت شيء عادي وطبيعي ، اما أنت فتتكلم عن الاعدام .
الثاني : ولكن الن يحدث ذلك لنا فى ساعة ما ؟
الاول : فعلا ، ولكن لا ضرورة للحديث عن ذلك
الثاني : اذن فسأطلب في الغد ان اعود الى زنزانتي
الاول : لماذا ؟
الثاني : لانك برمت بحديثي
الاول : لم ابرم تماما ، وانما اطلب منك ان تبحث لنا عن حديث بهيج ، يسري عنا
الثاني : اذن هيا نلعب
الاول : اليس لديك سوى اللعب ؟
الثاني : وانت هل لديك شيء اخر ؟
الاول : (يحول بصره الى النافذة) غابت النجمة عن النافذة
الثاني : اوشك الفجر ، ولم يعد السجان
الاول : لا شك اننا سنعدم غدا
الثاني : ها انت تتكلم عن الاعدام لا الموت
الاول : لم يعد هناك مفر
الثاني : (برما) ما هذا الصمت ، اننا لا نسمع حتى صوت حراس الليل
الاول : اخذتهم اغفاءة السحر
الثاني : فرصة للهرب
الاول : (ساخرا) من هنا ؟
الثاني : كلا
الاول : مم اذن ؟
الثاني : من الحياة ، الحياة كلها
الاول : تريد ان تنتحر ؟
الثاني : لو استطعت
الاول : لم العجلة ، غدا في الصباح سينتهي كل شيء
الثاني : هل اخبرك احد بذلك ؟
الاول : (مستغربا) من تراه يخبرني !! انني مثلك
الثاني : انني لا اعلم
الاول : وانا كذلك لا اعلم شيئا
الثاني : (صوته يخفت) بدأت اشعر بالخوف
الاول : لا تكن جبانا
الثاني : لو لم نقتل .
الاول : ما فائدة الندم
الثاني : الا تصلي معي
الاول : كلا انني لن اصلي
الثاني : لماذا ؟
الاول : لانني لا اريد
الثاني : ستحملنا الصلاة على التحمل
الاول : انني اعرف مصيري تماما
الثاني : (وهو يتحرك تجاه النافذة ، وقد رفع بصره اليها)كفاكغرورا
الاول : هل تسمى ذلك غرورا ؟.. انني أعلم ما الذى سيحدث بعد لحظات (تبدأ دقات الساعة) ستتوالى دقات الساعة ، ومعها يرفع العلم الاسود ، وبين طابور من الجنود سيقاد كل منا الى مصيره: سنرقى الى المشنقة ، ثم تربط ايدينا من خلف ، ويقترب الشيخ ليوصينا بأنفسنا ، (بسخرية) وكاننا نبدأ من جديد ، ثم تسدل على عيوننا غمامة سوداء ... وعندئذ .. وعندئذ فقط (يفتح الباب ويظهر المأمور وبعض الجنود) نطلب ان يكون الاعدام متقنا ، حتى لا يعاد ثانية وتتكرر نفس المأساة . تلك هي الحياة قد انتهت ، واصبح كل شيء عدما.

يقوم متحاملا ، ويغادر الغرفة ، الجنود والمأمور صامتون ، الثاني ما يزال يرنو الى السماء من خلال النافذة ، حين يلتفت يكون الاول قد اختفى تماما ، واعيد اغلاق الباب ، في اثناء ذلك يكون الستار قد اسدل .

القاهرة — مصطفى ابو النصر

موقف عصرنا

بقلم جميل كاظم المناف

الجذور الرئيسية في موقف عصرنا هي المشكلات التي لا تجد غير الحلول العقائدية الاجبارية التي تقيم نفسها في اللحظة الحضارية شيئا حتميا لا محيد عنه . يمثلها في الغرب الاوروبي الفلسفة النفعية الرأسمالية والشرق الكوميسياري الفلسفة الماركسية . انها ترى العالم وحدها بدون رقيب وتفرض على الاشياء صفات جاهزة تسعى للتغلغل في جميع الحقائق وشبه الحقائق حتى ليبدو الانسان اكثر اختباء وضآلة خلف واجهات سياسية عريضة لا تحكل برأيه وفكره وذاته بالاضافة الى اسلوب الحياة الرتيب الباهت الذي يجعل الواقع هائلا لا يتزحزح ولا يريد ان يتحرك بارادة خيرة الا من الزوايا الحادة التي تقع فيها الثورات فتحيل العتمة نورا ينبلج كانبلاج الصبح.

عصرنا لا يعرف الليونة لا يعرف الاشياء المجزأة ، لا يلمس الامور الا ليعلبها طبقا لمشيئة المصالح الاقتصادية او المصالح العقائدية القسرية . انه معرض الحقائق الزائفة التي تتجاوز عمدا جميع الحدود كي تهمل الاختيار وتدفن الحرية وتجرد الكائن البشري من قوته الحقيقية : الارادة ، أليست هذه مأساتنا ؟.. أوليس هذا العالم المضطرب الذي يجردنا من عناصر الخير والرحمة الانسانية هو نتيجة مباشرة للآلية التي سيطرت على جميع قوى البشر وجعلت القيم تضمحل ونموت بعيدا . بعيدا عن الهدوء والثقة والطمأنينة ؟ أولم تكن مكتسباتنا العقلية هي القيود التي كبلنا أنفسنا فيها ؟

ولكن هل معنى ذلك أن نظل في الغيبية نعيش في الضباب والاوهام ملتصقين بالمطلق الكلي الذي يصمم لنا القضاء والقدر ؟.. وهل معنى ذلك ان ننبذ كل ما حققنا من مكتسبات ومخترعات وعلوم آلية .

لقد آن لنا ان نفهم ان الجذر الرئيسي في المأساة هو الانسان ذاته . الانسان الذي يبدو اكثر ابتذالا ووحشية في واقعه الحاضر الذي ياوك الزيف ويعيش القهر والارهاب والكبت والتسيب في مشاريعه الوجودية المنفتحة على التاريخ الذي يعمل جاهدا لقولبتنا وتعليبنا داخل منهجيات ميكانيكية ومعتقدات مطلقة تفغر فاها كالافعى التي تحاول ابتلاع كل شيء . ومن هنا تبدأ قضية اللاقيمة في موقف عصرنا . والقيمة الضائعة التي لا تكاد توجد في مأساة الانسان المعاصر المتمثل ضياعها بالقدر الرأسمالي والماركسي في آن واحد .

اننا اليوم لا نستطيع مجابهة وجودنا لاننا نعي وندرك ان المواجهة لا تعمل اي شيء ما عدا ابتلاع بقايا الهدوء المترسب في أعماقنا . ان دفعنا الثوري يجرفنا في طريق الضياع الذي يلف في تياره جميع الاجناس من شتى القوميات والثقافات ، ولا حقيقة تصمد ، وحركة تومىء ، ولا غضبة ترتسم على سحنة الحضارة الباهتة جموح الانسان الذي يحرك جذوره المجتثة في الفراغ !! في الارض التي انقلب ترابها فولاذا يطوي نفسه القاسية على الدم في ظلمة موحشة كالحة معتمة.. انها لعنة الضياع وسبة الوجود اللامبرد الذي مني بالتقهقر ، وعلى العقل الذي يخدع نفسه منذ أن ادرك الاشياء المحيطة به في القرون السحيقة فحاول ان يؤمن بالقوى المهيمنة على الوجود – كما تصوره – وحاول ان يمزق ذلك التصور بعد قرون ثم ثار على كل شيء واضطر ان يجاهد لاستعادة شخصيته ولكن بعد فوات الاوان ..

تلك هي المأساة في واقعنا الذي يتفجر في تشنجات دقيقة تصيب الناس بالامراض النفسية الحادة وتجعلهم ساديين امام القدر الفردي البورجوازي او الحشدي الجماعي او بلداء وعصابيين .

ان حركات متشنجة كهذه تتمذهب للانسان الذي لم يجد لغة غير لغة الامراض النفسية يعبر بها عن واقعه وحياته الكالحة ووعيه الضرير . وازاء ذلك راحت سلالة هابيل تزداد ضراوة لتطوق الحياة المنفية بأسلاك شائكة تملأ الفضاء ، تزرع العار في صلب الوجود : القنبلة الذرية – الهيدروجينية . تريد ان تؤكد لنا ان ذاتنا تعاني الام المخاض الذي ستكون نتيجته شيطانا يعيش في ارض الجحيم .. ويتابع الواقع خطاه فيبدو ان الضياع يتلاءم كل الملاءمة مع اهداف الايديولوجيات التي تتوسط الزمن كمسرح للرعب والقلق ، للسأم للضجر للبكاء على الانسان والحياة والمواقف المفجعة .

هذا هو الاساس الحضاري للمأساة . قدر الجماعية التي تئد الحرية وتنتج انسانا ليست له اية حقوق ذاتية تجعله يختار ويمارس الالتزام بعد ان يعي الاشياء بعيدا عن القهر والارهاب والتربية المقولبة التي تدفع الى الوجود مخلوقات يسيرون خلف بعضهم كما يسير النمل الذي يعرف واجباته كشيء بيولوجي .

وقدر الفردية الرأسمالية التي أفنت الثقة وابرزت القلق النابض بالنرفزة والغثيان والعصابية والنهيلستية ، وجعلت الانسان ضحية للمقولات الهزيلة والديموقراطية القناع الذي يغطي الاشياء والافكار بمواضعات زائفة لا تتعدى لغة : الانتخابات والسياسة والارباح الفائضة وفلسفة – دعه يعمل – .

اما المتعبون ازاء هذا الموقف فهم اما في صمت كصمت ابي الهول واما في سخرية ضاحكة واما وجوديون يحاولون ان يبرروا الحياة ، ولكن لا جدوى فالعالم كله أثقال . ومع ذلك فخاصة الموقف الراهن ان يخلق معنى للوجود ، واذا ما أدركنا ان الانسان المعاصر لا يستطيع ان يجدد وجوده ويثور بسبب تلوث وعيه بالاشكال العقائدية الجاهزة التي مارسها في الواقع بعد ان التزمها على مضض فان النية السيئة تحد من استشعار الانسان لوضعه كانسان ولهذا فان صعوبة اتخاذ موقف واع يكون في حالة غير منقطعة عن التصور النفسي للذات الانسانية تدفع الانسان الى وعي ذاته ككائن يخلق الاشياء ويبعثها ويجددها في كل لحظة لا ككائن جامد وضع في مجتمع ما فاعترف به الناس كما هو بورجوازيا كان ام كادحا . ان الصعوبة تكمن في الواقع الحاضر بالذات الذي جعل الناس يؤكدون شخصياتهم عن طريق السلطان الاجتماعي او السياسي او الايديولوجي الذي يلتزمونه لانهم وجدوه مصنوعا جاهزا . وتلك قضايا تقلب الحقائق وتعلبها وتدفع الانسان الى الضياع الذي يجعله عاجزا عن اعطاء شيء .

وباختصار ان النسبية تقوقع جميع التساؤلات وتجمد التناقضات في اللحظة الحاضرة بلا نقاش او نقد ، لذلك اصبح حلم الانسان ان يكون معنى الوجود : التحجر والتجمد في الزمان الراهن الذي يقذف بنا في قضايا اصطنعناها لانفسنا كي نغيب عن هذا الوجود الانساني المعذب الذي يسحق فينا الانسان ويميت فينا الاخوة والمحبة والرحمة والعطف والبراءة .

ان وجودنا يطفو فوق الاحداث ويعانق التناقضات الحضارية والكونية التي تمزقنا وتقودنا الى عري اعمالنا المصطنعة في كل ما يرافق اعمالنا المرئية من رتابة وبلادة وصميمية لا نفقه كنهها ، لانها من صنع هذاالعالم الذي لا اساس له الا المشاكل والتساؤلات . وهذا يعني اننا بحاجة الى شيء ما نعلن فيه رغبتنا في اعطاء معنى لوعينا وذاتنا بيد ان المجال غير موجود ، ولذا فالتمزق الداخلي يزداد رهافة وتوترا

وينتج من جراء ذلك ابطالا اما ساديون او ماساشيون وقد يلجأ البعض الى الله . وتلك مهمة فريدة تنزع الى تعرية الانسان ليعيش بوعيه كي يراقب العالم الذي ينحط ويتدنى يوما بعد يوم ، ولهذا فالانسان الحاضر غالبا ما يمثل دور معتوه او ابله او ضاحك او متناقض او ساخر يتحد بنفسه او يمزقها . ويقيم في وعيه بدون انقطاع باستثناء الحالات التي ترتد فيها الذات الى براءتها واخلاصها وانسانيتها بعيدا عن مواضعات ومغريات وألقاب وعادات الواقع .

ان الشيء المهم ان يرى الانسان نفسه ، ان يظهر على حقيقته ، ان يكون هو من أجل ان يعي وجوده ، ان يرى الاخرين بدون مغريات وأكاذيب ومقاييس بيئوية واجتماعية ، ان يتجرد كي ينظر الى داخله الذي يكمن فيه الانسان الذي عاش البراءة منذ آلاف السنين . ومن هنا منشأ قلقنا الذي يرفض افكار الهيئات والمؤسسات والبيئة التي ننتمي اليها لان عالمنا يقوم على الزيف والرفض معناه تعرية الزيف وفضحه بعد عرضه على الناس الذين يمثلون المهزلة بدون مقدمات او شروط .

ولكن ماذا يعني الرفض وحياتنا الفامضة تفتش عن أثقال تقيد فيها الوعي الثوري الذي يرفض الحلقة المفرغة التي تدور فيها قوانين الدنيا الحديثة ؟ لقد كبلنا الواقع بالطبقية والمكانة الاجتماعية وجعلنا تحت ضغوط نفسية لا تحتمل ، انه في كل لحظة يخدر وعينا ويلزمنا أفعالا مبتذلة ودنيئة كي نضمن وجودنا وكي نرضي نزعات التطلع الطبقي ، وبدون شك أن العلاقات الاجتماعية تجعل الرفض عملية موؤودة مسبقا لان ضنك العيش وسيكولوجيا الواقع الحديث تدفعان انساننا الثوري الحساس الى القلق واللارفض اكثر فاكثر . وهكذا يكون التمرد عبث الحياة يجهد فيه الفرد الى الخلاص من حمأة الحقائق النسبية التي تسحقه سحقا . ولكن لا مجال لاصدار حكم على القضايا فالعالم كله مدان . وهكذا تكون ممارستنا للعبث سلوكا يجعل الاخرين في ظروف استثنائية تدفعهم الى استكناه عاداتهم وافكارهم والتزاماتهم الواقعية الآلية ، وان كيانهم المصطنع انما هو مهزلة المهازل البشرية التي تطبع الاشياء بطابعها المرسوم والمستنفد كل قواه في الزيف الذي هو غالبا ما يكون لعبة اجتماعية غاية في الرفعة والدقة كما يتصوره الناس . وهذا العبث يمثل تصرفا انسانيا يدخل الناس الذين يتسلون بالاكاذيب المحبوكة التي تبدو مخلصة وصادقة وحقيقية ويتعاملون بالملق الديماكوكي التضليلي الذي يبدو شيئا اخلاقيا مبدعا ، يدخلهم الى حقيقتهم العميقة الرابضة خلف ألقابهم وعاداتهم ومهنهم ويجعلهم يفرغون وجودهم في الوجود العدمي ويعرفون الواقع بصورة أعرى وأصدق وأكثف كيما يفجروا الغلاف الذي يشد شخصياتهم اللزجة في الوقائع المتهرئة والمشاريع التي تسرق الوعي وتئد الجهد الذي يبذله الانسان لفهم مواضعات الحضارة ومأساتها التي تتجاهل الانسان الانساني الذي يود العودة الى براءته الاولى .

فالقضية ، اذن ، تتلخص في ان يكون الانسان امام الاخرين صورة صادقة للزيف وامام نفسه صورة صادقة للبراءة والاخلاص والحب والحنان ، وذلك مسلك لا يقبل الانقياد للعادات والمواضعات الاجتماعية كي يعريها في أعماقه أولا وامام الناس ثانيا ولذا فالانسان المخلص للوجود وللحقيقة الانسانية وللخلاص والبراءة يمارس في عفوية تلقائية عبث الحياة الواقعية المعاصرة كما يمارس اخلاقيته الصادقة بوعي كبير لا يستجيب للمفاهيم العامة لانه يرفض الانصياع لها . وتلك مسؤولية مخلصة وحقيقة امام النفس التي تستشعر الانسان البريء بدون انقطاع . الانسان الذي يربض في الاعماق الذاتية التي ترى الحقائق من زواياها الحادة التي اصبحت في واقعنا الحضاري الحديث كالدائرة المغلقة التي هي اكثر ابتذالا واغاظة من القرف والبشاعة . ولكن النفس الحساسة محدودة التحمل والمقاومة كما ان الناس يختلفون في مواقفهم ازاء الاحداث والخطوب ولذا فمن البديهي ان تتجدد الذات في كل مناسبة وحدث خشية ان تقع في المواقف الفاجعة مستسلمة بدون مقاومة .

ان تجددا ينفجر في لحظة تأمل وجودية تومض في عتمة هذا العالم الغامض لتنير الدروب وتثور على الالية والتملصية والانغمام الاجتماعي الذي يجعل الافراد يتنازلون عن حريتهم مقابل ضمانات العيش التي يقدمها لهم وتحفز القوى الانسانية على تبني العفوية الداخلية التي تتبنى الاشياء بعد طرح القوالب والمفاهيم والمقاييس التي فرضها المجتمع كاصطلاحات مألوفة وعادية ، ان تجددا كهذا ان وجد يدحر القهر والاعتساف . بيد ان الموقف الحضاري مرهف ابدا بسبب آليته الامرة وتناقضاته التي تمزق الفرد الذي تتنابه الحرارة والبرودة والنور والظلمة والسرعة والرتابة والفاعلية والسكونية كأداة تتكيف باستمرار مع الواقع ، بيد ان تكيفها مصطنع ، ولذا فهي تفسد كل أصيل ثمين .

ان واقعنا البارد الغريب الغامض القلق يجعل انساننا المعاصر الذي يتفحص التجربة ويعيش اللحظة الحضارية وعالم اللاقيم انسانا يتشنج فكريا ويبتعد اكثر من موقف الرفض . الى العدم ، الى الاباحية التي تستمرىء كل شيء وتكون مشروعية جميع الاشياء مستساغة لديه . بل هي المنفذ الوحيد في طريق العقل المسدود ، العقل الذي يحاول الاحتفاظ بالمنطق كي يخدر فينا الاحساس ويبعدنا عن الغثيان والاشمئزاز والضجر ، ولذا فلا مشاريع للمستقبل لدى هذا الانسان الذي يعيش حاضره بطريقة خائبة لان كل شيء يقودنا الى اللاحقيقة كما ان كل الطرق تقودنا الى اللامكان ! ولذلك فالضرورة تقتضي الى العدمية الى البراءة ، الى الاخلاص لان كل ما تبقى لنا من مجهودات أجدادنا الحضارية ومجهوداتنا العملية والعلمية غير حقيقي بيد انه يجب ان ندرك ان العدمية ليست البيولوجيا او انخفاض الانسان الى أسفل كما يدركها — النهيلست — بل طريقة للمقاومة والمواجهة والعمل . فالعدمية فكاك من جميع الاغلال التي تكبلنا بها وقائع المجتمع ودعوة الى التزام الحرية التي تضع حياتنا في ارادتنا التي تبحث عن حقيقتها الضائعة في المواضعات والمقاييس والافكار الجاهزة وهي طريقة وتصريح بالوحدة التي هي سبب الرعب الذي يسيطر علينا . وتصريح بتجديد حالتنا العقلية من خلال التجارب والبلوغ بها حد العفوية والتلقائية والوضوح الداخلي .

ان واقعنا هو مكان اللااكتراث واللابطولي والشيء الوحيد الاصيل الذي يفعله الانسان ازاء ذلك ان يرفض ويعيش حاضره حاملا عبء مشكلاته ، يخوض غمار الجو الخانق الذي يقذف المأساة الحضارية بالاخلاص الذي يتحداها بكل ما في التحديات من قوة . وتلك طريقة تجعلنا مصيبين في اتخاذ موقف تعرية الواقع الذي ينهمك في احتضان كل ما هو هجين وشيطاني باستمرار ، ذلك ان فكرة الرفض شيء ثوري يبحث عن بطولة وانسان بينما تطالبنا الالتزامات الواقعية بوضعية تغطية الواقع . وهنا لا بد من التزام ، لا بد من عمل يواجه اللاشيء في القيم كما يواجه مقاييسها ومعاييرها وافكارها التي خلفتها الظروف والاوضاع . واللحظة الفاعلة في المواجهة والمقاومة هي تدمير القيم الحاضرة والتآمر بها في كل لحظة وسلوك وحركة . في التفكير والموقف . في الاتصال بالآخرين لاننا اذا انتظرنا بلا اكتراث توقع انتحار العالم فاننا نساهم في مسألة دموية عنيفة اما اذا اعتقدنا بامكان تحقيق البراءة لدى الانسان عن طريق اتخاذ موقف — بلادة — ممعن في السلبية واللاعمل فان ذلك يقودنا الى الموت والغرق في مستنقعات المصاعب والمشكلات التي لا تجد حلا لها الا في المطلقات الماركسية أو التجريبية . ان اول ما نجده في موقف التدمير هو الشجاعة ، الشيء الوحيد الذي يشعرنا بقيمتنا ، الشيء الوحيد الذي يجعلنا نقف على أقدامنا حتى ولو كان الجميع يركعون للعادات التي تضمن لهم العيش والتلاؤم الذي تتلاشى فيه شخصياتهم وارادتهم وداخلهم الانساني . والامانة والحب والبراءة والاخلاص صفات طبيعية في الشجاعة والبطولة كما ان السلوك الناضج الذي يجعل الاخلاق سمة وميزة عابثة تدفع الناس الى استشعار قضاياهم التي تلوح وكأنها ضباب اللاحقيقة التي لم تفعل سوى الزيف ولم تؤد الى

ايجاد موقف ايجابي يرتكز على الحرية والارادة التي تقف صامدة امام عنف اللحظة والموقف الحضاري الراهن بدافع من الحافز الحقيقي على خلق شيءيتصل بالمعنى الاصيل في هذه الحياة .

وهكذا فان مشكلة التدمير والرفض هي ذاتها مشكلة البناء الذي يحاول أن يجد واقعا يشيد عليه صرح الحرية الانسانية التي هي حالة مربكة بقدر ما هي حالة غريبة ومرعبة لانها عبء ميتافيزيكي متطرف ووضعية تؤدي بنا الى اللاحقيقي في وجودنا في الوقت الذي نبحث فيه عن معنى الوجود .

ان البناء يستند على اليقين والحقيقة الوجودية وعليه فانالحرية لا تدرك مداها وموقفها الفكري والواقعي اذا لم تعتمد على الوضوح اليقيني الحقيقي وتتكىء على مبررات معقولة محدودة وواضحة ولذا فالوعي اذا لم يكن مرتكز الحقيقة فان الادراك اليقيني يفقد حقيقته ويفقد وضوحه وموقفه الفكري ، ومن جراء ذلك يصعب البحث عن منال يستحق التضحية لان الجمود يرافق الموقف منذ البداية التي تفرض اللاتحدد قبل البدء في البحث الجدي عن وجود يتحرر من المحيط المباشر ليرتمي في الحقيقة الكائنة في الشيء الذي يعبر عن العمق والاصالة والوجود .. ويجدر بنا ونحن نعيش في زمن القنبلة الهدروجينية الذرية ان نعرف ان وجودنا الكريه يدفعنا الى البحث عن قيمة بوجه الرعب والانفاق البورجوازي والمادية الماركسية والحرية هي تلك القيمه . الحرية التي لا تمثل بالنسبة لنا خلاصا من اللحظة الحاضرة بقدر ما تمثل قيمة اخيرة لاعادة الانسان المعاصر لواقعه الذي يفر منه . واذا ما أقلقتنا ميكانيكية الحضارة ومقاييسها وافكارها النسبية المتعارضة فان ذلك القلق الذي يقف بيننا وبين الحرية كالحاجز الكؤود يجب ان يهدينا الى اللاجدوى فيالمقاومة التي تتموضع مع الاشياء الواقعية المفروضة دون ان تعي مكان العطب . ان الانسان سوف يتقدم الى الامام على جثث الضحايا من ابناء جنسه الذين يدفعون ضريبة اللامعنى في هذا الوجود العابث وقبل ان نلوم اللحظة الحضارية المرعبة التي نعاصرها يجب ان ندرك ان موقف عصرنا يقتضي المبادرة والعمل لا الوقوف على الاطلال والبكاء على الانسانية المفجعة والكرامة المهانة والقيم المتداعية ، كما يقتضي نبذ فلسفة الفلاسفة الذين يعتنقون المتناقضات وكأنهم يلعبون ـ البوكر ـ وسط حلبة الملاكمة التي تصطخب فيها اصوات الجماهير التي تصفق بحماس منقطع النظير ، واذا كانت اللاانتمائية التي نستشعرها تجعلنا نلوح كشبح المأساة فيجب ان لا تدفعنا المثالية التي تأكل أعماقنا الى تشاؤمات حادة تغرينا بالانتحار كما فعل ـ فرتر ـ غوته .

ان لحظتنا المعاصرة وزمننا الراهن يتطلبان حالات تفاؤلية وتشاؤمية معا كي لا تسيطر علينا الاحلامالطوباوية او الانكماش والتحجر والجمود عند استساغتنا للتشاؤم اوالتفاؤل . وعلى كل حال يجب ان لا يكون تفاؤلنا خاليا من عنصر الملاحظة والحذر والحيطة كما ان تشاؤمنا يجب ان لا يكون نهيلستيا كتشاؤم اصحاب ـ الخطيئة الاولى واسطورة سيزيف ـ ولكن بالرغم من ذلك فالخطأ فينا ، في عقائدنا التي تجعلنا ننخرط فيها بطرائق اجبارية تبني التاريخ بصورة معكوسة . من هنا عجزنا ، من جهة العقائد التي نعتنقها وندافع عنها كي نضفي على اعمالنا صفة الحماسة والتعصب والايمان بمواقف نعتقد ببطولتها وجدواها وغائيتها القصوى وهدفها الامثل. فحوى كل هذا ان احلامنا الافلاطونية تصاهرت مع معتقداتنا السياسية التعصبية التي تتيح الفرص لوأد الملاحظة والشهادة فينا . ففي الوقت الذي نجد فيه البورجوازية الكبيرة تدمن على تخدير جماهيرنا حيث نرى اغلب الرهوط الاجتماعية ضائعة في حماة المسكرات والمغيبات متمسكة بالخيال اللامنتهي الذي يهدم جميع القيم في الواقع كما يرفعها ويحاول ان يعطيها معنى جديدا في حالة التوق والتفكير والتعبير الرومانسي ، تمارس البشرية التي تعيش في ظل المجتمعات الرأسمالية النامية تحطيم معتقداتها الغيبية والارتماء في احضان الآلية التي تشعرها بالقلق والضياع والتعصب الطبقي والشوفيني ، كما نرى القيم المادية تنتصب بقوة متحدية جميع البشر الذين يحلمون بعوالم جديدة ، تصنع العيش المرفه لانسانها كي يفكر طبقا لما تشاء المنهجية الحتمية وكي يرى مفاهيم الخير والشر والجمال من خلال كوة الوقائع الكوميسارية .

نستنتج من هذا أن روح البطل ضائعة في وجودنا الواقعي بقدر ما هي مترسبة في تفكيرنا الذي لا يستطيع ان يعلن عن نفسه لانه يصنع في ذاته ضمير الانسان المعذب المضطهد ، الانسان الذي تعيش في اعماقه آلاف السؤالات ، الانسان الذي يرى القنبلة الذرية تنذره في كل لحظة بتدمير فنه وفكره وحياته ووجوده والذي يجد ان المقاومة اصبحت عديمة القيمة لانها من العناصر اللامفيدة . ان مطلق مشكلة الانسان ان يسعى وراء ترويض معتقداته وأفكاره وعلوم حضارته التي اخترعها فأصبحت شبحا يمزق أمنه وهدوءه واطمئنانه . ومطلق قلقه ان يوجد قيمة تقبض على جميع التساؤلات وتحرر الفرد من قيود المطلقات الراهنة التي تستبد بمصيره .

ان واقعنا المهلوع يدفعنا في كل لحظة الى اتخاذ موقف يقضي على السلبية التي نستمرىء فيها الجمود واللامساهمة واللاعمل لاستصراخ القيم الانسانية التي تدور المعركة حولها . لاستصراخ الانسان الذي يحاول ان يتجاوز واقعه بفراره الى الاطياف والاحلام الفكرية والذي بدونه لا توجد القيم . لاستصراخ الهمم والاخلاق الكامنة فينا من اجل القضاء على كل ما من شأنه ان يدفع الانسانية الى الهوة السحيقة ، الى الحرب الذرية الحرارية المدمرة ، الى التشويه والامراض والقتل والافناء الذي يلوح كالليل الدامس . نقول بناء على هذا فان الحقيقة الحاضرة هي السلام ومن واجبالانسان ان يحمي

السلام ، يدافع عنه بعد ان يتجرد من العواطف العقائدية ، ويدافع عنه بعد ان تنقل المشاكل الجزئية الى نطاق التدويل كي تدلي الشعوب برأيها في الموضوعات التي تهم الامن الجزئي . فلا مجال للهرب ولا مجال للتبرير والتعليل والمسوغات العقائدية - سواء كانت رأسمالية او ماركسية ، فالعالم الراهن لا تستقر فيه أي حقيقة عدا القلق الذي هو انبثاق من قلب الانسان الضائع الذي لا يعرف ماذا يخبئه الغد المرعب الذي تتجرد فيه الاشياء وتبدو بلا معنى .

والانسانية لا ترتفع الى مستوى آلامها وعذابها اذا لم تبحث مشاكلها على مستوى يبتعد عن محاولات الانتحار الذري واذا لم تساهم في القضاء على الموقف الحاضر الذي تنهار فيه قيم الحق والخير والجمال . ان الشعوب كلها تشعر بالقلق يقض مضاجعها وان مسؤولية الارادة الضرورية للحرية ان تجعل الطمأنينة تتدفق في قلب الكائن البشري الذي يحاول ان يصنع من العبث منهجية بعيدة عن شراك الاتجاهات العقائدية الحاضرة التي اثبتت الوقائع زيفها وعدم قدرتها على خلق انسان انساني .

والواقع ان الموقف الراهن هو ضد الانسانية مباشرة والعلة في ذلك ليست العلوم التي اخترعت الآلية والكهربية والذرة فالعالم مادة لا تجلب الخير والشر الا بمقدار استعمالها في الاتجاه الذي يختاره الانسان . ان العلم لا خير ولا شر ولكن الانسان هو الخير والشر ، انه هو الذي يعطي الواقع صفة السلب والايجاب ، انه القيم التي تصطبغ بنظراتنا وافكارنا وآرائنا بالنسبة للكون والحياة والانسانية ولذا فمن الافضل ان يسلم انساننا المريض قلبه الى الطبيب : الى الوجود الانساني كي يشفيه من الالم والعذاب ، ويشفيه من العقائد التي ادخلت النار الى البيت الذي يسكنه والارض التي يعيش فيها .

وعلى هذا الاساس يسود الرخاء ويدفن الجشع الفكري والعقائدي والبورجوازي الخ .. وبدون شك ان العذاب الانساني لن ينقطع لان اعمالنا الراهنة المنبثقة من تعسفات الافكار التي نعتنقها تقودنا الى اللاحقيقة ، بيد ان متطلبات واقعنا تقتضي مبادرة انسانية لتخليص الحياة من عبودية التشويه والدمار والخراب ولذلك فان تبديد القلق يجعل الانسان يقبض على فكرة تحرير نفسه الى حد ما ومن جانب اخر على فكرة الامل التي تجعله يعود الى حقيقته التي طمستها القوالب والالوان الاجتماعية والحضارية . واذا ما أردنا ان يعود الانسان الى براءته والى عدميته العملاقة التي تعيش الحب والوفاء والاخاء والطيبة والاخلاص فان القضاء على الرعب الذري اول خطوة في ذلك السبيل .

ان صنع الضمير الانساني الواقعي - الحقيقة - بمقدور العالم اذا لجأ الانسان الى المساهمة في القضاء على الموقف الحضاري المعاصر وأراد ان يجعل السلام قانونا كليا على الصعيد الاخلاقي والسياسي الذي يتجاوب مع طبيعة الانسانية التي ابتعدت عن جوهرها الخير - البراءة - ولذلك فان من متطلبات هذا الموقف الارتباط والتصريح بحرية الانسان الفرد والانسان الجماعة التي تتجاوب مع طبيعتها الانسانية الواقعية التي ترى في الحياة ملتقى الزيف الذي يربط المصير بارادة قلة بيروقراطية من المتنفذين في شؤون الامم والشعوب . ولكي تكون الجهود مجدية يجب ان نشعر ان القضاء على القلق مهمة عسيرة تقتضي وسائل شاقة وتتطلب تجاوز الاغراض ، واعطاء المجهودات صراحة لكل ما هو حقا أساس الخير . ان مجرد الاستنكار لا يفيد ، فبدون عمل لوأد الرعب لا يمكن للحياة البشرية ان تدوم وعندئذ يكون الافناء الذري نهاية كل الابداعات .

بغداد : **جميل كاظم المناف**

الشعر والشاعر

مهداة للأخ الشاعر خالد الشواف

***

أخا الشعر هل للشعر نفع وقيمة
اذا لم يكن للحق يدعو ويهدف ؟
وان لم يعبر صادقا عن مشاعر
تترجم آمال الورى وتعرف
وان لم يكن ذو الشعر كالطير منشدا
وفي حلبات الشعر يشدو ويهتف
فتأتي قوافيه بكل خريدة
من المورد الصافي تعب وتغرف
اذن ليس هذا الشعر صنعة ناظم
يجيد بحور الشعر فيها ويعرف
ويجمع اشتات الكلام بقالب
ويجهد في رصف القوافي ويكلف

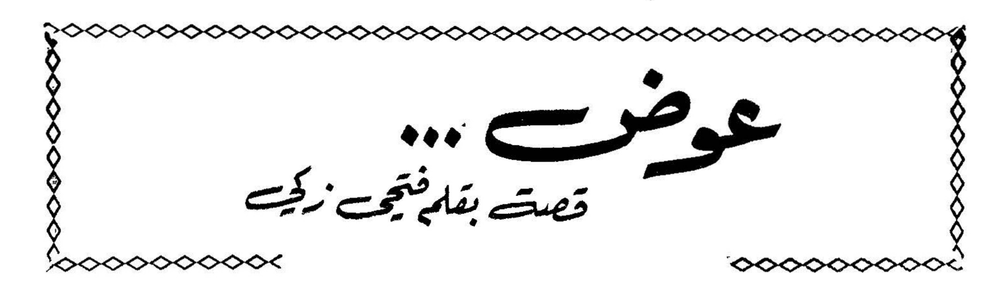
***

ولكنما للشعر دنيا فسيحة
يجول بها من بالاحاسيس مرهف
فيأتي كما شاء الشعور معبرا
عن النفس في اطوارها حين توصف
بكل فريد في المعاني ، بيانها
عن الجوهر المكنون في النفس يكشف
فأن كان مشبوب العواطف مغرما
يكابد ما يلقى من الحب ، مدنف
اتتك القوافي الرائعات زواهيا
وفيهن نار الوجد تذكو فتعرف
وان كانت الآلام مبعث شعره
تفجر أعصارا يئز ويعصف
وان هب في سوح الكفاح مناضلا
عن الشعب فهو الرعد ان هب يقصف
فيحطم حصن الظالمين بشعره
ويا ويل من بالشعر يرمي ويقذف

***

اخا الشعر هذي نفثة قد نظمتها
حوت في مقام الشعر ما كنت اعرف
فأن كنت مثلي تحسب الشعر صورة
تصور حال الناس فيما تكلفوا
وان له مذ قدر العرب شأنه
مقاما غدا بين الفنون يشرف
اذن لك مني مجمل الشكر والثنا
فقد كدت فيمن يدعي الشعر أقرف

بغداد **عبد الرزاق الهلالي**



ليه دنيا ...

هل كان يخطر ببالي ابدا ان ازور هذا المكان في يوم ما .. بل هل كنت أتصور أن تكـون زيارتي الاولى له من أجل هـذا السبب الغريب .. الذي لا أدري كيف قبلت ان يدفعني الى الذهاب هناك .. مع موقفي الصريح من زيارته .. لقد قررت ألا أزوره الا يوم اضطر السكنى فيه للابد .. والخلود فيه الى ذلك المجهول الذي لا يعرفه أحد ..

والحق .. انيحاولت ان أتهرب من هذه المهمة الثقيلة البغيضة .. في كل مرة دعتني فيها الظروف الى جنازة او عرس كنت أتمكن من « الزوغان » .. فقد كنت أنفر حتى من حضور الاعراس .. فالزواج والموت في اعتقادي صنوان .. وانا أكره الاثنين . فلولا الزواج لما كان الموت .. ان المرء يتزوج ليلد طفلا .. وما دام الطفـل قد ولد .. فلا بد انه يوما سيموت .. نعم لولا الميلاد لما كان المـوت .. بل ان العلماء يقولون ان الموت عملية تدريجية تبدأ يوم الميلاد .. وان ما نتصور انه الموت ليس الا النقطة التي تضعها ارادة طاغية في نهـاية جملة سخيفة لا معنى لها ..

في هـذا العام تزوج أخي ولم احضر حفل عرسه .. ومنذ شهرين ماتت جدتي فلم أفتح فمي بكلمة عزاء لاحد حتى لامي .. كثير من الاصدقاء تضايقوا مني .. في عديد من المناسبات .. كانوا يتهمونني بالشذوذ .. بالنفور من الناس .. وصفني صديق له في قلبي مكان فسيح بأني أناني .. فأنا في نظـره لا افرح من اجـل الناس .. لا اشترك معهم في أحزان .. اني من حجر صوان .. لا قلب لـي .. ان أنانيتي التي يلمسها الاخرون مني ليست سوى قنـاعا خادعا .. انها ماكياج .. أما حقيقتي .. فاني ..

لست اذكر الان بالتحديد الكلمة التي وصفني بها ذلك الصديق .. ولكني اذكر جيدا معالم الاحتقان على وجهه وهو يقذفني برصاصاته .. كانت تلك الليلة .. ليلة عرس اختي .. وما كان في نيتي ان اذهب الى الحفل .. ولا ان اخبر صديقي بخبر الزواج .. حبست عنه النبأ شهورا طويلة .. ولكن لست أدري كيف عرف تلك الليلة بموعد الزفاف فجاء الي وقد جهز في فمه رصاصاته .. آه .. تذكرت الان وصفه لي قال انني كالصندوق المغلق يخفي كنوزا لا يراها احد .. وأرجـو ألا تكون الذاكرة قد خانتني مرة اخرى ..

في تلك الليلة اضطررت للذهاب الى العرس .. أول عرس أشهده في حياتي .. ولعله آخر عرس .. فقد تأكد لي وأنا أرى طقوس الزواج وابتسامات الناس ان احساسي بالنفور كان أصيلا ..

واليوم انا ذاهب لزيارة القبور لاول مرة .. مضطرا كذلك فأنـا ذاهب الى المدافن كجزء من أعباء وظيفتي بشركة « الافلام العربية » .. والحق .. انه لولا خوفي من ان يؤثر الرفض على صلتي باسماعيل بك .. لرفضت ..

ولكني لم أستطع التهرب .. وها أنذا ها هنا .. حيث اختـار الموت مسكنه .. وحيث تعلق بذرات الهواء أصـداء أحزان لا تشيب ابدا ولا تستطيع القبور أن تحتويها في جوفها ..

ويقف سائق العربة السوداء .. في مكان مهجور .. أجرب .. ويقول لي .. وهالة من الغبار تدفن كل شيء من امامي .. أنـزل .. ودع يومك ينتهي على خير ..

كان السائق قد نفد صبره مثلي .. ولكني كنت أستعين عـلى ضيقي بقطار سريع ركبه خيالي وأخذ يجوب به رحلة حياة طولهـا بضعة أعوام .. ولم يتوقف القطار في محطة الحاضر الا بفرملة مفاجئة من صوت السائق الغاضب .. وهو يقول .. انزل .. ودع يومـك يمر على خير ..

ونزلت من العربة .. وضجيج فرملة القطار المفاجئة لا زال فـي قلبي .. ونظرت حولي .. أين أنا .. آه .. نعم .. لقد جئت لزيارة القبور .. مضطرا .. جئت لادفن .. اللاشيء ..

وهل يعرف أحد من هو اللاشيء .. أنا نفسي لا أزعم انـي أعرفه .. كان طوال الخمسة الاعوام الماضية يمثل في نظري لغزا مـن الصعب على عقلي القاصر ان يفسره .. ولكن أكان اللغز غامضا فعلا أم انه كان لا يشغل من بالي حيزا يدفعني الى التفكير فيه .

كل ما أذكره الان .. ان ابرز ما يحضر خاطري من خصائصـه .. انه لم يرتد في حياته شيئا جـديدا .. حتى رحم امه .. لم يكـن جديدا .. فقد كان لامه أربعة اولاد قبله .. ولا اعلم كم بعـده .. كنت دائما أراه في الايام القريبة الماضية يرتدي جاكتة عباس افندي القديمة التي أعطاها له منذ شهور .. وحذاء اسماعيل بك .. وقميص الاستاذ حمدي .. ويربط البنطلون الكالح اللون الذي اعطاه له رشدي بالحزام الجلدي الذي أعطيته أنا له منذ ثلاثة اعوام .. انه بالاختصار لم يكن يزيد عن شماعة .. تعلق عليها ملابس الاخرين القديمـة .. وأحزانهم ايضا ..

والاعجب من هذا ان اسمه .. عوض .. أي انه كان عوضا عـن شيء كان موجودا قبله .. ثم ضـاع .. اي انه كان في الحيـاة نمرة ٢ دائما .

وليس هذا كل شيء .. فان وجهه كان أعجب ما فيه .. كـان يخيل الي في الايام الاولى من رؤيتي لعوض ان من غير المعقول أن يكون الفنان الذي رسم صورة وجهه هو نفس المبدع الذي رسم صورة وجه انجريد برجمان .. وزميلتنا المادموازيل الجميلة سناء .. سناء التي عاشت في خيال كل من بالشركة اياما كره فيها الاخرين خوفا من ان تختار الزميلة الحلوة احدا منهم غيره .. انا نفسي رغم زهدي الواضح في المرأة .. كنت أحس بها ساكنة في عقلي حتى بعد انصرافها مـن مكتب الشركة .. كنت أراها حتى بعد ذهابها لا زالت امامي .. أشم رائحة عطرها المختلط بعرقها ذي الرائحة الشهية عالقا في الهـواء .. فقد كان الهواء ايضا يحب سناء فيحتفظ برائحتها وقتا طويـلا .. أراها في التأشيرات المكتبية التي كانت تكتبها على الخطابات بالخط الدقيق .. أراها في ترتيب مكتبها .. ألمس اثرها الفعال في طريقـة تأنق الزملاء جميعا وتنافسهم على السلوك المهذب رغم معرفتي الاكيـدة بأخلاق كل منهم .. كانت سناء سحرا اختفى من مكتبنا ذات يـوم عندما دخل في حياتها رجل اقتنصها منا جميعا ثم طار بهـا الـى عش .. مجهول ..

فهل يعقل أن يكون صاحب هذه الآيـة من الجمال .. هو نفس صاحب هذا الوجه الغريب الـذي لا أعرف كيف يمكن ان تصفـه الكلمات .. على أي حال سأحاول ان أرسم صورته ..

كان يخيل الى من ينظر اليه ان وجهه قد ركب من عدة وجـوه قديمة مستعملة .. فما من مرة نظرت فيها الى انفه الا وتذكرت أنف زميلنا عباس .. ذلك المنخار الرهيب الذي يكفي ثلاثة افراد عـلى الاقل .. لو ان هناك عدلا في توزيع الانوف .. اما فمه فأكاد أجزم انه اقترضه من ممثل السينما المعروف سعيد حمدي .. فاذا احتمل

الناظر اليه التدقيق اكثر من هذا في ملامحه المشوهة فانه يرى ذقنا عريضا يشبه بالتأكيد ذقن انسان اخر اعرفه .. من يكون .. لقد نسيت اسمه الان .. اما عظام الوجه فبارزة كأنها مظلة مفتوحة على الدوام تظلل وجنتين غائرتين لدرجة تحسب معها انهما ليستا الا حفرتين فارغتين تضعان اللمسات الاخيرة في أقبح صورة لوجه امتلكه انسان .. ما من مرة رأيت عوض الا وتذكرت الرسم التقليدي الذي ترسمه شركة الترام على أكشاك التيار الكهربائي ذي الضغط العالي لتحذر الناس من خطر الموت.. جمجمة قبيحة تحتها عظمتان متعارضتان ترهب الناس بالخوف من الموت ..

ومع ذلك لم نكن اذا نظرنا لعوض نحس بأي رهبة .. فاننا بمضي المدة اعتدنا على كل هذا النشاز الذي تضج به صورة وجهه .. بل اننا استخرجنا من هذا النشاز نوعا من الانسجام لا بد انه كان من وهمنا نحن ..

فهل كنت حقا أنفر من وجه عوض .. دون ان أدري .. ولهذا أتذكر الان كل هذه الاوصاف القبيحة ؟!

لست ادري .. ولكن والحق يقال لم يكن وجه عوض كله قبيحا للدرجة التي نتخيلها .. فعلى شفتيه الواسعتين .. كنت أجد ابتسامة شابت من طول البقاء في مكانها على شفتيه .. ابتسامة واسعة ترحب وتغفر وتعبر عن الحب .. والسخرية والاندهاش .. والضيق واللوم أيضا .. نعم كانت ابتسامة تغيظني أحيانا لاني لم أستطع يوما ان افهمها .. أو أسبر غورها .. ولكن لم تكن ابدا مجرد ابتسامة بلهاء كما كان زملائي يظنون .. ابتسامة كانت تسد علي الطريق كلما حاولت ان انفذ منها لاعرف فيم كان عوض يفكر في أي لحظة أراه .. بل انني أتحدى أي جهاز اليكتروني ان ينجح فيما فشلت فيه أنا ..

الذي أذكره يقينا .. انني كنت أقسو عليه أحيانا فاشتمه كلما صنع لي القهوة لانه كان دائما ينسى مزاجي في القهوة « المظبوطة » ويصر على صنعها « سكر زيادة » .. فكانت ابتسامته التقليدية تقول لي عندئذ .. آسف .. فاذا صرخت في وجهه بعد ذلك محتدا عليه لانه نسي مثلا جانبا من واجبه في العمل .. كانت نفس الابتسامة دون اضافة او حذف ترد علي لائمة وتذكرني اني « زودتها شوية » ..

كانت تلك الابتسامة ـ أغرب ما في عوض .. بعد صورة وجهه.. ولكن بمضي المدة اعتدنا عليها كما ألفنا وجهه النشاز .. ولم يعد لوجودها وقع علينا .. أصبحت جزءا مكملا لمكونات وجهه .. مثلها مثل أنفه الكبير .. او ذقنه العريض .. او فمه الواسع ..

مرة واحدة .. تذكرتها الان .. فارقت وجهه تلك الابتسامة .. لقد أحسست ذلك اليوم ان وجه عوض بغيرها وجه اخر .. ولقد تساءلت عندئذ عما حدث له حتى يتنكر عوض في وجه بلا ابتسام ؟!..

وأدركت ذلك اليوم كم هو قبيح الوجه .. وان تلك الابتسامة هي تقريبا السائل الحلو الذي يضع فيه الصيدلي الدواء المر حتى يستسيغه المريض .. ولم ألبث ان عرفت سبب تكشيرة عوض .. سألته في الحاح فصمت .. ثم أجاب وهو على وشك البكاء :

ـ اسماعيل بك شتمني ..

ـ طب وايه يعني ما بيشتمك كل‌يوم.. اشمعنى النهار ده زعلان.

ـ أيوه يشتمني كل يوم عشان نفسي معلش .. يلعن أبوي عشان غلطة عملتها .. على عيني وراسي .. انما عشان هو مش قادر يشتم اللي قدامه ونفسه يفش غلبه في أي واحد لا .. لا يا سي احمد .. هو انا ذنبي ايه ..

ـ ايه حكايتك فهمني ؟

ـ كان معاه زباين منفاظ منهم وعاوز يشتمهم لكن مش قادر ضرب الجرس .. ضربة طويلة وفيها غل .. دخلت عليه مسروع .. اول ما شافني قام هاتت في وقال لي انت ابن كلب .. يامن ابوك على أبو اللي وراني وشك .. انا عارف المصايب دي بتتحدف علي منين .. أي والله كده يا سي احمد .. من الباب للطاق .. لما خلاني بقيت في نص هدومي قدام الناس وصعبت علي نفسي قوي ..

ـ معلش يا عوض .. اضحك بقى ..

ـ بس لو كان يشتمني عشان نفسي زي كل يوم معلش .. انما عشان ناس تانيين ده كتير قوي يا سي احمد ..

ـ طب روح بقى يلعن ابوك .. انت ابن كلب .. مش قلت لك ألف مرة قهوة مظبوط يا بجم مش زيادة .. ح أعلم فيك لامتى ؟..

عندئذ فقط حطت الابتسامة الغريبة على وجهه مرة اخرى ، فقد أحس عوض اني أشتمه من اجل غلطة ارتكبها هو .. وما كان عوض يهتم بأقذع‌السباب بقدر اهتمامه بأنني أقدره ولذلك‌اغضب‌منه..

في ذلك اليوم فقط عثرت على جواب للسؤال الذي حيرني طويلا وجوده : لماذا قبل اسماعيل بك .. الرجل الفطن ان يستخدم في شركته انسانا عاطلا من المؤهلات والمزايا مثل عوض .. كان اسماعيل بك رجلا يتميز بالذكاء .. لم يكن يتحرك حركة واحدة دون ان تجد وراءها دافعا ما .. وبفضل ذكائه هذا .. صنع المليون جنيه .. هكذا يقول الناس .. لقد بدأ حياته فقيرا معدما .. كان الشارع مأواه بالليل .. وكان عسكري الداورية مع الجوع والبرد .. أعدى اعدائه ولكنه سريعا ما استطاع ان يكتسب صداقة عسكري الداورية .. كما اكتشف ان عقله يمكن ان يصنع من اللاشيء .. كل شيء .. وبالفعل تمكن في سنوات قليلة ان يصعد الى القمة .. وان يظل فوقها منذ عشرة اعوام .. وهذا أعجب ما في الامر .. فان لقبه الان « ملك السينما » بيده مصائر الكثيرين .. أو هكذا يعتقد اسماعيل بك .. وأنا مهما كنت اكرهه لفظاظته وغطرسته وغروره .. الا اني اعترف له بأنه أذكى من قابلت من الناس في حياتي ..

كنت ألمس ذكاءه اللماح طوال فترة خدمتي بشركة توزيع الافلام وراء كل تصرف يقدم عليه . حتى ابتسامته كانت لهدف .. ان من ينظر الى اي موظف بالشركة يجد ان اسماعيل بك قد وظفه لميزة ما .. مهما كلفته ..

وليس في حياة اسماعيل بك شيء لله ابدا .. فهو لا يلحق لديه بالعمل فردا واحدا لمجرد فتح باب رزق له .. ان قلبه من حجر لا ينبت فيه غصن الرحمة الاخضر .. وكنت أتعجب .. لماذا قبل ان يلحق عوض بالعمل في شركته رغم غبائه الذي يثير الاعصاب في كثير من الاحيان .. في ذلك اليوم فقط .. اكتشفت السبب الذي كان خافيا حتى عن عوض نفسه ..

كان اسماعيل بك يتاجر في الافلام السينمائية .. يبيعها لعدة بلاد .. وكان ماهرا في استخراج اكبر المبالغ من جيوب زبائنه .. وكان هؤلاء الزبائن خليطا عجيبا من الناس .. رجال اعمال من السعودية والكويت .. وتجار من العراق وسوريا ولبنان وبلاد شمال افريقيا .. ولم يكونوا في اغلب الاحيان ظرفاء .. بل مجرد حيوانات غبية متكلمة تفوح من ابدانها روائح عرق نتن رغم الملابس الفاخرة .. والخواتم الذهبية المرصعة بالماس .. وساعات اليد التي أكاد أجزم انها ليست ذات فائدة لان اصحابها لا يعرفون قراءة الوقت ولا قيمته ..

وكان اسماعيل بك يحتقرهم جميعا.. كانوا يثيرون اعصابه فيحتد معهم احيانا في نقاش صاخب يود معه في لحظة ضيق طائش لو يثور على احدهم ويقذف في وجهه بالمحبرة الانيقة التي تزين مكتبه الكاخر.. لكنه سريعا ما كان يتذكر في اللحظة المناسبة المبالغ الكبيرة التي تنام في جيوبهم والتي تنتظر الفرصة ليوقظها كي تطل الى جيبه فيكظم غيظه بطريقة غريبة عرفتها ذلك اليوم .. يضرب الجرس بغيظ فيحضر له عوض .. فيسبه أقذع السباب ويقول له ما كان يود ان يقذف به الزبون الذي امامه لولا حرصه على المكسب الكبير .. وكان في كل مرة يبرر سبه لعوض باي تبرير ولكنه نسي تلك الخدعة ذلك اليوم لغيظه الشديد .. فاكتشفنا كما اكتشف عوض سر الحاقه بالعمل بالشركة ..

في ذلك اليوم لمس الحزن وجهه فطارت الابتسامة .. أتراه قد شعر عندئذ بأنه ايضا حتى في السباب لا يقصد لذاته .. وانه نمرة ٢ ايضا .. وانه لا شيء ..

ايه دنيا ...

وليس هذا كل ما اعرفه عن عوض .. فقد كان عوض نمرة ٢ في عديد من المسائل .. لقد تحول اسماعيل بك منذ خمسة اعوام الى انتاج الافلام .. فانقلب مكتب الشركة الى سوق تعج بأفواج من الناس .. ممثلون .. ومخرجون .. وفنيون .. وكومبارس .. وهكذا ظهرت لعوض بالنسبة لاسماعيل بك ميزة جديدة ..

كانت الشركة تنتج فيلما يقوم بدور البطولة فيه نجم السينما المعروف محسن كامل .. وكان احد مواقف الفيلم يستلزم ان ينهزم البطل في معركة امام غريم له بعد ان يكيل له عديدا من اللكمات .. وبعد ان يسيل دمه ..

ولكن البطل رفض ان يقوم بتمثيل هذا المشهد .. كان يخاف على نفسه من الاصابة ككل النجوم .. وكاد تصوير الفيلم ان يتوقف .. عندئذ اقترح اسماعيل بك على المخرج اقتراحا رحب به .. ان حجم بطل الفيلم مماثل لحجم عوض .. فلماذا لا تصور لقطات هذه المعركة من زوايا لا تظهر الا ظهر البطل وعندئذ يمكن اقناع عوض بالقيام بدور البطل وتلقي الضربات بدلا منه ..

وبالفعل تمكن اسماعيل بك من خداع عوض .. قال له انه قرر ان يجعل منه نجما سينمائيا .. ألم يصنع هو معظم من في البلد من النجوم .. وسيعطيه مقابل هذا الدور جنيها كاملا عن كل يوم ..

فماذا كانت النتيجة ؟!..

جاء عوض الى مكتبنا في اليوم التالي وقد تاهت ابتسامته التقليدية في ثنايا وجهه المتورم من كدمات الامس وكان منظره يدعو عندئذ الى الرثاء ..

ومنذ ذلك اليوم وقد أضيفت الى اعمال عوض المتعددة بالشركة وظيفة البديل في الافلام التي ينتجها اسماعيل بك .. فقد أغراه المكسب البسيط اول الامر بالتمادي في تلك الشغلانة الجديدة .. ثم بدأ بمرور المدة يعتبر نفسه فنانا لا مجرد كومبارس يضرب ويتلقى أقسى اللكمات عوضا عن البطل ..

اما عن حياة عوض الخاصة فلم يكن احد من موظفي الشركة يدري عنها شيئا .. كل ما كنت اعرفه انه كان يرسل جنيهين لزوج امه في السودان وجنيها ونصف لامرأة ابيه المتوفي في الاسكندرية .. وانه فيما يتعلق بنقوده .. كان اخر من يمتلكها .. الى ان كان ذلك اليوم الذي ضربت فيه الجرس في الصباح ليحضر لي القهوة ككل يوم .. فلم يات عوض بل جاء زميله فراش المكتب الاخر .. الحاج محمد .. وسألت الرجل العجوز .. قال لي والدهشة الممتزجة بالشك تبطن كلامه الصعيدي الفخم :

ــ والله ما أنا خابر يا سعادة البيه ..

ــ ايه يعني ح يكون مات ..

ــ تقريبا كده برضه ..

ــ انطق .. قول ..

ــ سمعنا انهم كبسوا عليه امبارح في البيت لقيوا معاه طربة مخدرات .. وخدوه على اللومان ..

ــ طربة مخدرات .. بيعمل بيها ايه .. مش معقول ..

ــ انا برضه باقول كده يا سعادة البيه .. بقى عوض الاهبل الهايف ده يتشبه بالرجال ويتاجر في المخدرات.. دي حكاية ما تدخلش دماغي ابدا .. كان غيره أشطر ..

ــ يعني مستكتر عليه يعملها ..

ــ طبعا يا سعادة البك .. ده حكاية عاوزه مرجلة وقلب حديد.. وعوض زي ما انت خابره بقى مره بشنب ..

وضحك الرجل العجوز وكأنه يزهو بنفسه لانه اكتشف حقيقة خافية لا يعرفها احد غيره .. او كانه يريد ان يؤكد لنفسه ان رأيه هو الصواب وان من المحال ان يستطيع عوض الاتيان بعمل بطولي ربما كان الحاج محمد السبع نفسه يريد الاقدام عليه ولا يستطيع ..

ولم تنته القصة عند هذا الحد .. فسريعا ما تأكدت الحقيقة وعرفنا ان البوليس قد اقتاد عوض بالفعل ليلة الامس الى القسم بعد ان ضبطت معه كمية كبيرة من الحشيش مقطعة الى اجزاء ومعدة للبيع.. وانه اعترف في تحقيق النيابة بأن الحشيش المضبوط خاص به .. وان لا مناص اذن من الحكم عليه بالسجن ..

ولكني لم اقتنع بهذا الكلام .. رغم أن الاعتراف أمير الادلة كما يقولون .. كانت شخصية عوض المسالمة وذكاؤه المحدود .. وتأكيد الحاج محمد بأنه « هايف وناقص مرجلة » ومواقف كثيرة لعوض معي تؤكد بما لا يدع مجالا للشك ان في الامر خدعة .. او مكيدة او سوء حظ من النوع المزمن الذي ينفرد به عوض دون خلق الله أجمعين .. وقد صدق حدسي ..

كان عوض يسكن في تلك الفترة مع اخته المتزوجة .. وأولادها السبعة .. وكان زوجها متعطلا في الايام الاخيرة فدفعته البطالة الى الاتجار بالمخدرات .. الى ان شاعت رائحة الحقيقة وعرفت في الحي كله .. فضبطه البوليس بالامس .. وكان عوض موجودا في البيت عند حضور البوليس .. فلم يحتمل منظر اولاد اخته وبكائهم .. وهم يتعلقون بأهداب ابيهم .. ولا دموع اخته نفسها وهي تنظر لزوجها والجنود يدفعون به في احتقار وقسوة الى الخارج .. ولم يشعر بنفسه وهو يصيح فيهم وقد بلغوا فتحة الباب :

ــ الحشيش ده بتاعي .. محمود ملوش دعوة بيه سيبوه ..

ولم يكذب محمود زوج الاخت .. هذه النجدة التي لم يكن يحلم بها .. وترك الجنود يقتادون عوض بدلا منه معهم الى مصيره المحتوم..

عرفت هذه الحقيقة من صاحب دكان للسجاير مقابل للبيت الذي كان عوض يسكنه مع اخته ..

وهكذا اختفى عوض من مكتبنا فترة من الوقت .. ربما امتدت لعامين او ثلاثة دون ان يحس بغيابه احد .. الا اسماعيل بك نفسه الذي خسر عدداً من زبائنه في فترة سجن عوض .. وقد ارجع البعض سوء طالع اسماعيل بك في تلك الفترة لغياب عوض الذي جلب الحظ لاسماعيل بك ..

ولكنه عاد ذات صباح .. وكأن شيئا لم يحدث له .. عاد بنفس الابتسامة القديمة وان كانت قد ازدادت تحديدا في معناها عن ذي قبل .. واصبح الناظر اليها يستطيع أن يدرك دون كثير من العناء ان صاحبها يستهين بكل ما تقع عليه عيناه .. وبكل ما يمكن ان يحدث له من هموم .. ولا يظن أحد انه أضاف الى ابتسامته شيئا .. لا .. ولكن لست ادري كيف بدأت افهم ابتسامته بعد عودته على انها ليست سوى تعبير صريح لبق عن احساسه بالاستهانة والاحتقار لكل ما يرى من حوله ..

ولكن شيئا غريبا قد جد على هيئته .. شيئا اصبح من علاماته المميزة تماما كالابتسامة .. التي شابت على شفتيه وكعظام وجهه البارزة .. ذلك انه تعود منذ عودته من السجن على ان « يشمر » بنطلونه الى اعلى .. دون ان ندري لذلك سببا ..

وقد حاولت ان افهم سر اصراره على هذا .. فالحق ان بهيئته كثيرا من اوجه القبح .. وهو ليس بحاجة الى المزيد من التشويه .. لقد قال لي البعض انه تعود هذا لانه كان في السجن يغسل البلاط وكان يرفع بنطلونه على هذا النحو خوفا من البلل .. وقال البعض كثيرا من المبررات التي لم أقتنع بها ..

ولكني أحسست من سلوكه منذ ذلك الوقت انه اخذ يتحرك في الحياة كما لو كان يدوس على أوحال قذرة .. حتى في مكتبنا ..

نعم .. فقد عاد عوض من السجن ليجد باب منزل اخته مغلقا في وجهه .. فلم يقبل زوج اخته الاسطى محمود ان يؤويه معه في البيت .. وكيف يؤوي في منزله مجرما .. خريج لومان .. انه رجل مستقيم في غنى عن هذه الدوشة .. أي والله .. هكذا وجد عوض نفسه مطرودا من بيت الرجل الذي صلب من اجله ثلاثة اعوام .. فازدادت ابتسامته دون ان يدري تحديدا في معناها .. معنى الاستهانة والاحتقار لكل شيء .. ولا استبعد ان يكون هذا ما كان يدفعه

في اللاشعور الى رفع بنطلونه الى أعلى .. كمن يسير في طريق الحياة الموحل .. خائفا على نفسه من التلوث ..

وبمرور المدة .. لم يعد منظر بنطلونه المرقوع يثير في نفسي أي احساس بالدهشة .. ولكني بدأت المس في حركات عوض وسلوكه بالمكتب نوعا غريبا من الوقار .. لم يعد خفيف الحركة يكاد يقفز تلبية لكل طلب من واحد منا .. فقد أصبح يضيق ذرعا بشتائمنا التي كانت تجد عنده من قبل تسامحا مميزا ..

وبدأت أحس ان ابتسامته رغم ثباتها على حالها القديم .. لم تعد نفس الابتسامة الصافية التي تفغر وتعبر عن الحب .. ولا تقوى الا على اللوم فقط في بعض الاحيان .. بل مجرد قناع تمزق ، وأن نصيب الحزن العميق والملل فيها اكبر بكثير من نصيب الصبر والمجاملة والاحتمال.

ولا أعلم أين يسكن عوض بعد ان طرده زوج أخته من بيته.. بل أضفت هذا السؤال الى بقية الاسئلة الحائرة التي لم أكن أجد لها أجوبة عن حياة عوض واسراره ..

كل الذي أعلمه أنه تقرب اكثر من ذي قبل من الحاج محمد.. صارا صديقين .. بل صار عوض كثير السؤال عن ابناء الحاج محمد .. يسأل عنهم باهتمام غريب .. ويلح في رؤيتهم فاذا رآهم أمعن في التلطف معهم واعطائهم قطع الكراملة التي كان يحتفظ بها في جيوبه من اجلهم دائما .. بل انني رأيت عوض ذات مرة يحتد على الحاج محمد لانه كان يزمع أن يخرج ابنه الكبير من المدرسة ليعمل صبيا في ورشة ميكانيكية .. ولم يكن واحد منا عندما سمع صوت العراك بين الاثنين يظن ان احدهما متضايق لضرر سيلحق بابن غريمه ..

ولكن عوض اختفى من مكتبنا منذ شهر تقريبا.. دون ان يعلم احد .. حتى الحاج محمد نفسه سر اختفائه .. وبعد ثلاثة أيام علمنا انه مريض ..

ومن الغريب أننا أدركنا جميعا هذه المرة قيمة عوض .. بشكل لم يتوقعه أحد أبدا .. ولا عوض نفسه ..

فقد توقف تصوير احد الافلام التي كانت الشركة تنتجها يوما كاملا لان المخرج لم يجد في ذلك اليوم من يصلح لتلقي الضربات بدلا من البطل .. كعوض ..

واضطربت اعصاب اسماعيل بك من كظم غيظه عدة مرات في اليوم وقال له صديقه الدكتور على ان عنده مبادىء ارتفاع ضغط الدم ... وكنت وحدي اعلم ان دواءه الوحيد هو عودة عوض الى الشركة ..

اما زميلنا عباس فلم يجد من يكذب نيابة عنه في التليفون ليهرب من دائن يطارده بالحاح .. وكانت هذه مهمة عوض في الايام الماضية ..

واليوم .. ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٦٣ يوم لن انساه .. ذهبت الى الشركة في الصباح لاجد أعجب خبر في انتظاري .. كان الحاج محمد يحمل القهوة لعباس فقابلني في طريقي الى مكتبي ..

ــ مسمعتش يا أستاذ أحمد .. مش عوض مات ..

قالها الرجل مبتسما مندهشا وكأنه يلقي علي اخر نكت الموسم والواقع ان بدني كله لم يسترح لهذا الخبر ولا للطريقة التي أبلغني بها الحاج محمد .. أحسست على الفور باضطراب وكأن دمي قد ضل سبيله في شراييني وتصادمت كراته ببعضها فأحدثت ضجيجا صامتا داخلي هو سر عدم راحتي للخبر .. ولكني واصلت طريقي الى مكتبي محاذرا ان تشي ملامح وجهي بالانفعال الجامح بداخلي .. ولا بضيق أنفاسي وقد زهدت عملها الرتيب ..

وجلست على مقعدي .. وعندئذ فقط عادت الكرات الى مجراها في عروقي .. وبدأت أمارس أغرب احساس بالدهشة .. عوض يموت.. هل يمكن أن يموت كما سأموت أنا ذات يوم وكما سيموت اسماعيل بك نفسه .. وكما مات صديقي الحبيب رمزي منذ عامين .. وجدتي منذ شهرين .. غريبة .. لا .. غير ممكن أن يحدث هذا .. لا بد ان الحاج محمد يكذب ..

ولكني تأكدت بعد قليل من صحة النبأ .. وأدركت .. بعد فوات الاوان .. أن لعوض ايضا روحا كأرواحنا يمكن ان تفيض على الطريق..

فقد جاء رجل قال أنه جار لعوض في مسكنه وقد تركه في غرفته جثة أوشكت أن تجف .. وجاء ليبلغنا المصاب ...

ومن الغريب أيضا انني لم أحزن عندما تأكد النبأ .. بل كدت أبتسم لخاطر مريد .. خاطر كان يؤكد لي أن عوض قد أفلح اخيرا في ان يعمل شيئا لنفسه هذه المرة .. شيئا لن يقال عنه انه قام به عوضا عن احد .. فقد مات .. مات لنفسه هذه المرة وفرحت له .. أي والله فرحت لانه اصبح رجلا ... حتى ولو كان ذلك على حساب حياته كلها.. بل أن موته عمل بطولي تحدانا فيه جميعا .. بل وتحدى اسماعيل بك نفسه .. ولو علم أحد من زملائي بذلك الحوار الصامت الذي دار بعقلي وأنا أناقش هذا الخاطر .. لقالوا عني أنني أبله ..

ايه دنيا ...

ولم يستغرق صدى موت عوض في المكتب بين زملائي الا دقائق.. وعاد كل منا الى عمله .. ان الحياة يجب ان تستمر .. وكي تستمر يجب ان يلهو الناس .. وكي يلهو الناس يجب ان ينتج اسماعيل بك افلاما رخيصة .. وان نساعده على هذا بتنظيم حساباته واعماله..ولن نتمكن من هذا الا اذا نسينا عوض .. مات .. وانتهى .. طظ ..

ولكن اسماعيل بك لم ينظر للمأساة مثلنا .. فقد حضر بعد ساعة ورأيته لاول مرة يتخلى مختارا عن فظاظته وتكشيرته الحجرية بعد سماع النبأ الحزين وكأنه فقد كل ثروته ..

وبعد لحظات ناداني اسماعيل بك وقال لي أن علي أن أقوم بمهمة دفن عوض فهو يعلم ان ليس له أقارب.. وعلينا ان نؤدي هذا الواجب..

والحق اني حاولت أن أتهرب من هذه المهمة الثقيلة .. فأنا لا أحب زيارة القبور .. ولا حضور الاعراس .. ولكني لمحت على وجه اسماعيل بك بشائر التكشيرة المرعبة وقد أوشكت ان تعود لتزمجر في وجهي ككل مرة حاولت أن أرفض له أمرا .. فقبلت .. وأنا غارق في الحيرة .. والضيق .. والكره الشديد لعوض .. ولموته ..

ولم ينس اسماعيل بك وانا استعد لمغادرة حجرته أن يقول لي بلهجته العملية التي لا أثر فيها للعواطف ..

ــ وما تنساش تبقى تجيب معاك فاتورة بكل المصاريف اللي ح تدفعها.

ــ فاتورة .. عشان ايه بقى ..

ــ ح نبقى نضيف المصاريف على انتاج الفيلم ..

ولو كان باستطاعة اسماعيل بك .. لامرني أن أحزن على عوض ايضا .. وأن أبكي .. هذا هو اسماعيل بك في أصدق صورة ..

ونزلت من المكتب لأؤدي أعجب مهمة يمكن أن يقوم بها موظف .. نزلت لادفن اللاشيء .. ولاختزل بقدر الامكان في المصاريف .. ولامثل على كل من سيعاونني في هذه المأمورية دور الحزين المتألم ..

وبصعوبة بالغة استطعت أن أصل الى غرفة عوض .. كانت غرفة مستقلة فوق سطوح احدى العمارات الشاهقة بحي عابدين .. وكان التيار الكهربائي مقطوعا والمصعد متوقفا .. فاضطررت للصعود عشرة طوابق على قدمي .. وانا احمل جسدي وضيقي وثرثرة الجار التافه الذي أوشكت ان اصيح به ليسكت عن المزيد من الكلام السخيف المعاد الذي يقال في هذه المناسبات ..

وعلى باب الحجرة المغلقة وجدت دموعا في عيني كلب وتقدمني الجار الى داخل الغرفة وتبعته مع الكلب الذي قفز ليدخل معي فرأيت جثة عوض ممدة على الارض .. مغطاة بملاءة قديمة .. ولم يتوقف الجار عن هرائه وهو يرفع الملاءة عن وجه عوض المسجى عندئذ لم اتمالك سخطي فصحت فيه لانهره .. ولكن .. أتراني صرخت فيه لانه احنقني بكلامه المجوج .. أم لانه كشف عن جثة عوض الستار .. ام لا لهذا ولا لذلك وانما لاني رأيت على وجه عوض نفس الابتسامة الوفية التي زاملت وجهه طوال الحياة الشائكة .. أي والله .. نفس الابتسامة ..

ونظرت حولي في الغرفة .. وعندئذ فقط فهمت عوض على حقيقته .. وتحددت لي معنى ابتسامته دون ان يداخلني شك في فهمها هذه المرة .. كانت الغرفة خالية تماما من الاثاث .. من الهواء .. من الاحزان ..

يسر «الآداب» ان تعلن ان عددها السنوي الممتاز سيكون في هذا العام خاصا ب

فلسطين

فلسطين : الارض المقدسة التي يستعد العرب اليوم ، في جميع اقطارهم ، لاسترجاعها من الصهيونية المغتصبة ، والتي طبعت النتاج الادبي ، في السنوات الخمس عشرة الماضية ، بطابعها المأساوي العنيف .

و «الآداب» تدعو ادباء العربية ، من دارسين وقصاصين وشعراء ، الى المشاركة في تحرير هذا العدد الضخم الذي سيصدر في مطلع اذار (مارس) القادم ١٩٦٤ .

ولاول مرة أحسست أن عوض قد سخر مني .. ومن الحياة نفسها .. وأنه كان يمتلك في اعماقه من اسلحة مقاومتها ما تعجز عنه كل اساليب الاخرين .. فأنا كي أمتلك سريرا يجب ان اذهب الى بائع الموبيليا واعطيه عشرة جنيهات مثلا فيرسل الي السرير .. أما عوض فانه كي يحصل على هذا السرير .. أو أي شيء عداه .. كان يدوس على زرار في خياله الجامح فيفرش له الغرفة بأرقى الاثاث .. ولهذا كان يستغني بخياله هذا عن الدنيا جميعها .. وهذا سر ابتسامته .. الساخرة .. المستهينة .. اللامبالية .. فهمتها بعد فوات الاوان ..

وداهمني شعور عميق عندئذ باني أكره عوض.. ذلك الكره الخبيث الذي يغذيه الاحساس بالنقص .. نقصي أنا .. وتكامله هو .. ولعل هذا الكره هو ما دفعني أن أصرخ في الجار الذي نظر الي متعجبا وكأنه لم يصدق أن الرجل الوديع الذي جاء معه من مكتب الشركة هو نفس هذا الفظ الشرس الذي هشم الحب بالصراخ ..

على أي حال .. فانني اعتذرت له بان اعصابي منهكة .. ولعل الرجل قد فسر هذا على انه حزن مني على الفقيد المحبوب ..

ولم يطل الصمت بيننا .. فقد اقترح علي الجار أن ينزل لاستدعاء الحانوتي.. وللمرة الالف ضج دمي بالاضطراب عند ذكر الرجل للحانوتي.

وهم الرجل بتركي وحدي في الغرفة ولكني صممت على الذهاب معه رغم المصعد المعطل .. فما كنت أطيق البقاء بمفردي وجها لوجه مع تلك الابتسامة الملعونة ..

وهناك عند تاجر الموت .. زمجر الرجل وكاد أن يرفض «الشغلانة» فما أن طلبت منه فاتورة بتكاليف دفن عوض حتى صاح ساخرا ..

ـ بقى الناس بتتقدم وتطلع القمر بالصاروخ .. وانت جاي تقول لي فاتورة يا سيدنا الافندي .. ميت بفاتورة .. عالم ايه ده ياخوي..

ولم أفهم طبعا ما علاقة الصاروخ والقمر .. بالفاتورة المطلوبة ..

ولكني لم أرد أن أناقشه في هذا الامر .. كان كل ما يهمني عندئذ أن أنتهي من هذه المهمة البغيضة بأي ثمن ..

ـ يا معلم أنا راجل موظف .. موظف حسابات وكل مليم يتصرف لازم يثبت في الدفاتر . أحنا شركة ..

ـ شركة ايه ودفاتر ايه يا راجل .. واقول ايه في الفاتورة دي بالصلاة على النبي .. المطلوب من المرحوم معرفش ايه .. مبلغ وقدره قيمة تغسيله وتكفينه ودفنه .. هو اسمه ايه المرحوم على فكرة ..

ـ وانت مالك باسمه .. طلعها باسم الشركة ..

ـ هي الشركة اللي ماتت .. يا سيدنا لفندي ..

ولم أستطع اقناع المعلم بموقفي الا بعد ان أعربت له عن استعدادي لدفع أي مبلغ مهما كان كبيرا ما دام سيعطيني فاتورة بالمبلغ كله..المهم اني لقيت كثيرا حتى وافق على مطلبي .. ولكنه لم يكف عن الغيظ والتعجب ..

ـ ميت بفاتورة .. أول مرة تحصل ...

وكان لا بد من استخراج تصريح بدفن عوض .. كان عوض بدون هذا التصريح.. لم يمت ..

وهناك في مكتب الصحة .. قابلنا الموظف بتكشيرة عاصفة .. رأينا أمامه بضعة افراد سبقونا لاستخراج شهادات لدفن موتاهم.. وكان الرجل ضائق الصدر بما أمامه .. فانه كان يقوم بالعمل بدلا من زميل له في اجازة .. وكان يصيح ..

ـ يا خويا هو عبد المنعم أفندي يأخذ اجازته من هنا .. وتكتر أمواتكم من هنا .. وأنا مالي أنا ..

وتندمت منه وأنا أهيىء نفسي للعراك معه .. كنت مصمما على الحصول على الشهادة المطلوبة .. وسمعت همهمات ساخطة من حولي

.. فقد تضايق الواقفون لاني تعديتدوري ووقفت امام الموظف..وزمجر رجل اخر في وجهه محتجا ..

وبالفعل استطعت أن أخدع الموظف بتجهمي .. فسارع بكتابة الشهادة ثم القى بها في وجهي في فظاظة .. وسقطت الشهادة على الارض مع غيرها من الاوراق ولكني التقطتها .. ثم أسرعت مع الحانوتي .. الى الخارج ..

وعدنا الى غرفة عوض .. وهناك كانت تنتظرنا مفاجأة اخرى .. فقد وجدنا الماء مقطوعا عن العمارة .. ومن يدري لو ظل الماء مقطوعا أكثر من نصف ساعة فربما كنا ندفنه دون غسل ..

وبعد لحظات مرة خانقة وجدت نفسي بجوار سائق العربة السوداء في طريقنا الى مدافن الصدقة .. كانت جنازة صامتة مهملة..لا تكرمها دمعة حزن .. ولا آهة صادقة من قلب أحد .. ووالله لو كان الميت كلبا .. لكانت الجنازة أحر .. لو كانت الجنازة مجرد مشهد سينمائي يصور في أحد الافلام لكانت أكثر اقترابا من الواقع .. ومن الحقيقة.

وكان السائق غاضبا .. فقد كان يعلم مقدما أنني لن أعطيه مليما واحدا من عندي ما دامت المسألة محتاجة لفاتورة .. فأخذ يبرطم بكلام سخيف .. ساخط وأردت أنا أن أستعين على هذه اللحظات الكئيبة بقطار سريع ركبه خيالي فأخذ يجوب به هذه الرحلة الطويلة التي انتهيت منها بفرملة صاخبة من صوته وهو يقول ..

– أنزل .. وخلي يومك يفوت على خير ..

وهكذا نزلت من العربة تحيطني هالة من الغبار تدفن من أمامي كل شيء الا الاحزان التي تطفو فوق هذه القبور .. كالارواح الغرقى التي فاضت على هذه الامواج .. امواج الفناء ..

وامعانا في النكاية بي .. لم يتحرك السائق من مكانه .. بل تركني غارقا انا ايضا في هذا البحر الاجرب .. لا أدري ماذا افعل .. كل ما استطعت أن أفعله انني صفقت بيدي كالجالس على المقهى حينما ينادي على الجرسون .. لقد بحثت عن صوتي لانادي على حفار القبور فلم اجده .. واخيرا هداني تفكيري الى هذه الطريقة المودرن في طلب التربي.

وبعد لحظات طويلة خلتها دهرا.. جاء الي رجل عجوز لا شك ان الموت خاف منه وتركه كل هذه السنين ولم يأخذ الا قلبه .. كان يقترب مني بخطى وئيدة هانئة وكأنه يرقص رقصة توقيعية في أبشع باليه اخترعه شيطان .. فلما وصل امامي وقف دون أن يفتح فمه .. بل نظر الي ثم الى العربة السوداء نظرة حكيمة وانية .. ثم قال ..

– نعم .. طلبات السيادة ..

نفس كلمات توني الجرسون العجوز عندما يأتي الي ليسألني ماذا أريد ان اشرب .. وانا اليوم قد شربت بالفعل كأسا .. كأسا مرا .. قلت له ..

– عاوزين ندفن راجل غلبان ..

– مكانش يتعز ..

– ايه مش دي مدافن الصدقة .. امال عملوها لمين ..

– خلاص يا بيه .. الترب دي ح تنتقل بعد خمستاعشر يوم .. ح يبنوها بيوت للناس تعيش فيها ..

ثم استرسل الحفار في كلام بليد ميت ليشرح لي كيف ان الموت قد يمل سكناه أيضا في مكان ما ويؤثر ان يرحل الى مكان اخر .. فان الحكومة قد قررت ان تبني هنا مدينة تترعرع فيها الحياة ..

– ومش ح ينوبكوا الا الشعططة وبهدلة الميت بتاعكم ..

– ده مش بتاعنا ولا حاجة .. ده بتاع كل الناس ..

– ازاي يعني .. مش فاهم قصدك يا سيدنا ..

– ايوه .. ده راجل غلبان وملوش حد .. وينوبك فيه ثواب ..

ولم يقتنع الرجل البليد أبدا بضراعتي .. بل قال ما عنده ثم اوشك ان ينصرف .. عندئذ احسست بتعب اليوم كله يتمثل امامي..

هل اعود بجثة عوض مرة اخرى .. وأين اعود بها ..

حاولت مرة اخرى ان اقنع الرجل .. امسكت بكتفيه اهزهما وانا ارسم على وجهي علامات الحزن والكدر كي يرق قلبه ويلين..

ولكن لا فائدة .. وتصاعد غيظي .. هل اضرب الرجل .. لو كنت اعرف تفاصيل مهنته المشؤومة لقمت انا بدفن عوض دون حاجة اليه.

ولا ادري كيف وضعت يدي في جيبي واخرجت ورقة من ذات الجنيه . وقدمتها له .. فلانت تعبيرات وجهه الصلدة .. ثم قال بعاطفة مدربة على الاحزان ..

– بس يا بيه مش ح ينوبكوا الا الشعططة.. ح نعزل بعد خمستاشر يوم ...

ومع ذلك بدأ يؤدي واجبه نادى على مساعده الشاب فأخذ يرفع الجاديل ليفتح فوهة المقبرة .. ثم اتجه للعربة ومعه المساعد ثم عادا بجثة عوض ..

ولست أدري لم بدأت اشعر عندئذ باحتقار شديد لنفسي..كيف بخلت على عوض حتى الان بنظرة واحدة من الحزن الصادق ..

ودفعني احتقاري لنفسي ان اشارك في حمل جسده والرجلين ينزلان به الى جوف القبر .. جوفه الرهيب الذي سخر من الانسان وتذكرت ابتسامة عوض .. فما اعجب العقل .. وخواطره.. وتداعي افكاره ..

وفي القبر .. وضعنا جثة عوض .. ووضعت معها على الارض كل ما ذاب في دموعي من رثاء لم افطن اليه منذ الصباح .. ونزلت بجواره فرأيت عجبا .. بقايا أرجل وأذرع وجماجم .. ضاعت أسماء اصحابها .. المختلفة .. وبقيت منها حقيقة واحدة رهيبة لن تضيع .. وسالت دموعي نهرا .. هكذا خيل الي ولكني سارعت بكفكفتها .. ان هذه البقايا ستؤنس عوض في الرحلة الطويلة المقفرة ..

ومع ذلك كنت وانا اصعد الى سطح الموج لا زلت غارقا في نزيف داخلي من الاحزان .. كم كانت الحياة بخيلة على عوض فلم تمنحه لمسة

واحدة حانية .. وقد نفذنا جميعا ارادة القدر بالقسوة على عوض... وحرمانه من أرخص اللمسات .. ولا أمل في أن تصل اليه الرحمة ابدا بعد الان .. وبحثت حولي عن مقرىء ليتلو بضع ايات كريمة ..ولكني لم أجد ..

ما اتعسني .. ماذا افعل .. لقد ضاعت الفرصة الى الابد كي اكون مع عوض انسانا .. ولكن لا .. لا ازلت هناك فرصة .. سأنشر نعيه في الاهرام .. سيرفض اسماعيل بك دفع فاتورة الجريدة ..ولكن حسنا سأدفعها أنا .. فقد ادركت انني احب عوض .. احبه بعمق الحزن الذي يسيمني الان ..

وما ان ادرت ظهري لاتجه الى العربة التي فاض الغيظ بسائقهـا حتى رأيت سيدة عجوز تقبل من بعيد نائحة باكية وهي تحمل على يديها طفلا .. مات ..

ورآها الحفار معي ولكنه استدار ليذهب .. فأسرعت العجوز في خطوها منادية ..

ـ يا ولاد الحلال .. ربنا يخليكوا .. ربنا يديكوا طولة العمر..

وسألتها وقد أصبحت أمامي ماذا تريد ولكنها لم تجب علي..كانت تعلم ان مطلبها ليس عندي .. بل قالت للحفار وهو يمضي ..

ـ ادفنه ينوبك ثواب ..

فأجابها الرجل وهو يواصل طريقه ..

ـ خلاص يا ست شطبنا ...

ـ يا بني حرام عليك ..

ـ يا ست ح نعزل بعد خمستاشر يوم ..

ثم سمعته يردد عليها نفس ما قالت لي منذ لحظات .. وحـاولت العجوز وهي تلهث ان تستدر عطفه على الطفل الميت .. فلم يتحـرك قلبه الميت .. الى ان سمعت العجوز تقول له ..

ـ يا بني حرام عليك .. ده نور .. اللي يأخده في حضنه مـا يروحش بيه الا الجنة ..

والهبت الكلمات شعوري .. وتذكرت عوض ..

ومددت يدي الى جيبي لاخرج بضعة قروش وانا على وشك الابتسام .. عوض يمكن ان يذهب الى الجنة .. بعشرة قروش اقدمها للحفار سيذهب عوض الى الجنة .. يا بلاش .. ارخص من ارسال خطـاب الى بلد بعيد مسكين كان رخيصا في كل شيء .. حتى في تكاليف ارساله الى الجنة ..

وبالفعل ما ان رأى الحفار يدي وبها الورقة النقدية الصغيـرة حتى وافق على دفن النور في احضان عوض ..

ولكن .. ما ان بدأت اتحرك لاتجه الى العربة مرة اخرى حتى صاح الحفار كمن تذكر شيئا ..

ـ يا بيه .. يا بيه .. ورقة الصحة فين ؟

كنت قد نسيت ان اقدم له تصريح الدفن .. وبحثت عن الورقة في جيبي حتى اخرجتها لاقدمها له ..

ولكن ما هذا .. لمن هذه الشهادة .. ليس هذا اسم عوض..لا بد ان موظف مكتب الصحة اعطاني تصريحا بدفن شخص اخر غير عوض.. وضحكت .. ان عوض مدفون الان في الارض عوضا عن هذا الاخر صاحب هذه الشهادة ..

ولم استطع ان انبه الحفار الى هذا الخطأ .. فقد كنت أعلم ما سيرتب عليه من متاعب ..

ولكن الحفار تعجب من ضحكتي ..

هل كان يعلم انني ضحكت لانني رأيت عندئذ في خاطري عـوض بابتسامته العجيبة يخرج لسانه لي وكأنه يريد ان يقول :

ـ ايه .. وضحكت عليك .. كنت فاكر اني ادفنت عشان نفسي ، لا يا حلو .. انا برضه عوض .. لا يمكن أغير مبدأي ..

نعم كان عوض .. عوضا .. حتى في دفنه ..

ايه دنيا ...

فتحي زكي

دراسة في ادب فيرجينيا وولف

بقلم ايمن الامير

« ليست الحياة سلسلة من المناظر متسقة الترتيب ، انما الحياة هالة منيرة ، غلاف نصف شفاف يكتنفها من بداية الوجدان الى نهايته » .

ف. و.

ولدت فيرجينيا وولف في لندن عام ١٨٨٢ ، وهي ابنة الناقد والفيلسوف الكبير « ليزلي ستيفن » الذي كان يحتل مكانا مرموقا بين ادباء العصر الفيكتوري . وقد هجر ستيفن دراسته بجامعة « كمبردج » واستقر في لندن حيث اشتغل بالصحافة والنقد كما عمل مؤرخا لسير المشاهير من الادباء ، فنشأ أولاده في جو من الثقافة كان له اكبر الاثر في اعداد كاتبة مثل فيرجينيا وولف . ولم تتلق فيرجينيا وولف تعليما منتظما في مدرسة أو جامعة ما ، بل كانت مكتبة والدها النفيسة هي جامعتها الوحيدة ، فنهلت من المؤلفات الانكليزية والكلاسيكية حتى شبت وهي تعتبر الثقافة ضرورة من ضرورات الحياة . وقد انعكس ذلك ايضا في أدبها اذ ان رواياتها تعج بشخصيات ذوي ثقافة واسعة وذكاء غير عادي .

ولما كان ليزلي ستيفن يعيش هو وأسرته بين المدينة والريف ، بين لندن وكورنوول حيث كانوا يقضون شهور الصيف ، فقد ظهر اثر ذلك في روايات فيرجينيا فيما بعد ، واصبح مسرح الاحداث في قصصها موزعا بين المدينة والريف او في بقعة منعزلة على شاطىء البحر . فرواية « غرفة يعقوب » مثلا تبدأ في كورنوول وتنتهي في لندن ، و « مسز دالووي » تجري حوادثها في لندن بينما في رواية « الرحلة الى الفنار » تتحرك الشخصيات في منزل على الشاطىء الغربي من اسكتلندا . هذه المقابلة بين المدينة وشاطىء البحر ان دلت على شيء فانما تدل على الحس المرهف الذي كانت تتمتع به فيرجينيا وولف فهي تتأمل احداث الحياة الواقعية ببصيرة نافذة حتى انه يمكن القول بأن الالهام الفريد الذي تميزت به فيرجينيا وولف لم يكن سوى وليد هذا المزيج بين متناقضين .

وفي حياة فيرجينيا وولف عامل آخر ساعد على تحديد معالم شخصيتها الادبية ، ذلك ان اباها ليزلي ستيفن كان قد تخلى عن عقيدته الدينية في سن مبكرة واعتنق مذهب « اللاادرية » وتمسك به طوال حياته ، فكان لذلك شأنه في حياة فيرجينيا وفنها ، فهي كما يراها النقاد الان كاتبة اخلاقية متزنة تؤمن بأن مهمتها في الحياة هي ان تبحث عن الحقيقة ، دون أن تكون من الملحدين او الشكاك . وبعد موت ليزلي ستيفن في عام ١٩٠٤ انتقلت فيرجينيا مع اختها « فانيسا » واثنين من اخوتها الى منزل بضاحية « بلومزبيري » حيث بدأت ف. و. أولى تجاربها الادبية . ولا يستطيع المرء هنا ان يتجاهل بعض العوامل التي وان بدت ثانوية فقد كان لها فضل كبير في تفرغ فيرجينيا لمحاولاتها الادبية وتنمية ثقافتها ، منها ان عائلة ستيفن كانت على قدر من الثراء والثقافة مما منح كاتبتنا شعورا بالحرية والاستقرار وشجعها على المضي في كتاباتها . كما كان بيت فيرجينيا واخوتها في « بلومزبيري » هو المهد الذي ترعرعت فيه « جماعة بلومزبيري » الشهيرة والتي كان يرتادها الكتاب والفنانون في ذلك الوقت امثال « لويس ديكنسون » و أ. م. فورستر ، ت. س. اليوت ، ستيفن سبندر ، اليزابث بوين وغيرهم . وكان باكورة انتاج فيرجينيا وولف الادبي عبارة عن مقالات في النقد ، وقد أفادت كثيرا من هذه المحاولات اذ كونت عن طريقها فكرتها الاولى عن كتابتها القصصية .

ولم تكن ف.و. أقل حظا في زواجها ، فقد تزوجت من ليونارد وولف في عام ١٩١٢ وكان وقتذاك صحفيا ومفكرا سياسيا وكاتب مقال . وقد شجع ليونارد زوجته منذ البداية على المضي في طريق الادب حين أدرك قيمة الموهبة الخلاقة التي كانت تتمتع بها . وعلى ذلك فقد بدأت نشاطها الادبي كناقدة للكتب في الملحق الادبي لجريدة « التايمز » (وداومت على ذلك حتى موتها) ، كما كانت تنشر بين الحين والحين بعض المقالات النقدية في المجلات الانكليزية والاميركية ـ هذا الى جانب سعة اطلاعها وكثرة اسفارها وجو الانتعاش الفكري الذي كانت تعيش فيه .

***

استهلت ف. و. اولى محاولاتها الروائية في عام ١٩١٥ بنشر قصة « الرحلة البحرية » بعد سبع سنوات من العمل والدراسة . والقصة وان كانت تتفق مع تقاليد الكتابة القصصية التي اورثها القرن التاسع عشر للقرن العشرين من حيث البناء الفني والاحداث ، الا انها تفصح عن محاولة الكاتبة البحث عن وسيلة أقدر من الوسائل التقليدية على نقل التجربة الفنية ، فهناك حبكة روائية في القصة ، وهناك شخصيات حية تشترك مع بعضها في علاقات متداخلة تؤدي الى تعقيدات ثم حلول لهذه التعقيدات ومن خلال ذلك تقدم لنا الكاتبة تحليلا لشخصيات القصة ، بيد اننا لو أمعنا النظر في طبيعة الحبكة الروائية وكيفية التجربة التي تصفها الكاتبة لوجدنا ان المعنى الكلي يختلف تماما عن مثيله في غيره من الاعمال الادبية .

والقصة تدور حول فتاة حديثة السن لا خبرة لها بالحياة هي « راشيل فينراس » تقوم برحلة بحرية مع ابيها لزيارة عمتها التي تسكن منزلا يقوم على جزيرة صغيرة منعزلة ثم كيف تحظى هذه الفتاة بقدر من المعرفة عن الحياة وعن العلاقة بين الجنسين بصفة خاصة ثم تحب رجلا وفي النهاية تموت نتيجة الحمى الاستوائية . ويتضح من معالجة الكاتبة لهذه القصة انها على شيء من التردد وعدم الاستقرار مما يشير الى انها لم تكن قد اهتدت

بعد الى الوسيلة المناسبة لنقل التجربة التي تعتمل في نفوس شخصيات القصة . ففصول القصة مليئة بالوصف والاحداث الثانوية التي تشير الى ان الكاتبة لا تدري على وجه التحديد ما تريده من شخصياتها فهي احيانا تبرز بعض الشخصيات الثانوية الى دائرة الضوء ثم تخفيها او تغير من ابعادها دونما هدف محدد ومن هنا يتضح ان الكاتبة لا تهتم بالحبكة الروائية بمعناها المألوف بل ينصب كل اهتمامها على استجلاء كوامن موقف بالذات أو على تأمل شخصية معينة . على اننا اذا قلنا ان ف. و. تركز اهتمامها في نقل ومضات من الشعور الانساني فليس معنى هذا اننا نبعدها عن التراث الروائي الانكليزي . والواقع ان الكاتب في الرواية التقليدية يعبر عما يريد من خلال تنظيم سلسلة من الاحداث في اطار زمني معين فتصبح القصة هي « ما يحدث فعلا » . على ان التسلسل الزمني في رواية ف. و. موجود بمحض الصدفة ومع ان شخصية راشيل فينراس تتطور من الجهل بأمور الحياة الى الخبرة ثم الى الموت فان القارىء يشعر بأن المعنى الذي تنقله اليه القصة لا ينبع مباشرة من هذا التطور .

وعلى الرغم من هذا فقد أضافت فرجينيا وولف شيئا جديدا للقصة الانكليزية يمكن ان نسميه بالحساسية الفنية وهي قدرة الكاتبة على أن تستشف من وراء سلوك الفرد العادي دلالات عميقة ، وكأنما تريد ان تقول لنا ان الحياة تستجيب لتفكير المتأمل ما دام هذا التفكير يتم بطريقة واعية .

***

ظهرت رواية فيرجينيا وولف الثانية « ليل ونهار » في عام ١٩١٩ ، وهي تروي قصة فتاة من الطبقة المتوسطة اسمها كاثرين هيلبري حفيدة احد كبار الشعراء الذي ما زالت ذكراه تسيطر على حياة افراد الاسرة وكيف تتحول هذه الفتاة من هجر حبيبها الاول الى حب رجل اخر وينتهي الامر بزواجها منه ، وتصور الكاتبة بطلة قصتها كفتاة حساسة على درجة كبيرة من الثقافة وحب التأمل الامر الذي يثير في نفوس المحيطين بها نوعا من الاحترام والتقدير . ويذكرنا وضع كاثرين هيلبري في القصة وتجاوبها مع الوسط الاجتماعي من حولها ببطلات قصص « جين أوستن » مثل « ايما » أو « اليزابيث بينيت » مثلا . بيد ان عنصر الكوميديا الاجتماعية الذي يبدو وكأنه يعطي القصة شكلها الفني ليس في الواقع هو جوهر القصة فهي تتعدى ذلك الى محاولة أعمق لتصوير جوانب السلوك النفسي للشخصيات.

اما الحبكة الفنية في القصة ، فان بدت وكأنها قد خرجت لتوها من بين يدي جين أوستن فان معالجة القصة نفسها تخلق منها شيئا يختلف تمام الاختلاف عما يمكن لجين اوستن ان تتصوره . ولهذا فقصة « ليل ونهار » ليست كوميديا اجتماعية من النوع الذي برعت فيه جين اوستن بل اطارا تتحرك فيه الشخصيات بدافع بحثها عن الحقيقة ولا تهتم ف. و. بالتجارب والاحداث التي تمر بها شخصيات القصة قدر ما تهتم بالحالات النفسية او الوجدانية التي تثيرها تلك الاحداث في النفوس وهي تهتم بصفة خاصة بتلك الحالات الوجدانية التي تمتزج فيها الافكار بالمشاعر والذكريات فقد كانت فرجينيا وولف تعتقد اثناء هذه المرحلة من مراحل تطورها الفني انه كلما كانت الشخصية اكثر ذكاء ، ساعدها ذلك على الافصاح عن مثل هذه الحالات الوجدانية .

ولكنها عدلت عن هذا الرأي فيما بعد ، فنجد ان شخصية « مسز دالووي » في روايتها المعروفة بهذا الاسم ليست في مثل ذكاء كاثرين هيلبري ومع ذلك فهي أكثر حساسية وتجاوبا مع الاحداث .

وفي نفس الوقت الذي نشرت فيه روايتها الثانية « ليل ونهار » بدأت تحس بأن الاسس الفنية لكتابة الرواية كما درج عليها القدماء لم تعد الوسيلة المثالية لنقل التجربة او للتعبير عن الواقع النفسي للشخصية . فهي تعتقد أن مهمة الفنان هي ان يعبر عن احساسه الخاص بالواقع او عن رؤياه الذاتية لماهية الحياة ، وعلى هذا فهي ترى ان استقصاء الواقع ليس مسألة احداث خارجية في قالب درامي ، ولذلك فهي تقول في مقالها عن « الادب الحديث » :

« **فلنمعن النظر في عقل انسان عادي في يوم عادي . أن العقل يستقبل عددا لا يحصى من الانطباعات منها التافه والخيالي وما هو سريع الزوال ومنها ما يبقى في العقل كأنما نقش عليه بنصل من الصلب . وهي تأتي من كل صوب كسيل متدفق من آلاف الذرات وتتشكل لتصنع يوم الاثنين او الثلاثاء في حياة انسان ما** »

وتمضي في مقالها الى ان تقول : « **ان الحياة هالة منيرة او غلاف نصف شفاف يكتنفها من بداية الوجدان الى نهايته** » . ثم تتساءل الكاتبة :

« **أفليست مهمة الروائي اذن ان ينقل هذه الروح المتنوعة الغامضة التي لا تحد بكل ما فيها من شذوذ وتعقيد دون ان يخلط بها اي شيء خارجي ما أمكنه ذلك؟** »

وهكذا ترى فرجينيا وولف ان البحث عن الحقيقة ما هو الا نشاط نفسي يكمن في دخيلة البشر ولكنهم لا يحسون به من حيث أنه يقبع في اعماق قلوبهم .

ويشير مقالها هذا الى حقيقة اخرى هي ان الكاتبة قد انضمت الى صفوف المتمردين على القواعد المتفق عليها في كتابة الرواية : فهي تحاول ان تقترب من « الحياة او الروح ، من الحقيقة او الواقع » اكثر مما تسمح هذه القواعد ولذلك فهي ترى في « جيمس جويس » (الذي كان وقتذاك قد بدأ في نشر اجزاء روايته الشهيرة « يوليوس » في مجلة « لتل ريفيو ») كاتبا فريدا اذ استطاع ان يقترب من الحياة اكثر من غيره متجاهلا معظم القواعد التي يتبعها الكتاب عامة . وتقول مسز وولف في هذا الصدد « **فلنسجل تلك الذرات التي تتساقط على العقل بنفس نظام تساقطها ، ولنتتبع الصورة التي تطبعها كل حادثة او منظر على الوجدان مهما بدت مبتورة او متقطعة . ليس علينا ان نقبل فكرة وجود الحياة على اعتبار انها قضية مسلمة** » . فهي تهدف الى تصوير واقعية اعمق ، فالواقع بالنسبة لها شيء معنوي اكثر منه مادي فهو لا يكمن في الاحداث الموضوعية التي تدور فيها الشخصيات بل في اطار وجداني لا يعتمد كثيرا على التسلسل الزمني للوقائع الخارجية . ولهذا نجد ان الكاتبة تستخدم المشاهد في رواية « ليل ونهار » لتحطم الحواجز بين الافكار والاحداث ، بين الوقائع والمشاعر والتأملات والذكريات حتى تستطيع ان تقدم لنا « **الغلاف نصف الشفاف الذي يكتنفنا من بداية الوجدان الى نهايته** » .

صحيح اننا اثناء قراءة القصة قد نعثر على اجزاء شديدة الشبه بروايات جين لأوستن الا اننا ندرك على الفور ان مثل هذه الاجزاء لا تمثل المغزى الحقيقي للقصة ، لان ما يمكن

أن نسميه بعنصر الكوميديا الاجتماعية فيها ليس الا اطارا تنسج حوله الكاتبة مضمون الحياة او « الهالة المنيرة » . وثمة حقيقة اخرى تبرزها هذه الرواية الا وهي أن مسز وولف لم تكن قد عثرت بعد على الاسلوب الفني الذي تستطيع به ان تكتب رواية تجمع فيها بين الهالة المنيرة والاحداث الفعلية او بمعنى اخر لم تكن قد اتقنت الحبكة الروائية التي تستطيع بها ان تحل على المستوى النفسي الصراع الذي تخلقه على المستوى المادي.

* * *

بدأت فرجينيا وولف مرحلة جديدة من مراحل تطورها الادبي بمواجهة مشكلة برزت اثناء كتابتها لروايتي « الرحلة البحرية » و « ليل ونهار » وهي الاهتداء الى اسلوب فني او وسيلة تستطيع من خلالها ان تحقق توازنا بين سرد الاحداث والتعبير عن الواقع النفسي للشخصية فقادها ذلك الى التحول عن كتابة الروايات الطويلة الى بعض التجارب الادبية . ولم يكن الكتاب الذي نشرته بعد ذلك تحت عنوان « الاثنين أم الثلاثاء » سوى سجلا لهذه التجارب . ويضم الكتاب ثمان صور نثرية كتبت بين عامي ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ وتظهر فيه مسز وولف وهي تجرب مختلف اساليب الكتابة القصصية . وعلى الرغم من ان هذه الكتابات ليست اعمالا كاملة فانها تحتل مكانا بارزا في تطور التكنيك الروائي عندها وقد استخدمت الكاتبة هذه الاساليب في كل اعمالها فيما بعد.

وانتهت من تجاربها الادبية واصبحت على استعداد تام لان تبدأ في كتابة سلسلة من الروايات الطويلة تستخدم فيها التكنيك الذي اتقنته اذ كانت قد توصلت الى اسلوب انطباعي مرن تستطيع به ان تعبر عن تيار التجربة . وكان السؤال الثاني هو كيف تستطيع ان تستخدم هذا الاسلوب في كتابة الرواية . وقد اجابت على هذا السؤال بنشر قصتها التالية « غرفة يعقوب » حيث يتضح اسلوبها المدروس للتعبير عن مختلف المواقف في القصة . وهي لا تلتزم حدود السياق الزمني للاحداث ، فالتجربة تتفتت بين يديها لتكون سلسلة متلاحقة من الانطباعات . والقصة تقوم على وصف لحياة شخص يدعى يعقوب فتصور طفولته ثم حياته كطالب بجامعة كمبردج ثم استقراره في لندن وغرامياته وزيارته لفرنسا واليونان وتنتهي بموته في الحرب (ولو ان الكاتبة لا تقول ذلك بطريقة مباشرة) تاركا صورته في نفوس اقاربه . ولا يعنينا هنا أن ندرس الحبكة القصصية في هذه الرواية ، فقد كتبت هذه الرواية لتصور مجموعة من الانطباعات والتجارب التي يمر بها بطل القصة مما لا يجعلها تهتم بالحبكة الروائية قدر اهتمامها بتسجيل مجرى هذه الانطباعات والتجارب .

لعل قصة « مسز دالووي » التي ظهرت في عام ١٩٢٥ هي اول رواية ناجحة تكتبها فرجينيا وولف . ففي رواياتها الاولى رأت ان الحبكة التقليدية ليست بالوسيلة التي تساعدها على ان تغوص في اعماق تجربة الفرد الذاتية . أما في رواية « مسز دالووي » فهي تبذل محاولة ناجحة للكشف عن جوانب هذه التجربة . والكاتبة هنا تقدم لنا مسز دالووي ــ الشخصية الرئيسية في القصة ــ وقد خرجت لشراء بعض الحاجيات استعدادا لحفل تقيمه في المساء . وتنتهي القصة بوصف لهذا الحفل . ولكن قبل ان نصل لنهاية القصة تكون الكاتبة قد صورت لنا وصفا شاملا لحياة مسز دالووي ، ماضيها وحاضرها ونمو شخصيتها ، وكذلك الاشخاص الذين تربطهم بها معرفة اما حين تقابلهم اثناء تجوالها وأما حين تفكر فيهم او يفكرون هم فيها .

على انما قد يبدو للوهلة الاولى كصورة لقطاع من الحياة في مدينة لندن صباح يوم من ايام الصيف تتحول بعد الدراسة الى نموذج فذ لتجربة متناسقة الاجزاء . وجدير بنا ان نلاحظ الطريقة التي تطور بها الكاتبة احداث القصة فهي تقدم لنا ما يعرف الان باسم « تيار الشعور » وهو شيء اشبه ما يكون بحلم اليقظة عند شخصية ما . ان فيرجينيا وولف تريد ان تشكل صورة لمحاولة الفرد الوصول الى الحقيقة الداخلية ، ولما كانت تؤمن بان هذه الحقيقة غير قابلة للتعبير عنها ، فقد خلصت الى انها لا تستطيع ان تصف هذه المحاولة من جانب الفرد الا على مستوى عقلي لا يصل الى مرحلة التعبير اللفظي. وتيار الشعور عند شخصيات « مسز دالووي » هو مزيج من التأمل في الماضي والنظر الى المستقبل (النظر الى المستقبل يعتمد على تأمل الماضي بينما الحاضر يمثل همزة الوصل بين المرحلتين) وبهذا تستطيع فرجينيا وولف أن تكشف عن ماضي الشخصية . ففي بداية القصة مثلا تقدم لنا الكاتبة مسز دالووي ثم تنقلنا في الحال الى الماضي عن طريق مجرى الافكار داخل عقل الشخصية. وتستخدم الكاتبة ايضا عنصري الوقت والمكان بالتتالي لتنقل القصة من موقف الى آخر فهي تقدم لنا شخصية ما فنظل نتابع ما يجري داخل عقل هذه الشخصية وهي تستعيد الماضي او ترسم المستقبل ثم تنقلنا الى داخل عقل شخصية اخرى وهكذا . وتستمر الكاتبة في استخدام هاتين الطريقتين على التوالي بينما القارىء يتحرك داخل مجرى شعور الشخصية دون ان يتقيد بالسياق الزمني . ان فرجينيا وولف لا تحاول ان تنقل لنا تيار الشعور بطريقة مباشرة كما يفعل جيمس جويس، بل انها تسيطر تماما على تطور هذا التيار وتذكرنا بين الحين والحين بالشخصية التي تصفها .

وقد وصلت فيرجينيا وولف الى قمة فنها في رواية « الى الفنار » التي ظهرت بعد عامين من ظهور رواية « مسز دالووي » وهي في هذه الرواية تختار مجموعة من الشخصيات تعيش في منزل يطل على البحر ثم تصف الجو المحيط بهم وتصهر كل عناصر القصة لتحولها الى « الهالة المنيرة » او الرمز الذي يعادل الحياة .

والقصة هنا غاية في البساطة فالكاتبة تقسم القصة الى ثلاثة اجزاء « النافذة » ، وهو الجزء الاول ، تصور فيه حياة مستر « رامزي » وزوجته واولادهما وبعض ضيوفهم خلال يوم من ايام الاجازة التي يقضونها في منزل على جزيرة منعزلة ، والوقت هو سنوات ما قبل الحرب العالمية الاولى . وفي الجزء الثاني « الوقت يمر » ترسم فيه صورة الخراب الذي حاق بالمنزل والتغير الذي طرأ على اصحابه وذلك عن طريق وصف المنزل نفسه في لمسات انطباعية سريعة . فقيام الحرب يمنع العائلة من العودة الى المنزل مرة اخرى ، ففي اثناء ذلك تموت مسز رامزي ويموت احد ابنائها في الحرب واحدى بناتها وهي تضع مولودا. اما في الجزء الثالث والاخير « الرحلة الى الفنار » فنرى البقية الباقية من آل رامزي وقد عادوا الى المنزل مرة اخرى بعد عشر سنوات مع بعض ضيوفهم القدامى ، ثم تنتهي القصة « وللي بريسكو » ــ وهي واحدة من الضيوف الذين قدموا الى المنزل في المرتين ــ تستكمل رسم لوحة كانت قد بدأتها عند زيارتها الاولى ، وهي تكمل هذه اللوحة في

ضوء الرؤيا التي تأتي اليها اخيرا والتي تمكنها من ان ترى – في لحظة قصيرة – مغزى العلاقة بين مسز رامزي الراحلة وعائلة ال رامزي وبين المنظر الطبيعي الذي يمتد امامها . وفي الجزء الاخير ايضا نرى مستر رامزي يقوم مع اثنين من اولاده برحلة الى الفنار في قارب صغير، وكانوا قد عقدوا النية على القيام بهذه الرحلة في الجزء الاول من القصة ولكنهم اضطروا الى تأجيلها لسوء الاحوال الجوية . ويصل الثلاثة الى الفنار في نفس الوقت الذي تستقبل فيه ولي بريسكو الرؤيا وتستكمل لوحتها .

وفيرجينيا وولف تستخدم في هذه القصة فكرة الاعداد للرحلة الى الفنار في الجزء الاول ثم القيام بها في الجزء الثالث كوسيلة للربط بين اجزاء القصة وهي لا تكتفي بتصوير العلاقة بين افراد عائلة مستر رامزي بل تتعدى ذلك الى محاولة الايحاء ببعض الافكار العميقة عن طبيعة التجربة وارتباطها بالزمن والشخصية والكاتبة هنا تقدم الينا عددا محدودا من الشخصيات تنتقل من وجدان شخصية الى اخرى وتكشف لنا عن مدى تفاعلهم مع الاحداث وفي نفس الوقت تتابعهم في تأملاتهم . على ان معالجتها للرواية ابرع بكثير مما يستطيع هذا الملخص ان يوحي به وهي ترسم شخصياتها وعلاقة كل منهم بالاخر في مهارة فائقة وتخرج من كل هذا بنمط رمزي محدد. وشخصيات القصة هم مستر رامزي استاذ الفلسفة الذي يكرر نفسه دائما وهو عاجز عن ان يفهم المغزى الحقيقي للتعاليم التي يبشر بها ، وزوجته مسز رامزي التي تفهم الحياة دون حاجة لتعاليم زوجها وتسيطر على العائلة، وليلي بريسكو احدى الضيوف وهي ترفض ان تتزوج وتحاول البحث عن الحقيقة والتعبير عنها من خلال الشكل والالوان وتشارلز تانسلي وهو فيلسوف صغير يعاني من الشعور بالنقص ثم بعض الشخصيات الاخرى ، ولكل شخصية دور مرسوم ومحدد في القصة. ثم هناك الفنار الذي يقف وحيدا في منتصف البحر وهو رمز للفرد باعتباره كائنا متميزا في حد ذاته وجزءا من تيار التاريخ في نفس الوقت . ومحاولة الوصول الى الفنار ليست سوى محاولة الفرد ان يتصل بالحقيقة خارج نفسه ان يتخلى عن ذاته ويستسلم لحقيقة خارجية والقارىء يرى كيف ان مستر رامزي استطاع اخيرا ان يتحرر من نفسه وهو الرجل الاناني الذي يبحث دائما عن اعجاب الاخرين وهو يتخلص من انانيته لاول مرة قبل ان يصل القارب الذي يقله هو وابنه جيمس وابنته كام الى الفنار فتنطلق منه صيحة اعجاب بطريقة ابنه في توجيه دفة القارب وهكذا يتضح الرمز في القصة اذ ان الرحلة الى الفنار ما هي الا الرحلة من داخل الذات الى خارجها.

ويبدو اهتمام الكاتبة بالعلاقة بين الوقت والشخصية وبين التطور والموت واضحا في معالجتها لشخصية مسز رامزي ، فهي تقدم لنا مسز رامزي اثناء حياتها في الجزء الاول من القصة وتسجل موتها ضمن سردها للجزء الثاني على ان هذه الشخصية تتصل على الرواية بأكملها فهي تعيش في ذاكرة الاخرين حتى بعد موتها . لقد اصبحت مسز رامزي جزءا من التاريخ تحتوي الحاضر وتكيفه حتى ان ليلي بريسكو تتخيل انها رأت مسز رامزي في اللحظة التي تستقبل فيها الرؤيا.

وفي عام ١٩٢٨ نشرت الكاتبة روايتها « اورلاندو » وهي عبارة عن السجل لتاريخ حياة احدى صديقاتها. وهي ليست رواية بالمعنى المفهوم بل سيرة فلسفية لحياة شخص رمزي وتطوره الفكري تمتد من اول العصر الاليزابيثي حتى السنة التي نشر فيها الكتاب.

وتلت هذا الكتاب روايتين هما «الامواج» و «السنين»

وفي خريف عام ١٩٤١ وبعد موت فيرجينيا وولف بشهور قلائل ظهرت اخر رواية لها « بين الفصول » وهي تحاول في هذه الرواية ان تصور الحياة الانجليزية وتطور الحضارة في انجلترا عبر قرون التاريخ حتى وصلت الى ما هي عليه في العصر الحديث كل ذلك في قالب رمزي. ويتبين من هذه الرواية ان فكرة ارتباط الزمن والتطور بالشخصية والتجربة لا زالت تشغل ذهن الكاتبة الا انها تطبقها على البيئة الانجليزية في هذه المرة . فالكتاب عبارة عن مأساة شعرية تقوم فيها انجلترا بدور البطولة. والمنظر يختلف ايضا فمسرح القصة هو قرية في الريف الانجليزي حيث يبدو التاريخ اكثر رسوخا .

ويدور الحدث في القصة حول المهرجان السنوي للقرية الذي ينتظم في شكل مجموعة من المناظر التمثيلية تعبر عن تطور الحضارة الانجليزية منذ بداية التاريخ الى العصر الاليزابيثي ثم العصر الفكتوري حتى شهر يونيه عام ١٩٣٩ ويتمثل العصر الحديث في مجموعة من المرايا توضع على المسرح حتى يرى المتفرجون انفسهم وهكذا تلتقي القرون وتتحد مراحل التاريخ لتصور لنا كيف ان الواقع ما هو الا التغيير والوحدة هي التنوع . بيد ان فيرجينيا وولف توحي بان هذا الواقع بالنسبة لانجلترا واقع تراجيدي وربما يرجع السبب في ذلك لان فيرجينيا وولف بدأت كتابة روايتها هذه «في شبح الحرب» وانتهت منها والحرب على اشدها .

وكان موت فيرجينيا وولف المفاجيء في مارس عام ١٩٤١ صدمة للرأي العام في انجلترا . فقد عاشت حياتها في خوف دائم من ان تسقط فريسة للجنون ، اذ كانت تنتابها احيانا حالات من الكآبة والقنوط تهدد بانهيار قواها العقلية وقد سبق ان اصابتها احدى النوبات وكادت ان تذهب بعقلها فعلا وكان ذلك قبيل الحرب العالمية الاولى بقليل – وظلت فيرجينيا وولف تقاوم هذه النوبات حتى عام ١٩٤١ م وكانت قد انتهت من روايتها الاخيرة واصبحت منهوكة القوى بسبب الارهاق في العمل والخوف الدائم الذي كانت تعيش فيه بالاضافة الى التوتر العصبي الذي اصابها من جراء الحرب فخرجت ذات صباح متجهة صوب شاطىء النهر كعادتها .

وحين خرج زوجها واختها للبحث عنها ، لم يجدا سوى عصاها ملقاة على الشاطىء ...

أيمن الامير

قضايا الأدب والأدباء

وثائق ادبية وتاريخية

بين عادل أرسلان ورشيد رضا

بقلم : احمد الشرباصي

ان الرسائل الاخوانية ذات شأن جليل في تصوير الحياة الادبية ، وتزداد أهميتها اذا كانت لا تقتصر على شؤون ذاتية او ادبية ، بل تضم الى ذلك حديثا عن التاريخ او الوطن او المجتمع . انها حينئذ تصبح وثائق تاريخية هامة من واجب الباحثين ان يرجعوا اليها ويستنبئوها ويستشهدوا بها .

ولقد وفقني الله تعالى للعثور على طائفة من رسائل الشاعر اللبناني والمجاهد العربي الامير عادل ارسلان شقيق امير البيان الامير شكيب ارسلان ، بعث بها منذ وقت طويل الى السيد رشيد رضا صاحب مجلة ((المنار)) و ((تفسير المنار)) ، والتلميذ الاول للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

وعادل أرسلان أحد أربعة أبناء امراء للامير حمود الارسلاني ، وهم نسيب وشكيب وحسن وعادل ، وقد جاء في كتاب ((روض الشقيق)) هذه العبارة عن عادل : ((الشاعر الجزل الرقيق ، ربيب النعومة وابن الامارة ، ينبعث الى ساحة الجهاد في الثورة السورية ، ويقود المجاهدين ، ويكافح العدو ، وينزل به الويل الاكبر ، ثم لم يزل مرابطا برجاله في الصحراء ، يستعذب ضروب المشاق ، ويستسهل الصعب في سبيل بلاده وأمته)) .

وللامير عادل شعر طيب ، نذكر منه على سبيل المثال قطعة من قصيدته التي رثى بها شقيقه الامير نسيب ارسلان :

نفى النوم ما هاج الضمير المناجيا ... أفي الغيب ما أخشى والا فما ليا ؟
هواجس قد اصبحت بعد دبيبها ... أكاد اذا أنصت أسمع ناعيا
اذا تلعات ((النبك)) لاقت نواظري ... تمثل فيها ضاحك الروض باكيا
وقفت على وادي ((السراحين)) واجما ... أخالط ليلا بالملمات داجيا
على النخلات الخمس يطفين في الدجى ... يشرن الى المشتاق ألا تلاقيا
تمايل من هوج الرياح ، كأنها ... نوادب يحثين التراب بواكيا
الا ان هولا شد من كل جانب ... وأطبق يستدعي عليّ النواحيا
بلى قد مضى ، والقلب يهفو لذكره ... ((نسيب)) وخله آهل الربع خاليا
فيانائيا ، أواه ، لو ان نظرة ... تزودتها من قبل ان صرت نائيا
فديتك لو ترضى المنية فدية ... وهيهات ترضى بي لمثلك فاديا

وبين يدي رسالة مخطوطة من شكيب الى رشيد تاريخها ٢٢ يناير ١٩٢٥ ، وفيها يقول عن شقيقه عادل :

((أخي عادل فيه جميع أوصاف الرجولية والشهامة والاباء مع الذكاء ، لكن عبيت به حتى أقدر ان اغير طبعه الذي هو الانتقاد لكل شيء ، والتشاؤم بكل شيء ، والنعي والنعاب والنعاق بدون انقطاع ، ونبهته الى كون هذا الامر صار عنده مرضا ، ولا أراه يقلع عنه)) .

والرسالة الاولى التي عثرت عليها كتبها الامير عادل من ((الحوراء)) بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ م. وهذا يوافق شهر جمادى الاولى سنة ١٣٤٢ هـ. ، وفي هذه الرسالة التي انشرها مع زميلات لها لاول مرة نجده يتحدث عن سوء الاحوال ، وعن اضطراب الامور لدى اخيه شكيب ، وعن انحطاط رجل لم يذكر اسمه ، والانتداب الذي منيت به فلسطين ـ ردها الله على العرب والمسلمين ـ وعن اثر الانتداب في مصلحة مصر ، كما يشير الى ما قام به ((الكماليون)) في تركية مما يأسى له ويضيق به ، وهذا هو نص الرسالة :

((سيدي الاستاذ المفضال

حقا ان الذهاب الى مصر وزيارتكم فيها لاسهل بكثير من ارسال رسالة اليكم يكون فيها ما يروي الغليل . لم أزل في مقاساة ما لا يوصف في هذا المحيط ، فكل ما نراه وكل ما نسمع به يدخل الحزن على أبرد القلوب ، وقد حاولت مرارا النجاة من هذا العذاب ، فعاقني عن ذلك اهمال الاخ أمر سكناه ، واختيار الاقامة له ولعائلته ، حتى جاءني منذ ايام كتابه الاخير يقول فيه انه وصل آستانة ، وانها يذهب منها الى مرسين .

فتصور رعاك الله حال من يستبدل وطنه بأطنه ، ومن ترسو به سفينة الاغتراب في مرسين ؟ الا انني اتوقع ان يكون في ذلك فرجا لنا بعد ان تمرسنا هنا بالآفات ... الخ .

الرجل الذي سألتم عنه وعن اخباره هو الان في بحبوحة الرذالة ومعمعان قلة الحياء ، وهو في ذلك كل يوم في ازدياد ، وكم قلنا : هذا منتهى ما يستطيع المرء ان يأتي به من الموبقات ، فاذا بنا أضيق خيالا وأقصر نظرا من ان نحيط بما فيه من قوة الضرر متنوعة شاملة ، لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا أدركتها ، وأظهرت فيها آثارها ، فهو من هذه الجهة نابغة النوابغ ، وعلى قول بعضهم : عبقري . لانهم زعموا ان العبقري هو من فاق غيره ، وارتفع عن الامثال ، وهذا قد ارتفع في سقوطه عن جميع الساقطين !

وكأنه عرف ان كل الناس أعداء له ولصفاته ، فصار عدوا لهم جميعا ، بعد ان كان عدوا لنفسه قبل غيره ، وهو يعمل فكرته الان في ايصال الاذى الينا بطريقة جهنمية ، وقد بدأ بذلك سرا ، لكن اسراره كلها فضائح ، وسأخبركم بما يكون .

صك الانتداب الجديد الاخير وصل ، ولم تنشره هذه الحكومة ولا حكومة فلسطين ، وهو ينص على اعادة حقوق اليهود التاريخية في فلسطين ، وعلى غير ذلك من الامتيازات والحقوق المسلوبة من غيرهم . وهذه المنطقة معبر عنها بالاراضي الواقعة بين نهر الاردن وحدود فلسطين الشرقية ، والعقبة وما جاورها من اراضي الحجاز داخلة في صك الانتداب ، وهذا أمر يمس مصالح مصر خاصة ، لان الضفة المقابلة هي لها ، وسيكون لهذا الخليج شأن عظيم في المستقبل ، فان شئتم ان ابعث اليكم برسالة مفصلة في هذا الموضوع الذي قتلته درسا فأرجو الايعاز الى الاخ ابي الخيرات ... ان يطلب ذلك مني ، وهذه الرسالة خصوصا في هذه الساعة المتأخرة لا تسع مثل تلك الرسالة .

جاءنا بعض الاصدقاء من مصر ، وفتحوا بحث اصحاب الكمالات ... فسمعوا ما أدهشهم وتركهم خرسا بكما لا صما ، لانهم لا يزالون يسمعون ، وأظن انهم شعروا بضعف حجتهم تجاه قوة المحسوسات الملموسات من الاعمال المنحوسات .

أرجو ان يكون هذا الكتاب لكم وحدكم ، ولا بد ان تجمع الايام بيننا فنسترسل في البحث بما يقتضي من الاسهاب والتطويل .

سفر التدوين الذي أشرتم اليه أهمل عمدا الى حين . والسلام على سيدي الاستاذ وألف تحية .

الحوراء ٢٩ تشرين الثاني سنة ٢٣ عادل))

***

وهذه رسالة ثانية كتبها الامير عادل ارسلان الى السيد محمد رشيد رضا سنة ١٩٢٣ ، ولكننا لا نعرف في أي شهر كانت هذه الرسالة ، لان الامير نسي الشهر ، واكتفى في التاريخ بهذه العبارة : ((عمان ـ ٢٩ سنة ٢٣)) . وفي هذه الرسالة يتحدث الامير عن متاعبه بسبب جهاده الوطني ، وعن تنقلات أخيه شكيب ، وعن مكائد بعض الناس له ، وعن الحالة السياسية للقضية العربية في ذلك الوقت ، وما فعلته فرنسة بالعرب ، وهذا هو نص الرسالة :

« عمان – ٢٩ سنة ٢٣
سيدي الاستاذ المفضال

أشكر لكم اهتمامكم لامري والسؤال عني ، وقد فاتني ان اكتب لكم بعد سفري وحصولي في هذه العاصمة ، ومن اسباب ذلك المراقبة ، لاننا تلقينا بعض الرسائل مفتوحة وملصوقة بمادة ظاهرة ، وأرسلنا بعض رسائل لم تصل ، وبعد التحقيق ظهر لنا ان هناك امرا ، او قولوا : ارادة سنية ... بمراقبة رسائلنا ، والضمير عائد لبعض اشخاص ممن وقعوا تحت تهمة الوطنية والعياذ بالله !

شكيب كتب لي مرتين بعد رجوعي من مصر ، وقد جاوبته ، ثم جاءتني برقية من نجيب بك يقول فيها ان شكيب قلق علينا ، وقد جاوبته ايضا بأن صحتنا جميعا جيدة ، وهذه هي الحقيقة ، ولكن الاخ لا يفكر بأمر هذه العائلة التي يسأل عنها من حين لآخر ، ويغير مكان اقامته ، دون ان يعرفنا عنوانه الجديد .

أود ان أطلعكم على بعض الحقائق ، وكان من الواجب اطلاعكم عليها قبل الان ، ولكن الفرصة لم تسنح . الركابي اغتنم فرصة سفرنا الى الحجاز ، فأخذ يغري الامير بنا وبغيرنا من الوطنيين ، حتى انه أمر بطرد الشيخ كامل ويحيى صاتي بك والدكتور محمود حمودة بك ، لانهم دخلوا المنطقة بقصد معونة سلطان الاطرش في ثورته على الفرنسيس ، ثم أخذ يصرف ألوف الليرات على جواسيسه وأعضاء حزبه الذي سماه « حزب أم القرى » تزلفا لملك الحجاز ، وفي لندرة قبل بما لم يقبله احد غيره ، وكانت أفعاله هذه تصادف القبول لاستعداد تلك النفس الى استحسان امثالها ، ولو أدى ذلك الى ضياع القضية والبلاد وأبنائها . وقد دام الاتفاق بينهما الى ان تدخل الوالد في الامر فجرى ما جرى .

ونحن نستغرب ذلك من الركابي ، لانني وأحمد مريود بصورة خاصة نعد أنفسنا أصدقاء له ، ولم نأت بعمل يخالف الصداقة ، رغما عن معرفتنا انه لا يراعيها كثيرا .

هنا الاحوال أوحال ، وكل يوم في ازدياد ، والمنطقة على وشك الافلاس ، والاهالي يتذمرون ، ولا يعقل نجاح حكومة وارداتها مئة وعشرون الف جنيه يصرف الامير منها ثمانين .

وأما الاشاعات التي أذاعها بعض الاذناب والاتباع بشأن امارة فلسطين فلا صحة لها ، وكذلك قولهم ان مسألة سورية تنحل قريبا على تلك اليد البيضاء ! وغاية ما في الامر ان اصحاب الانتدابات كلهم ارتعدت فرائصهم خوفا من اشتداد حركات الاتراك على الحدود ، فأرادوا ان يلفتوا نظر الاهالي الى هذه الجهة ، وان يظهروا للفرنسيس ان حشد قواتهم العسكرية على حدود حلب ممكن ، لان البلاد ستكون ساكتة من هذه الجهة ، والاصح ان الفرنسيس اشترطوا على حلفائهم تسكين هذا القسم الجنوبي من سورية ، ليتمكنوا من حشد قواتهم كلها على حدود الاناضول .

والمفهوم الان ان العصابات التركية قوية جدا في جهات حلب وانطاكية ، وان جيشا تركيا كبيرا وصل الى ولاية أطنة ، ويقال ان الخطة هي تخويف الفرنسيس ، لا مهاجمتهم فعلا ، ولهذا كله لا يكون موافقا ان نقبل بالتساهل مع الفرنسيين الان بحجة قرب الخطر التركي كما يقول رضا باشا .

وعلى كل حال يجب افهام الامة ان عليها السعي لنيل استقلالها بدون أصنام تعبدها قبل ذلك وبعده ، وهذا ما يقوم به نجباء شبابنا ، فنرجو ان يكون تأثير الدعوة التي قام بها البعض في مصر بين اخواننا السوريين – سواء من جماعة الركابي او جماعة الاخر – صفرا .

وفي الختام ارجو اهداء سلامي لجميع الاخوان ، وان امرتم بجواب فليكن بواسطة الاستاذ القصاب في حيفا ، وأقدم لكم أوفر الاحترام سيدي .
عادل »

***

وهذه رسالة ثالثة ، اكتفى عادل في تاريخها بما يلي : « عمان – ٢٦ حزيران » ، ولكنا لا ندري من اي سنة هذا الشهر ، وان كان يظهر ان هذه الرسالة غير بعيدة في الزمن عن الرسالة التي سبقتها ، وهذا هو نص الرسالة :

« سيدي الاستاذ المفضال

تأخرت رسائلي لاسباب كثيرة ، أهمها اني حرت كيف أصف لكم ما نحن فيه . تذكرون كيف كنا نتصور الخير لهذه المنطقة ، وكيف كنا نعدها او نحاول اعدادها لما هو اعظم وأولى بالاهتمام ، واما الحقيقة التي وجدناها امامنا هنا فقد أزالت ذلك الغشاء ، ورفعت ذلك الغطاء عن جميع الاحلام والاوهام ، وهذا شأن من لم يكن فارق الحذر ونسي العبر ، فكيف حال من كان في عالم الخيال تجاه هذه « الظهورات » الجديدة ؟..

القوم أبعد عن السعي لتحقيق آمالنا من ان يكون لهم سعي حقيقي اليها ، وما قيل من العبارات في موضوع تهيئة الحكم الوطني لسورية لم يتحقق منه شيء سوى الاجتهاد في تخفيف وطأة الاحتلال الفرنساوي بحيث تخف الشكوى منه ، وفي ذلك مصلحة العدو لا مصلحتنا . ولم نر انهم خطوا خطوة واحدة في سبيل المناضلة عن حقنا ، او تسهيل العمل لنا ، وهذا ما كان ينبغي ان نعلمه من قبل ، لان الاختلاف في اوروبة ، على سياسات لا علاقة لها في العالم الاسلامي ، لا يمنع الاتفاق علينا ، وعلى تقسيم بلادنا .

فمن الجهة السياسية حالة هذه المنطقة في جمود ، لا ابالغ ان قلت انها تسير الى الوراء . واما الجهة الادارية فهي مشابهة للاولى ، وأهم اسباب انحطاطها البداوة ، والمبالغة في اكرام البدو ، والاصغاء اليهم في كل شأن ، وهناك ايضا سبب اخر لا يقل عن هذا تأثيرا وهو الافلاس ودسائس المعلومين .

ولو لم نكن على ما وصفت من الضعف والخمول والكسل وتحجر العقول ، لكنا الان في دمشق على رقاب الخصوم . مع كل هذا قررنا الثبات والعمل ، ومعاونة الرجل على النهوض بنفسه وبنا ، فان رأينا بارقة امل مكثنا ، والا فناديكم أجمل للشمل .

أود حضور مؤتمركم في جنيف ، ولم أزل أترقب لذلك فرصة . ارجو على كل حال انا اول النادمين على رجوعي من برلين ، وكنت عدم اطلاع احد على كتابي هذا ، وسأكتب لكم في كيفية وقوع الحيف الجديد ومقاومتنا له ، ومن الان نبشركم ان طريق العراق من عمان اقرب مما تتصورون : خمس ساعات بالطيارة الى ضواحي بغداد ، وبالسيارة ٥٠ ساعة ، وهلم جرا .

والاصدقاء في حيرة وارتباك ، وقد حاولوا منذ مدة ادخالي في الحكومة فلم أقبل ، ولكن في هذين اليومين وعد سموه باتخاذ سياسة جديدة ، ولذلك لم يعد بعيدا قبولي وظيفة عنده او في الحكومة ، والاخوان يعتقدون ان رفيقنا عوني بك عبد الهادي لا يرجع ، وقد امر الامير بعدم رجوعه ، والله أعلم .

سلامي لجميع الاخوان والاصدقاء الاحباب ، ولكم مع وافر الشوق الف سلام واحترام ، أيد الله مساعيكم .

عمان – ٢٦ حزيران عادل ارسلان »

ونلاحظ في الرسائل السابقة ان الامير يتحدث عن السياسة وقضاياها حديث مطلع مشاهد ، ولكنه لا ينخدع بظواهر الامور ، بل يحاول تفسير هذه الظواهر ، وتكشف ما خلفها من حقائق ودوافع ، كما نلاحظ ان الامير بعيد النظر ، فهو لا يغتر بعاجل النصر والظفر ، بل يحسب حساب الغد القريب والغد البعيد ، ونلاحظ ايضا نزعة التشاؤم التي تبدو منه وقتا بعد اخر ، ولعل هذا كان المسوغ لاخيه شكيب في وصفه بأنه يألف التشاؤم .

ونلاحظ ان اسلوب الامير عادل جزل قوي واضح ، تشغله الفكرة عن الصورة في كثير من الاحيان ، وان كان يعمد الى شيء من المبالغة في بعض الاوقات .

وأعتقد ان هذه الرسائل وامثالها جديرة بأن يدور حولها تفسير وتعليق ممن عاشوا الربع الاول من هذا القرن ثم ما زالوا في الحياة ، وممن لهم عناية بتتبع تاريخنا العربي الحديث . وما زال لرسائل عادل ارسلان بقية نرجو ان نعود اليها في فرصة قادمة .

القاهرة **أحمد الشرباصي**

كلمة في مشكلة كبيرة

بقلم : عبد الجليل حسن

علق كاتبان فاضلان في العدد الماضي من « الاداب » على ما كتبت حول « مشكلة الاديب والدولة » ، وقد كان ما كتبت يرمي الى ابراز شكل من اشكال تأثير السلطة على الادب والفكر ، هذه السلطة التي تتمثل في الدولة باعتبارها سلطة صاحبة سيادة ، وكان اهتمامي منصبا على الدولة الشمولية أو الكلية التي تود السيطرة على كل حياة الافراد ، فلا شيء يتعلق بالانسان سواء في ذلك حرياته بل وضميره ان امكن يكون بعيدا عن متناول سلطانها ، وذلك لان الدولة الشمولية فيما تقول تمثل المجتمع ، ومن ثم فكل شيء في الحياة لا بد ان تطبعه بطابعها ، ولها ان تتدخل في أخص شؤون الافراد حتى ضمائرهم ، لو استطاعت ، ما دامت ترى ان هذا التدخل في مصلحتها ، فهي صاحبة السلطان المطلق على الافراد ، وليس هناك – كما يقول رجال القانون – قيم أدبية او اخلاقية أعلى من الدولة ، وذلك لان الدولة هي التي تضع هذه القيم وهي بمثابة المعبود ، وهي المطلق او التنين كما نرى ذلك عند هوبز ، وهيغل ... ومثل هذا الاتجاه الشمولي للدولة هو اخطر ما يواجه الادب وقضية الحرية في عصرنا الحديث... عصر الاتجاهات الشمولية للدولة سواء في الشرق او الغرب ، فسلطات الدولة آخذة في التضخم .

وكان ما كتبناه في سياق التعليق على موقف الدولة في الاتحاد السوفييتي من الادب والفن ، أو على نحو أدق استعراض لصدى هذه المسألة في العالم العربي .

وبالرغم من ان المعلقين الفاضلين كشفا عن اتجاهات نفسية منفعلة ، فاننا نحاول ان نناقش ما قالاه ، وان كانا هما لم يواجها شيئا مما ذكرنا من نقد للنظام الشمولي العقيدي الذي لا يسمح بطبيعته بنقد عقائده ، ولم يناقشا الا قضية واحدة من القضايا التي ذكرناها في معرض دفاعهما المباشر او غير المباشر ، وتركا صلب الموضوع وراحا يبحثان عن تبرير غامض وغير واع لشرعية اضطهاد الدولة الشمولية ، ويبدو ان ما قاله المؤرخ الانكليزي اللورد أكتون في عام ١٨٧٧ « ان في بلادنا اليوم كثيرا من المتعلمين يرون الاضطهاد صوابا » ، يمكن ان ينطبق على المعلقين الفاضلين وخاصة ثانيهما ، للاسف الشديد .

*

والكاتبان ، أحدهما من الاردن والاخر من القاهرة ، فأما الذي من الاردن ... « فقد جهد انيخرج من المقال بشيء معقول » ففشل ، ويجب ألا يتبادر الى ذهن احد من القراء ان ذلك لقصور في فهمه ، لا ... ان سيادته يفهم المنطق ويعرف المقدمات والنتائج ، وسيناقشنا على أساس المنطق الارسطي ، وسيلزمنا الحجة ان شاء الله ! وقد فتح الله على سيادته ، فوقف عند العمود الاول من المقال ، ورأى فيه اننا سقنا « مقدمات طويلة غير منطقية » ، وبالمناسبة لعلم سيادته لا توصف المقدمات عادة بأنها غير منطقية بل النتائج ، ولكنه يقصد ان يقول انها مقدمات غير واقعية أو غير صحيحة ، ولكن لشدة غرامه بالمنطق قال انها مقدمات غير منطقية ، اما النتائج غير المنطقية فيقصد بها عادة ، ان كان الكاتب يعرف شيئا من المنطق ، عدم اتساق او عدم اتفاق النتيجة مع مقدماتها ، بحسب قواعد المنطق الصوري ، ولعل سيادته ايضا ان النتيجة يمكن ان تكون « منطقية » مائة في المائة ، ولا تكون نتيجة صحيحة مقبولة ... ولست أطالب سيادته ان لا يتهمنا بسوق المقدمات غير المنطقية بل أطلب طلبا أفيد من ذلك وأجدى ، وهو ان يتدبر ويتفهم معاني الالفاظ التي يستخدمها ، فذلك أجدى له ولنا ، وخاصة اذا كانت هذه الالفاظ نوعا من المصطلحات ، والكاتب الفاضل « لم يستطع ان يوافقنا على رأينا مطلقا » ، وهذا ما نسر له اذا كشف لنا سيادته عن خطأ ... ولكن نطلب اليه بأدب « مطلق » ان يوضح لنا رأيه ، وقد أوضحه بل والاهم من ذلك انه رجل يحب المنطق « فمنطق » رأيه ووضعه في صورة قضايا منطقية ، ولكي يدافع عن « شيء » ، راح يناقشنا في شيء اخر ، ولم يخرج عن العمود الاول من المقال ، وتلك براعة وأيم الله !

لم « اصنف » وانما قلت « ان هناك على مدار التاريخ صورا متنوعة

لم « اصنف » وانما قلت ان هناك على مدار التاريخ صورا متنوعة من الصراع بين السلطة والفكر بين التقييد والحرية ... وقصة التقدم الانساني لا تخرج عن ان تكون صراعا مستمرا بين القوى الحاكمة التي ترغب في استقرار الاحوال ودوامها ، وبين المفكرين المتطلعين الى صور واشكال من الحياة جديدة تغاير المألوف وتريد تشكيل الحياة على نحو اخر ، او تعرض الحقائق الجديدة فقط ... وحين يتأزم هذا الصراع ينفجر في صورة ثورة تقدمية ، تنقلب هي الاخرى بعد فترة طالت أم قصرت الى قوة راغبة في استقرار الوضع الجديد ودوامه على النحو الذي تريده وتصارع القوى الاخرى التي تبرز بعد فترة تنادي بأفكار وآراء جديدة مغايرة ... وهكذا سار خط التقدم البشري ، نزاعا بين قوى تريد السكون وقوى تريد التحرك » ، ثم قلت مباشرة انه « يصاحب هذه الحركة الانسانية القديمة الجديدة ابدا ، نوعان من الادب او الفكر » ، فالسياق اذن لم يكن سياق تصنيف بل توضيح للصورة التي قدمناها ، ولكن يحتمل ان الصورة التي ذكرتها مغلوطة... فكان يلزم على سيادته ان يكشف لنا عما فيها من خطأ .

فما هما هذان النوعان من الادب او الفكر ؟

ذكر المعلق الحصيف اننا صنفناهما الى « نوعين ، أولهما أدب بدعم الوضع القائم – يقصد الوضع السياسي القائم في الدولة – ويدعو له ويمجد ما هو كائن ... » ، وهذا يكشف عن حصافة الكاتب ومعرفته بالقصد ولما بين السطور ... وأنا لم أقصد « الوضع السياسي » ، والا كنت قلته ، وقد عبرت « بالوضع القائم » لاشير الى الوضع الحضاري كله بمختلف جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، هذه واحدة ، أما الاخرى فلم يكلف السيد نفسه ويقرأ بعناية ما ذكرناه عما نسميه بأدب الدعاية الوقتي ، وتقييمنا له في عبارات موجزة ، فلم يكن هذا الموضوع موضوع بحثنا ، ولم يلحظ اننا قلنا ان خير ما في هذا النوع من الادب من الناحية الاجتماعية ما ساعد على تثبيت تضامن الجماعة وتماسكها ... ثم ذكر « وثانيهما ادب يتطلع الى المستقبل ، وهذا النوع من الادب يلاقي كبتا من السلطات الحاكمة، ومن ثم فهذا النوع من الادب يسميه ادبا خالدا وانسانيا بطبيعته يتابع حركة المصير الانساني » ، وبصرف النظر عن عدم دقة سيادته ، وعدم ربطه ذلك بالسياق السابق ، فاننا نقول ان ذلك بديهي لانه ادب يريد تغيير الوضع القائم ، فلا بد ان القوى صاحبة المصلحة في ثبات الوضع القائم ودوامه ، ستقابله بالكبت والردع او الرفض لانه ضدها .

ولكن سيادته عبثا حاول ان يقنع نفسه بهذا المنطق ، وتساءل « ألا يجوز ان يكون هناك ادب خالد الا اذا كان يعارض نظام الحكم القائم ؟ أو هل كل ادب يساير نظام حكم ما يجب بالضرورة ان يكون أدبا وقتيا سريع الزوال ؟ أعتقد ان جواب السؤالين هو النفي » ... بهذا التساؤل يعترض كاتبنا على ما قلنا ... ورغم ما في تساؤله من تبسيط مخل للقضية ونزعها عن سياقها ، الا انه لم يقل شيئا بل اكتفى باعتراض استفهامي ، الا اننا نوضح لسيادته اننا لم نذكر الخلود كصفة مطلقة بل قلنا الخلود النسبي ، وكذلك لا يلزم من قولنا

ان الفكر الذي يتطلع الى المستقبل ويرفض ما هو قائم ، ويبشر بما هو آت ويساعد على خلقه وابرازه ، ويتابع حركة المصير ... لا يلزم من هذا اننا ننفي عن غيره صفة القيمة الادبية ، وما دام هو رجلا مغرما بالمنطق ، فيلزم علينا ان ننبهه الى ان قواعد المنطق ترفض منطقه بشدة ، ولكي أوضح المسألة سأبسطها غاية التبسيط ، فاننا اذا قلنا ان « الادب المعارض ذو قيمة » ، وهذه قضية كلية ، يمكنك ان تصيغها على النحو التالي ، « كل الادب المعارض ذو قيمة » ، فمثل هذه القضية لا يمكن ان تعكسها فتقول « ان كل ما هو ذو قيمة (ادبية) أدب معارض » ، لانك بذلك تخالف قواعد المنطق منذ ارسطو ، ولو ان سيادته تكرم وفتح اي كتاب في المنطق لعرف ان عكس القضية الكلية الموجبة لا يمكن ان يكون كلية موجبة ... ولولا انه رجل مفتون بالمنطق ما حدثته قط في مثل هذا ، ونفس الخطأ موجود في سؤاله الثاني ... ثم تساءل حضرته معجبا : « ما رأي صاحب المقال اذا قدر لادب انساني خالد ان يعارض نظام حكم ما ان يصبح ادب دعاية بعد ان تغيرت الاوضاع لصالحه ؟ بهذا المنطق سوف يكون هناك صفتان متناقضتان لشيء واحد وهذا ما لا يقبله العلم والمنطق » ... ما شاء الله !

يا سيدي الفاضل محب المنطق .. ان « الادب التقدمي » الذي ينظر الى المستقبل لا يكون تقدميا بشكل مطلق ، فحين يتحقق ما كان يدعو اليه المفكرون حين تكون دعوتهم صادقة ، فليس معنى ذلك ان نفس الفكر والادب السابق يكون متسما بالتقدمية من جميع الزوايا بل انه يكون تقدميا بالنسبة لعصره ، ولا يمنع ذلك من ان نصفه حين يصبح جزءا من التاريخ بأنه تقدمي بالنسبة لعصره وغير تقدمي بالنسبة لعصر اخر ، وحضارة اخرى ... وتلك مسائل واضحة لا داعي للاطالة فيها . وبعد هذا لو تدبر صاحبنا ما قاله لعرف انه عبر بصورة رومانسية عما أراد ان يعارضه ، فهو يذكر ان الاديب حين يرى ان الحياة قاسية ويعبر عنها « بقلب مكلوم » و « روح شاعرة طموحة للوصول الى شيء ، وثورة على الحياة الاجتماعية ودعوة الى اعتناق وجهة نظر معينة » ، أليس ذلك هو نفس ما قلنا ، فمثل هذا الادب يعارض الوضع القائم المأساوي ويطالب بتغييره ، أما قوله « بأن القلب المفرح النشوان يكتب ايضا ادبا صادقا متغنيا بما هي عليه حال قومه وبما وصلت اليه من منجزات ما كانت تحلم بها في الماضي » ... فبصرف النظر عن كتابة القلب هذه ، فاننا لم نقل ان كل ادب يتغنى بالحاضر والواقع أدب دعاية بل بينا ان خير ما في هذا النوع من الادب او التعبير الذي يساير عصره ويمجد ما هو كائن ويتحرك في آفاقه ويبرز في اعياد الجماعة ويتغنى به وينال اصحابه الثمن ، هو ما ساعد على تثبيت تضامن الجماعة وتماسكها ولا يستطيع حضرته ان ينكر على مثل هذا النوع من الادب صفة الوقتية والدعاية ... بمعنى محاولة التأثير في رأي الجماعة وسلوكها اما بهدف خلق آراء يراد اقناع الناس بها من اجل تثبيت الوضع القائم او اقناع الناس بما هو قائم وحشدهم لتأييده .

***

وأما الكاتب الاخر الذي من القاهرة ، فأمره عجب ، وهو مثال طريف لادعاء العلمية والتحليل .

فماذا قال ؟

أولا ، حاول سيادته ان يستعرض القضية في صورتها العامة ، وأراد ان يلم بخيوطها ، « حتى يحدد من خلالها موقف الاديب من الدولة » ويوضحها تماما « ليس من اجل قضايا الادب السوفييتي ولكن من اجل قضايانا العربية المعاصرة ، تشكر يا سيدي ... وخيرا انتويت ، وحتى يجهز على المسألة ويقتلها بحثا وضعها في صورة « الاديب والدولة ومفهوم الحرية » .

وبالرغم من ان العرض الادعائي مليء بالتهجم ، ورمي الناس بالدون كيشوتية وغير ذلك ، الا انه لم يرد على شيء مطلقا مما ذكرنا عن طبيعة الدولة الشمولية وموقفها من الادب والفكر بشكل مباشر ، ولكنه دافع عن ذلك بطريقة غير مباشرة ، وخان قضية الحرية ... ولم يناقش مما ذكرنا الا ان زعم ان طرحنا القضية تحت عنوان مشكلة الاديب والدولة « يحوي ضمنيا مغالطة جوهرية ، وذلك لان للقضية ثلاثة اطراف لا طرفين ، الاديب والدولة والمجتمع » ... فاين هذه المغالطة ؟ ألم يعرف اننا تحدثنا عن الدولة باعتبارها السلطة العامة ، أو ما يسمى بالسيادة ، وان الدولة تفترض سابقا المجتمع ، وان من اركان الدولة - فيما يقول رجال القانون - الامة او المجتمع او الجماعة ان شئت ، ثم السيادة والاقليم ، بل ولم يكن حديثنا متجها قط الى الحديث عن الدولة والاديب الا باعتبار الحديث عن اصحاب الاتجاهات الشمولية او الكلية او الجماعية في تنظيم المجتمع ، منذ افلاطون حتى الوقت الراهن ، فكيف سولت للكاتب نفسه الزعم اننا تجاهلنا الحديث عن المجتمع !

وما معنى ان يكون كلامنا متجها الى لمس قضية موقف رجال السياسة او مهندسي المجتمع من الادب والفكر والرغبة في السيطرة عليه باعتباره وسيلة للضبط الاجتماعي ، ولكن يبدو ان المعلق المفضال قرأ العنوان وعبارة واحدة من داخل المقال لا علاقة لها بالقضية تماما ، وقيل له اننا كتبنا نهاجم موقف الدولة في روسيا من الادب ، فراح يقول كل الذي قال دفاعا وتبريرا ، وقبل ان نلقي نظرة على الذي قاله... ما هي العبارة الاخرى التي قرأها ؟ اننا قلنا « ولاول مرة نشرت بالعربية مقاطع طويلة وافية من خطاب خروشوف عن الادب والفن في ٨ مارس ١٩٦٣ » ، فراح حضرته بتظرف فاضح يقول انه يهمه ان يقول لي وللقراء طبعا « ان خطاب خروشوف في اجتماع زعماء الحزب والحكومة برجال الادب والفن في ٨ مارس ٩١٦٣ ، ترجم بكامله الى العربية وصدر في كتيب من ٦٢ صفحة منذ مايو الماضي ... فقط حتى لا أقع في الخطأ الذي اخذته على الصحفيين كما ذكرت في مقالي » شكرا سيدي على التنبيه ، ولكن اسألك ان تقول لي من هو مترجم الخطاب ، ومن ناشره ؟ ولعلمك ان اسم المترجم ليس مكتوبا على هذا الكتيب فقد سألت عنه حتى دلني أولاد الحلال ... والمكتوب بشكل ظاهر على هذا الكتيب فعلا هو اسم الجهة التي نشرته ، فمن هي يا ترى هذه الجهة ؟!.. كنت أربأ بحضرة الكاتب عن مثل هذه ... ويكفيني ان اقول فقط وباصرار انه رغم ان الخطاب ترجم فعلا وطبع ووزع ... لا أدري كيف ... الا ان ذلك لا يعتبر نشرا بحال من الاحوال ... ويكفي هذا

ولنعد الى ما قال ... ان الكاتب المفضال افتعل بسرعة اضافة مسألة المجتمع الى الدولة والاديب ، لكي يحدثنا في عرض مكرور مبتسر لما فهمه عن التفسير الماركسي لتطور مفهوم الدولة والحرية ... ولست أرغب في مناقشة مثل هذا الكلام الان ، بل ولا أزعم لنفسي القدرة على ان أحسم الموضوع في مقال او اكثر ، كما توهم سيادته انه قد اوضح تماما موقف الاديب من الدولة ، وأضاء مفهوم الحرية « لان قضية الحرية لم تطرح بشكل علمي في الكتابات العربية » ، وهو قد طرحها بشكل علمي وانتهى منها في مقاله !

ولكن حسبي ان اذكر سيادته ان الرأي الذي تبناه ليس هو

الرأي الوحيد ، بل من المؤكد انه تصوير يحتمل كثيرا من الجدل والخلاف في كثير من نقاطه ، وان زعم قائلوه انه وحده هو التفسير الوحيد الصحيح لانه « علمي » وهو ايمان يتعارض مع طبيعة العلم وروحه ... وحتى لا نضل في متاهات الجدل ، نعرض لصلب ما اراد الكاتب ان يدافع عنه ، فهو قد حلل .. ووصل الى ان الدولة كجهاز للسلطة « حين تعمل من اجل مصالح الجماهير العريضة ، ففي هذه الحالة لن يكون ثمة تعارض بين الفنان المعبر بحق عن قضايا الجماهير العريضة من الشعب هو الاخر ، وفي هذه الحالة لن يكون المجال متسعا للطنطنة بشعارات الحرية » ، و « من واجب الدولة في هذه الحالة ان تكفل وتحمي مصالح هذه الطبقات وان تقف بلا هوادة ضد (حرية) التخريب » .

وتلك ، في رأينا ، هي القضية والمشكلة .

فالكاتب يريد ان يدافع بشراسة عن دولة واحدة هي « الدولة المقدسة » ، التي تزعم انها تعبر عن قضايا الجماهير ، وهو زعم قديم ، وأسطورة العصر الحديث الذهبية ، ومن حق هذه الدولة ان تقف (انه يعيد ما قاله مرة اخرى) « بلا هوادة وبكل امكانياتها ضد هذا الفنان الذي يبغي تمييع وجدانات الشعب والانصراف به عن قضاياه الاساسية ... خاصة وان هذا النوع من الدول يكون على وعي شديد بدور الفن الطليعي وبامكانياته الوافرة في البناء » .

ومن أسف ان هناك مشهدا حزينا من مشاهد المسرحية الانسانية يتكرر في تاريخ العالم الحديث والقديم ... وهو المطالبة بالحرية – حرية النقاش والتعبير والتفكير والحريات العامة ، المطالبة بالحاح وبعنف بل والتضحية من اجلها احيانا ، كل هذا عندما تكون في صف المعارضة ، ثم حين تستولي على السلطة تصادرها بل وتسفهها وتبرر انعدامها وتتهم المطالبين بها مثلك سابقا بالخيانة والتخريب ، كأن كل ذلك كان قيمة وسلية او ذرائعية حتى تصل أنت .

ثم ينطلق بسرعة الى هدفه ، بعد ان يشتم جميع الذين عالجوا موقف خروشوف من الفن التجريدي ، ويأسف لسطحيتهم ، ويقف متبخترا ، ويقول « اننا بعد ان نظرنا الى القضية من جميع جوانبها نفهم موقف خروشوف من الفن التجريدي ، فهو يرى انه من وجهة نظره كممثل للدولة اتجاه تخريبي يميع وجدانات الشعب ، « ويدفع به في متاهات وسراديب مظلمة تنصرف به عن قضاياه الاساسية » ... ثم يقول الكاتب وهو يدق على نفس الطبلة بل وأعنف من اصحابها « انه لا يمكننا ان ننكر ان ترك العنان لمثل هذا الاتجاه من شأنه ان يؤثر في اطار رؤية الجماهير للجمال وفي فهمهم له » .

وقد حمدت الله ان مثل كاتبنا هذا ... ليس هناك لانه كان قد ألقى بثقل الدولة كله على طليعة الفنانين في روسيا ، فيسحقهم في غمضة عين ، والحمد لله مرة اخرى ان الذين هناك اكثر عقلا وحكمة من صاحب « عدم الهوادة » وداعية العنف مع الفنانين ... ومثل هذا الكلام او الدفاع خير منه التهمة نفسها ، وهو كلام لا يحتاج الى نقاش طويل او قصير ، واني أشك ان كان سيادته يعرف ما هو الفن التجريدي حتى يحكم عليه بأنه « يميع وجدانات الجماهير ، ويؤثر في اطار رؤيتهم للجمال » ... ما معنى هذا الكلام بالله عليك ؟

وهل من اجل هذا الفهم غير المحدد ، وهذه الاحكام الغامضة على بعض القضايا الفنية ، وتوهمنا ان فنا ما « يدفع بالشعب في متاهات وسراديب مظلمة تنصرف به عن قضاياه » ... اسأل أي عاقل ما معنى هذا الكلام ؟ وان وجدت خلفه فعلا بعد لأي وجهد شيئا ما ، فقل له انني بناء على هذا سأوجه التهمة الى الفنانين ، وأسحقهم بلا هوادة ... ولو فكرت أنت نفسك لحظة ولم تكن محبا للتضحية بقرابين بشرية على مذبح عقيدتك ، فستجد انك مقدم فعلا على عمل سخيف بل غير انساني .

وهذا الموقف الذي وقفه كاتبنا المفضال ، أو عبر عنه أو ذكرنا به بالاحرى ، هو ما يمكن ان نسميه رجعية اليسار او رجعية الثورية او جمود الثوريين ، ان صح مثل هذا التعبير ، بمعنى انها ليست رجعية تحاول « ارجاع الساعة الى الخلف » ، ولكنها تحاول عندما تبلغ الساعة « هدفهم الثوري » ، ان تجعلها تقف وتدور في نطاق هذه الصورة ، وهذه الصورة عادة ما تكون يوتوبية ، اي صورة مثلى ... ولكنها لا تتحقق على الاغلب ، وهم يدورون عادة في نطاق الاعداد لهذه الصورة ، وباسم هذا الاعداد يطالبون باللاهوادة ... وبالتطهير وبالسيطرة المطلقة على جهاز الدولة (ديكتاتورية البروليتاريا) ، ولما كان من المؤكد ان هذه السيطرة شيء بغيض ، قالوا أن ذلك مرحلة مؤقتة ... أعطونا الدولة ، أعطونا مقود التنين ، وبعد مدة سيموت الوحش وتذبل الدولة وتختفي وتعود الحرية التي اخذناها ... وان العصر الحديث وما أسبغه من سلطات على الدولة ، استتبعت ظهور حركات مناهضة الدولة والحكومة والسلطة فيما عرف في القرن التاسع عشر من مذاهب مناهضة السلطة او انكار الحكومة كما تمثل لدى كروبتكين وباكونين وما دعي في العربية باسم الفوضوية ، وكان ماركس وانجلز ولينين متفقين في تفكيرهم الى حد بعيد مع هؤلاء رغم معارضتهم الشديدة لهم ، حين قالوا بأن الدولة سوف تختفي في المستقبل حين تختفي الصراعات الطبقية ولا تكون هناك طبقات فلن يعود المجتمع في حاجة الى الدولة وستختفي من تلقاء نفسها او على الاقل سوف تختفي وظيفتها في الاكراه والقمع ... ولا ننسى ان هذا التفكير جميعه وليد مرحلة واحدة وبيئة متقاربة هي بيئة اوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وفي النهاية أحس الكاتب بالمزلق الوعر الذي انساق اليه فاعترف بأنه « لا يجب ان يفهم من هذا انني مع تدخل الدولة السافر وتسلطها على كافة نشاطات الفكر لانني أؤيد تماما حرية الفكر » – اذن فهو ليس مع تدخل الدولة « السافر » ، فهل هو مع تدخلها غير السافر ؟ وهل يتفق ايمانه بالحرية مع دعوته الى اللاهوادة مع الفنانين ؟

***

اننا مع القوى الوليدة التي تبرز على انقاض القديم ، وهناك دائما قوى جديدة باستمرار ... وينسى الاخوة اليعاقبة الجدد اننا حين نطبق نفس منهجهم الجدلي سيكونون هم أول المتنكرين له ، اذا لم نصل الى نفس النتائج التي يشتهونها .

القاهرة

عبد الجليل حسن

في الحرية والدولة والخلق الفني

بقلم مزاحم الطائي

يبدو لنا ان المصادرة على المطلوب صفة لازمة لتفكير المذهبيين وهي ملجأهم الاخير كلما اعوزتهم الحجة في اقناع الاخرين بفرضياتهم الفكرية فيعرضون مسلماتهم نفسها كدليل على صحة ما يقيمون عليها من فرضيات، ومما يزيد هذه الظاهرة وضوحا وشيوعا عندهم وعورة القضايا التي يتناولونها ، والمذهبي عادة لا يطيق صبرا الا بالاحاطة بكل شيء في المجتمع والوجود ووضع قوانين كلية لاوسع واخطر المشاكل الانسانية ببساطة لا متناهية .

فبعد ان يلغي السيد صبري حافظ (في العدد الثاني عشر من الاداب) من الوجود كل الكتابات القيمة في العربية عن الحرية بجرة قلم وباسم العلم المسكين (مع ملاحظته ان العلم هو المذهب حتما بنظر المذهبيين فنظريات آينشتين وفرويد ومندل تعتبر لا علمية في روسيا لانها لا مذهبية فحسب) يقيم عشرات الفرضيات على مسلمته القديمة « قضية الحرية مرتبطة اصلا بعلاقات الانتاج » وليس من دليل على صحتها سوى الايمان مقدما بصحة المسلمة نفسها .

ورغم ان مسألة الحرية اضخم من ان نحيط بكل جوانبها في هذه الكلمة وان مهمتنا ليست وضع مفاهيم محددة لها فاننا نود ان نقول ان الحرية التي عناها الكاتب الفاضل ليست الا حتمية مستورة ، فالانسان برأيه ـ وهو طبعا نسخة مكررة لما في كتب المذهب المقدسة ـ عبد في كل ادوار التاريخ وبكل امكانياته الباطنية بضمنها الفكر والفن لعلاقات الانتاج وليس من سبيل امامه غير التكيف وفقا لمتطلباتها .

ولا شك ان ارادة الانسان تخضع لقوى كثيرة مادية ومعنوية مما يخرجها من طبيعتها الحرة ، فكثير من افراد الشعبين الاميركي او الانجليزي عاجزون عن الالتحاق بجامعات هارفارد او كمبردج مثلا لان دخولهم السنوية تقل عن كذا الف دولار وبعض الاشخاص لا يجدون مناصا من قراءة كل ارقام السيارات التي تمر بهم في الشارع وبصورة قهرية وكل الناس لا يستطيعون الحركة على الارض الا وفقا لقوانين فيزياوية معينة، الا ان كل تلك القوى الاقتصادية والنفسية والطبيعية الطاغية على الانسان لا تؤلف الاطار الوحيد لارادته بل ثمة كينونة تختفي وراء كل تلك الظواهر ، وكما قال سارتر فثمة شيء لا يتغير يختفي وراء الاوضاع التاريخية المتغيرة والتي يطيب لجماعة معينة من المذهبيين الاستشهاد بها كثيرا .

وذلك الشيء الخفي الذي ندعو بالحرية ، ونستطيع مع تجاوز كبير ان نعرفه ـ حسب رأينا الشخصي (لان التعريف حد منطقي للظواهر الفيزياوية فقط) بالقدرة على الفعل ، ليس شعورا مبهما في ثنايا النفس بل تصميما باطنيا ينبع من ذات مقتنعة ليتحقق في عالم حسي ملموس وليخلق بدوره امكانيات واحتمالات جديدة امام صاحبه وامام الاخرين ، ولهذا فان قدرة الرأسمالي على استغلال عمال مؤسسته مثلا لا تعتبر حرية بنظرنا ما دامت تخنق كل امكانيات هؤلاء وتعرقل تفتح ذواتهم على عالم ثر خصيب .

هذا اعتراض رئيسي على مصادرة الكاتب المحترم عن الحرية . واما بقية الاستنتاجات التي ، ذكرها عن سيطرة الاحتكارات وكبت الافكار في الولايات المتحدة فرغم اننا نؤيدها في النتيجة تماما الا انه كم كان من اللائق ان يسوقها كحجج على كاتب من اعضاء منظمة حرية الثقافة او ما شاكلها ، وليس على كاتب عربي يبدو مخلصا في وجهة نظره من قضية الحرية ولم يبد عليه قط انه اتخذ من المفهوم « البرجوازي » اساسا لها او ادعى ان اميركا بلد الحريات !

ورغم ذلك فقد بدا المثال الكامل الوحيد الذي جاء به في استنتاجاته تلك ساذجا حتى بالنسبة لمن قلنا انه يجب توجيهها اليهم ، ففي الوقت الذي يستطيع واحد منهم (على احمد سعيد في كتاب قضية باسترناك) ان يبرز قائمة طويلة باسماء الكتاب والشعراء الذين اعدموا او انتحروا في روسيا السوفياتية لم يأت الكاتب المحترم بغير هوارد فاست (المثال التقليدي) ويظهر ايضا ان السيد حافظ قد فاته متابعة النشرات المذهبية الحديثة والتي اعتبرت « هوارد فاست العظيم » انهزاميا ومستسلما للمكارثية الاميركية بعد موقفه من قضية المجر : ولا اعلم بعد ذلك مدى صحة ما قاله من انه « مات في غياهب السجون ! »ـ

ومن الغريب ان يدعى السيد حافظ ان كاتبا كبيرا مثل لويس عوض (مع الانتباه الى ان كتاباته في فترة معينة من حياته الادبية كمقدمة « برومیثوس طليقا » « وفي الادب الانجليزي الحديث » نالت الاعتراف الشرعي الكامل من دعاة المذهب في العالم العربي) لا يملك مفهوما واضحا عن الحرية ، ولعل ذنبه انه لم يضغط ذلك المفهوم في كليشيات تطبع في صدر كل مقال يحرره وعجزه ، وان كلا من السادة صلاح عبد الصبور وسهيل ادريس وعبد الجليل حسن ليسوا من القدرة على اتخاذ موقف ذاتي اصيل من قضية الحرية وليس عليهم غير الانحياز اما الى جانب الموقف البرجوازي العفن او الموقف الماركسي المبتسر (القياس الحرج نفسه !) .

وبسبب من الصعوبات المستعصية على الحل في صلب المذهب نفسه فقد بدا تلميذا صغيرا كالسيد حافظ مرتبطا في كلامه عن الدولة وعلاقتها بالنشاط الفكري ، فهو اذ يحتج بكل شجاعة على (تدخل الدولة السافر في كافة نشاطات الفكر) لايرى تعارضا بين (الفنان الثوري والدولة التي تعمل من اجل الجماهير) !.

فالنظرية الماركسية التقليدية في الدولة هي كما يلخصها لينين في كتابه الدولة والثورة نتاج التضادات الطبقية وجهاز السيطرة واضطهاد طبقة لاخرى وتظل غير حرة وغير شعبية ما لم يتم استبدالها بالدولة البروليتارية بثورة عنيفة ، وقد ذكر برتراند رسل في كتابه « سبل الحرية » ان اراء ماركس في الدولة بعد الثورة غير واضحة تماما . الا انه منذ قيام الدولة السوفياتية في روسيا اصبح واضحا للعيان ان النظرية الشيوعية قد تحجرت عند الوقف الذي سبق واستنكره الاشتراكيون الثوريون (كبا كونين) على ماركس الا وهو دفع الحركة الاشتراكية صوب طغيان بروقراطية الدولة بدلا من النضال الجاد في سبيل افنائها ، وثبت ان هجوم ماركس على الدولة لم يكن الا هجوما ديماغوغيا متذبذبا ظهرت نتائجه فيما بعد ، في عهد لينين وستالين حيث قاما بفلسفة الاتجاه الجديد الى دكتاتورية الدولة الفظيعة ومقاومة الاراء المعارضة في داخل روسيا نفسها كاراء بوخارين وتوخاتشيفسكي الداعية الى نبذ حكم الدولة في فترة الانتقال الى الاشتراكية ، وانتهى المذهب من الناحية العملية الى تخليد كيان الدولة وجعله كيانا مجردا (فوق العلاقات الاجتماعية نفسها وخلافا لقواعد المذهب) باستطاعة اي من البروليتارية او البرجوازية الاستفادة منه دون ضرر .

هذا في الوقت الذي اعتبرت الدولة بنظر المفكرين الاحرار احدى القوى المتسلطة على ارادة الانسان والتي لا مجال للتهاون معها مطلقا . وقال ستيرنر ان ليس للدولة الا غاية واحدة هي اخضاع الفرد واستعباده والحاقه بشيء وهمي اكثر شمولا منه ولا يمكن لها ان تنهض لا في عهود تخلف الفرد وضعفه ، وسارت الحركة الاشتراكية الثورية العالمية في هذا الاتجاه فعلا . ويقول المفكر اليوغسلافي ادوار كاردل ان الدولة لا تصبح اشتراكية الا عندما تبدأ بالذبول .

والفكرة الاخرى التي تشتمل على المصادرة المنطقية في كلمة السيد حافظ « ان طبيعة الانتاج الفني تحددها على المدى الطويل جدا طبيعة علاقات الانتاج السائدة » وهي فكرة قديمة مللنا من كثرة اقتباس الاتباع لها ، ومن اشد الافكار تجريدا في كتابات الماركسيين ويكاد اصحابها يقتصرون في تبريرها على بضعة شواهد بالية من عهد بليخانوف او بضعة تعليقات جانبية غير مقنعة لانتاج كاتب معين ، بل ولجزء من انتاجه . وكم كان بودنا ان نقرأ محاولة واحدة جدية تستطيع اخضاع كل النتاج الادبي والفني لعصر معين لطبيعة علاقات الانتاج القائمة فيه .

اذ يبدو لنا ان كل عصر ادبي (كالادب الفرنسي في القرن الثامن عشر او الادب الاميركي في القرن العشرين) يحوى سمات الادب في المراحل السابقة والتالية له حسب اصطلاح اتباع المذهب الماركسي (ادب البطولات الفردية الاقطاعي وادب الجنس البرجوازي وادب الاهتمام باوضاع الكادحين الاشتراكين مثلا) . وان اختلاف تلك المراحل لم يكن عائقا ابدا لاعجاب ابناء المرحلة اللاحقة لانتاج فناني سابقاتها ، فكتابات المأساة اليونانية (عصر الرق) والشعر العباسي (عصر الاقطاع) لاتزال مثار اعجابنا ونحن في عصر الرأسمالية الاحتكارية كما يقولون .

وكلمة اخيرة في تهجم خروتشوف الهزلي على الفن التجريدي ومحاضرته عن واجب الادباء السوفيات ، وقد سبق وقلنا في الثقافة القاهرية (٢٩ - ١٠ - ١٩٦٣) ان الاساس النظري لموقف خروتشوف هو ان الماركسية ترى في الفن مجرد واسطة لفهم الحقيقة الاجتماعية كما يفهمها المذهب طبعا وانه يجب ان يسخر في خدمة الطبقة العاملة والحزب الذي يحمل رايتها ، ونضيف هنا ان ما اثار اهتمام الناس فيه ليس تعصبه الزائد او سماجة الالفاظ المستعملة بل ما يدل عليه الهجوم نفسه من عجز اعتى مذهب صلد عرف حتى الان عن الوقوف امام تيارات الفكر الحر وازدياد هبوبها شدة وسعة يوماً بعد يوم .

الاعظمية (العراق) — **مزاحم الطائي**

النقـد والاخلاق

بقلم صبيح رديف

النقد عملية تقييم وبناء لا عملية تلفيق وافتراء ، تلك حقيقة يعرفها كل الذين عانوا ويعانون عملية النقد والابداع الفني في ادبنا العربي الحديث في كل المجالات الادبية المختلفة القضايا والاهداف والتطلعات .

والنقد ليس عملية ابتذال وسب وشتم وشهرة زائفة تأتي عن هذا الطريق وعلى حساب الاخرين فان مثل هذا الاسلوب يسيء الى اصحابه ويرمي بهم في مهاوي الندم بالابتعاد عن قيمنا العربية الاصيلة التي خطت لنا اسلوبا حياتيا رائعا وجميلا في جملة العقيدة التي حمل لواءها اول رائد للعقيدة الحقة الرسول العربي الكريم محمد (ص) فاين نحن منها ومن سمو اخلاقه وطريقته في الحياة وفي معاملة الاخرين؟. فان لم يستطع ذلك الناقد المحترم فليس من حقه ان يتباكى على العقيدة والادب العقائدي !.

لقد اراد بهذا الاسلوب الذي اتبعه ان يشار له بالبنان على انه (ناقد) ولا يهمه ان يكون (ذلك) عن طريق الاختلاق والكذب .

بمثل هذه (التقدمة) الكلامية اردت الرد على ما ورد فيما كتبه السيد عبد الرحمن الطهمازي تحت عنوان (واقع الادب في العراق) في باب (مناقشات) من مجلة الاداب الغراء (١) لاضع الحقائق الناصعة امام القراء كي تظهر (الشخصيات) التي تريد وتطلب الشهرة بالكذب والتلفيق عارية لا لتسيء الى نفسها وانما للاساءة (المقصودة) بمجلة ادبية معروفة مثل مجلة الاداب .

ايها القاريء العزيز تعال لنقرأ معا ما كتبه الطهمازي في هجومه على جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين وبقدر ما يتعلق الامر بي (ايضا) قوله « اما مأساة « الفكرة الاصيلة » فهي اخطر ازمة عاشتها الجمعية ، فمن كتاب (يوسف عز الدين شاعرا وانسانا) الذي كتبه (صبيح رديف) والذي اشيعت حول تمويله الشائعات . وبعد انتشار الحقيقة لم يخرج الكتاب الى السوق بعد الاعلان عنه في الصحف والمجلات ، ولكنه وزع بسرية الى الاصدقاء الكثيرين !! ولا تزال عشرات منه في البيوت تنتظر الاصدقاء » .. فلا يسعفني الان الا ان اوضح الحقيقة . فالكاتب رغم ادعائه قراءة الاعلان عنه في الصحف والمجلات لم يستطع ذكر اسم الكتاب بصورة صحيحة ، والشيء الاخر ان الكاتب قد فاته ان يذكر ما هي الشائعات التي حامت حول تمويله والتي حالت دون اخراجه الى السوق مما ادى الى توزيعه بصورة سرية . ولا ادري لم هذه السرية ؟. هل هو منشور حزبي ؟ فالمعروف انه حتى المنشورات الحزبية (السرية) توزع على اكبر عدد ممكن من الناس بما يشبه العلنية (كما كنا نرى) . فكيف والحالة هذه بالنسبة لكتاب نقدي اعلن عنه في الصحف والمجلات لا يصل الى ايدي الناس ويتمتع به الاصدقاء (فقط) دون الاخرين . ان الذي اطلبه من (الاديب الناقد) هو ان يدلنا على المطبعة التي طبعت الكتاب سواء كانت داخل العراق او خارجه واني اتحداه ان يجد نسخة واحدة (مطبوعة) عند الاصدقاء (كما ادعى) او عند غيرهم .

فعلام هذا الكذب ايها الرجل ؟ افلا يمكن ان يصبح الناس كبارا في عالم الادب دون الالتجاء الى الكذب والتلفيق ؟

والفرية الثانية التي اطلقها عبارته التالية التي لفقها على الدكتور يوسف عز الدين حول مقال له نشر في مجلة المعلم الجديد (البغدادية) بقوله « واما في الشعر فموقف الدكتور يوسف عز الدين مشهور ، وخاصة في دعوته لـ « ادب المناسبات » في مجلة «المعلم الجديد » سنة ١٩٦٠ . والتي يتصور فيها ان ادب المناسبات هو ان يتغنى الشعراء « بمنجزات ثورة تموز وبطل تموز » كذا » . وحينما رجعت الى المقصود الذي كتبه الدكتور يوسف عز الدين لم اجد هذه العبارة التي ذكرها الناقد المحترم اطلاقا . فاين هي الامانة في النقد ايها الرجل ؟. هل هي (عندك) في اجازة ؟.

ان من حق اي انسان سواء كان من القراء او النقاد اعطاء آراء (تذوقية) ساذجة او نقدية معللة حول اي اثر فني ولكن ليس من حقهم شتم الناس وسبهم او صب لعنات الحقد الاسود على الاثار الادبية قبل الاطلاع عليها او رؤيتها (دع عنك قراءتها) . فاي امانة فكرية او نقدية يمكن ان يدعيها (الطهمازي) ويواجه بها القراء والادباء والنقاد في المستقبل وهو يقوم بعملية بناء مجده الادبي !؟.

بغداد — **صبيح رديف**

(١) راجع مجلة الاداب العدد الحادي عشر . تشرين الثاني - ١٩٦٣

مرآة الغرب

تقديم الدكتور عمر حليق

هذا باب جديد تقدمه «الآداب» مع مطلع العام، وفيه يستعرض احد كبار المثقفين العرب، الدكتور عمر حليق، المقيم حاليا في اوروبا، مختلف وجوه النشاط الثقافي الاجنبي .

المئة الاوائل من الرسامين الاحياء

تولى «مجلس الفنون» البريطاني توضيب معرض رسوم فريد من نوعه المفروض فيه انه يمثل المئة الاوائل من الرسامين الاحياء في مختلف الشعوب والثقافات . وقد افتتح المعرض في قاعة (تيت) في لندن بعد ان اشرف مجلس الفنون وطائفة من المؤسسات الثقافية في بلدان عديدة على توفير الرسوم له رغم تعدد مالكيها ورغم الجدل الذي لا مفر له ان ينشأ بين النقاد والمستشارين حول صواب الاختيار .

والزائر لقاعة العرض يترقب اول الامر ان يواجه هذه النماذج المألوفة من مشاهير الاسماء : (بيكاسو) و (سالفادور دالي) و (براك) و (كوكوشكا) و (ميرو) واشباههم ممن تتردد اسماؤهم عند عشاق الرسم على انهم النخبة المختارة في حاضر الفن العالمي . ولكن سرعان ما يزول هذا الترقب . فالنماذج المعروضة تعمدت ان لا تتأثر بالشائع من المشاهير ولم تتعمد ان تختص مدارس معينة ، بحيث جاء التمثيل في قاعات العرض سجلا جميلا للقاسم المشترك الاعظم الذي يجعل من الابداع الفني وطنا مستقلا بذاته . فعلى الرغم من ان العرض قد تم على يد مجلس الفنون البريطاني الذي تعززه الدولة ماليا فان نماذج الفن البريطاني لم تتكابر على نماذج الاخرين لا في امكنة العرض ولا في كميته. فقد حظي الفنانون الامريكان امثال (بيتر بلايك) و (راوشنبرغ) والفنانون الفرنسيون امثال (دالفو) و (دوبوفيت) والايطاليون امثال (جياكوماني) و (جوتوسو) ـ حظي كل هؤلاء باقساط متساوية في الترتيب وفي دقة الاختيار . وقد واجه منظمو العرض بعض النقد حول اسس الاختيار الا ان اجماع النقاد انه اقرب شيء الى تمثيل عبقرية الرسم المعاصر.

مسرحية «انوي»

***

تأثر الادب واهله بدلال الاحداث السياسية حقيقة لا يقتصر ترددادها في ظل الحكم المطلق وانما في شتى القوالب والنظم السياسية التي تعيش عليها الشعوب مهما تفاوتت في اصولها الديمقراطية علوا او انحطاطا .

خذ مثلا ما حدث لمسرحية جان آنوي «بيتو المسكين» (PAUVRE BITOS) التي صادف ظهورها ابان معركة العدوان الثلاثي على قنال السويس . فقد احتسبها الفرنسيون او اكثرهم آنئذ على انها قد تذكي شعور العداء نحو فرنسا في الخارج ، لان في مضمونها لونا من الايحاء بان تاريخ فرنسا مشوب بطابع القرصنة .

ونظرا لوثوق التحالف بين فرنسا وبريطانيا في مغامرة العدوان على السويس احجم البريطانيون ـ وهم من عشاق آنوي والانتاج الفرنسي عامة ـ عن جلب هذه المسرحية الى لندن الا بعد ان تلاشت الزمالة البريطانية ـ الفرنسية واستبدلت بجحود سياسي متبادل مرجعه في رفض الجنرال دي غول قبول بريطانيا في عضوية السوق الاوروبية المشتركة.

واليوم يستقبل (مسرح الفنون) في لندن مسرحية آنوي في ترجمتها الانجليزية في كثير من التقدير لا لرفعتها الفنية فحسب بل لنوع من التشفي السياسي الذي يتقنه الطبع الانجلو سكسوني رغم ما يشاع عن تحجر عواطفه ازاء الاحداث .

والفصل الاول مشهده هذا النمط من انتاج آنوي ـ حفلة تنكرية انيقة ـ اصر صاحب الدعوة على ان يتقمص المدعوون اليها نماذج من شخصيات الثورة الفرنسية . ويدخل «بيتو» في ثوب نشاز من حيث اللون والهندام في هذا الجو الانيق فسرعان ما يشعر بحرج هو بادرة من سلسلة من الهمزات يحيق المؤلف بها شخصية «بيتو» ليبرز مدى غرابة المسكين عن هذا الجو الذي لا ينتمي اليه اصلا ومكانة . فقد تقمص «بيتو» شخصية «روبسبيير» سفاح الثورة . وهذا التقمص لا غبار عليه بحكم ان «بيتو» في الحياة العادية رجل ترقى رغم وضاعة نسبه الى مركز مرموق كنائب للمدعي العام .

وسرعان ما يسلط المؤلف على لسان «ماري انطوانيت» واشباهها من ذوي الرفعة والنسب الموروث سياطا من السخرية بحيث لا تقوى اعصاب «بيتو» المسكين على تحمله فيغمى عليه ويداهمه حلم طويل يستعرض فيه ماضي «روبسبيير» وبطشه على اعتبار ان مرده في قصور نفسي وجنسي عند «روبيسبير» حدا به ان يشتط في انتقامه من الخصوم لعجزه عن منافستهم في الظرف الاجتماعي وفي مخادع النساء . وقد تعمد مخرج المسرحية في لندن ان يسبغ على تمثيل «بيتو» طابعا واقعيا فيه لون من السماجة كهذه الحركات التي اكثر من ترديدها في غيبوبته يزيل بها الثياب عن جوار عضوه التناسلي بحيث يوحي الى النظارة بأنه يستمتع بلذة جنسية مصطنعة من النوع المألوف عند المراهقين.

وفي الفصل الثالث يسترد «بيتو» وعيه ويندفع في تجنيد هذا النزر اليسير من قوة الشخصية التي توفرت له ليقنع الاخرين انه حريص على الامتزاج بهم والانتماء الى مستواهم الطبقي غثه وسمينه . ويمعن مؤلف المسرحية في لحن السخرية فيترك لصاحب الدعوة سيلا من معسول الكلام وجميل الظرف والتأدب على هذا النحو الذي يتقنه المجتمع الباريسي يوحي به صاحب الدعوة الى «بيتو» المسكين ان الجمع في الحفلة لم ينصفه وانهم في صدق واخلاص يعتذرون عن هذه السخرية وعن الهوى والغبن الطبقي الذي احرجوه به . ولكن سرعان ما تتكرر السخرية في هذه القوالب الفاجئة التي يشتهر بها المسرح الفرنسي والتي لا اجد في اللغة العربية مدلولا موازيا لها على حد يصف هذا اللون من الفن المسرحي الذي يطلق عليه الفرنسيون كلمة FARCE

والواقع ان عنوان المسرحية لا يعكس بالضبط فلسفتها ومغزاها . فبطل الرواية «بيتو» شخصية قد تستدعي العطف والشفقة ولكن في بطن المؤلف شيء ابعد من العطف ومن الشفقة والرأفة على من يصبو الى مساواة في العدل الاجتماعي في مفهومه الطبقي . في بطن المؤلف لعنة على تافه القيم «سياسية ام اقتصادية ام حضرية» كهذه التي يتعلق بها ويصبو اليها من جفت قلوبهم وارواحهم سيان في ذلك اهل اليمين او اهل

اليسار ، اهل الحسب او ذوي النسب المتواضع ويتساوى عند المؤلف في هذه اللعنة الفقراء والاغنياء ، دعاة المجد ام الراكنون الى القضاء والقدر . ففي سياق الحوار براعة التعبير المسرحي حين يصارح عشيرته واهل العناد والعظمة الفارغة منها على وجه التخصيص ان التاريخ في اصوله صراع بين القراصنة .

مخلفات جديدة
من تراث برنارد شو

***

كان المعتقد ان الكاتب الارلندي المشهور « برنارد شو » لم يظفر احد مثله بدقة ما نشر من تراثه في الادب المسرحي وفي اللغة وادب المقال وفي ابواب اخرى من الانتاج الفكري ـ في النقد الموسيقي وفي الفلسفة الاشتراكية وفي الدراسات الشعرية ايضا .

وقد عثر مؤخرا على مجموعة من المذكرات الخاصة كان برنارد شو قد دونها خلال ثلاث عشرة سنة في مستهل شهرته الادبية وسجل فيها كل ما جال في خاطره عن الحياة الادبية والسياسية في تلك الفترة بما في ذلك الاف النبذ من النقد الذاتي لبعض المسرحيات والبحوث التي كتبها برنارد شو نفسه ونشرت او اخرجت على الناس .

وقد عثر على المذكرات في حجرة صغيرة في قبو المستودعات لمدرسة العلوم الاقتصادية في لندن ـ معهد الطريقة البريطانية للفلسفة الاشتراكية (والفابية) التي كان برنادشو من روادها .

ويستفاد من تعليقات صحف الادب في بريطانيا عن هذه المذكرات (فالمذكرات نفسها لم تطبع بعد) ان برنارد شو يسجل على نفسه قصورا جنسيا في معاشرته لهذا العدد الوافر من مشاهير النسوة (اديبات وممثلات وغيرهم) ويؤكد بان اكثر ما روج عن غرامياته في اوساط الادب وفي الصحافة كان مبالغا فيه .

وقد توقف برنارد شو عن تدوين مذكراته هذه في عام ١٨٩٧ ـ أي قبل وفاته بأعوام واعوام .

والمعتقد ان المذكرات ستنشر قريبا . فليس في وصية برنارد شو أي اشارة الى رغبته قبل الممات في ان تظل هذه المذكرات طي الكتمان لاجل مسمى ـ كما هيعادة بعض الادباء وخصوصا فيما يتعلق بهذا القالب الشخصي البحت في حياة الاديب.

راقص من القوقاز يغزو لندن

في سلسلة من الحفلات في الموسم الحالي للباليه البريطانية استأثر راقص روسي من بلاد القوقاز ببطولة الموسم ـ كفنان مكتمل طاعاته فنون الرقص وعبقرية الاخراج وهذا النوع الدقيق من جدية التعبير الفني في مدرسة الرقص الكلاسيكية .

انه الراقص نوريف ـ او نوري كما يبدو من التحريف الروسيلاسمه الشرقي . ونوريف هذا اعاد الى عشاق الباليه ذكرى عباقرته الروس ـ فالباليه علم على ما في الحضارة الروسية (قبل السوفييت وفي عهدهم) من عزيز صلاتها بالحضارة الاوروبية .

ونوريف في الخامسة والعشرين من عمره جاء الى باريس قبل عامين في مجموعة من الراقصين الروس لاحياء حفلات رسمية في اوروبا الغربية. ولامر في نفسه اختار ان يشق عصا الطاعة ويطلب اللجوء الى فرنسا فمنحته الحكومة الفرنسية هذا الحق . وقد اختار نوريف ان ينضم الى فرقة الباليهالبريطانية الملكية لاسباب منها ان هذه الفرقة تعادل ان لم تفق أية حلقة اوروبية او عالمية اخرى للرقص الكلاسيكي . ومنذ انضمامه الى هذه الفرقة البريطانية وهو يشق عصا الطاعة على مختلف اوجه التقليد الفني فيستنبط من عندياته قوالب جديدة له . ويظهر ان هذه الثورة الفنية هي سر رفعته الفنية اليوم وشهرته ونفوذه البليغ في حاضر الباليه البريطاني .

وآخر انتاج لنوريف في لندن هذا القالب الجديد الذي اخرج به قطعة كلاسيكية روسية قديمة وضعت عام ١٨٧٧ ولم تعرضعلى المسرح الاوروبي من قبل الا مرة واحدة ، عندما قدمتها الفرقة الروسية التي شق عصا الطاعة عليها في باريس نوريف نفسه . واسم القطعة « مملكة الظل » وقد اخرجها وقام بالدور الرئيسي فيها مشاركا فيها « مارجو فونتين » معبودة الجماهير البريطانية وملكة الباليه في اوروبا الغربية بلا منازع . ومس فونتين في حوالي الخامسة والاربعين الا انها في رشاقة المراهقين .

ونوريف في اخراجه لهذه القطعة الفريدة لم يتعمد طبعا ان يحور قبس الموسيقى وانما في توزيع الادوار وفي هندسة التعبير بالايدي والسيقان والخلجات ومختلف المقدرة الفنية التي لا تعرف حدودا ولا قوالب معينة ثابتة لتترجم بها ما في دخيلة الفن والفنان من تجارب .

الكاتب البريطاني (د. هـ. لورنس) فيضوء ادبي جديد

في سلسلة الدراسات عن مستوى الذوق الادبي التي تنشرها جريدة التايمس اللندنية في صفحتها الادبية بحث طريف عن الكاتب المعروف (د.هـ. لورنس) واحدى دعائم الادب الانجليزي بعد وفاته بمرحلة طويلة كان آخر نماذجها هذا الجدل الذي اثاره كتاب (عشيقة الليدي شاترلي) حين اجاز القضاء البريطاني قبل عامين فقط اباحة نشر هذا الكتاب في بريطانيا بعد عشرين عاما تقريبا على وفاة مؤلفه لورنس ، ففتح بذلك طاقة جديدة واسعة لحرية الادب وقوالبه التعبيرية .

ويعتقد « الاستاذ جوم » واضع الدراسة عن لورنس ان من اسباب الفشل في تأثر الذوق الادبي بانتاج لورنس ابان حياته نزعته الى النفور من هذه الرياضة الادبية التي يغرم بها معظم الادباء البريطانيين فيتعلقهم بمراجعة الادب القديم يستوحون منه قوالب جديدة لصياغة الذوقالادبي، في حين ان لورنس كان مغرما بمتابعة الانتاج الادبي المعاصر له علىاحتساب

انه اقرب الى مسؤولية الاديب في معترك الحياة . وفي الحالات النادرة التي تطرق فيها لورنس الى مراجعة الادب القديم كان اختياره لذلك ممعنا في القدم . ففي ((دراسات في اسس الادب الامريكي)) تعمد لورنس ان يكتشف ما لم يعبأ به او يتطرق له كتاب اخرون في مجال ادبي كالمراحل الاولى من نشوء الادب الامريكي كان الكثيرون لا يعتقدون بان فيه متسعا للدراسة والتحليل والاستنتاج . وكتاب لورنس عن الادب الامريكي القديم هو الان مرجع عتيد .

ويقول الاستاذ (جوم) عن اسلوب لورنس في الكتابة وغـرامه بالاعادة وبالتوكيد وفيما استنبطه من مختصر التعابير في اللغة والبديع والبيان ـ هذا الاسلوب كان تدبيرا متعمدا من لورنس يصر به على ضرورة الاصغاء ويؤكد به اهمية المشاركة بين الكاتب والقارىء بحيث يستوجب على القارىء ان يبذل من جانبه جهدا في الاصغاء يعادل جهد الكاتب في التعبير .



الدوس هاكسلي

***

مات الدوس هاكسلي عن ٦٩ عاما فانطوت معـه صفحة فريدة في الادب الغربي المعاصر ـ صفحة جمعت بين نور العلم وروحانية الادب وعمق الثقافة والتزام القلم في ان لا تقيده اعباء الميراث او يستعصى عليه هذا السيل المتلاحق من الانتاج المعاصر ـ فنا وعلما وسياسة وشتى ما يعتري الحياة العقلية من تطور او شطط . فقد جمع هاكسلي في وقت مبكر جدا كل هذه المقدمات الثقافية التي يستلزم جمعها في حضارة هذا القرن فجاء انتاجه الادبي نموذجا صادقا لهذا التمازج الدقيق بين مناهج العلم وبلاغة الادب واحساس المثقف بواجبه في خضم التيارات العنيفة الصاخبة التي اكتسحت تاريخ القرن العشرين . فقد كان الكتاب المفضل عند هاكسلي ((دائرة المعارف)) بمجلداتها الضخمة وبدقيق استيعابها لحضارة القـرن العشرين وامانة تسجيلها للتراث القديم ومراعاتها للمستجد في كل تطور يغذي الم بالحضارات الانسانية. وقد ولد هاكسلي في بيت من اعرق بيوت العلم والادب والثقافة الرفيعة في بريطانيا . فكان جده لابيه ((تـوماس هاكسلي)) من رواد العلوم الطبيعية ، وكان جده لامه اكبر مرب عرفتـه مناهج التعليم الانجلو سكسوني . وعلى موائد الطعام في هذا البيت العريق تلقى ((الدوس)) من اصول الثقافات ما لا يطمح في استيعابه الاخرون في سنوات طوال من التحصيل الجامعي .

وكان من المفروض ان يتابع الدوس دراسته في الطب الا انه عكف عن ذلك واختار الادب الانجليزي في كلية باليول باكسفورد وتخرج منها عام ١٩١٥ . وفي سنوات قلائل قدم الدوس هاكسلي الى اوساط الادب الانجلو سكسوني طائفة من الكتب لفتت الانظار بسرعة مدهشة والتف حـولها الاتباع والمريدون .

وفيما يلي اسماء الكتب وتاريخ نشرها :

ATHENAEUM	عام ١٩١٩
CROME YELLOW	((١٩٢١
ANTIC HAY	((١٩٢٣
THOSE BARREN LEAVES	((١٩٢٤
LITTLE MEXICAN	((١٩٢٥
TRAVELLING	((١٩٢٥
TWO OR THREE GAAEES	((١٩٢٦
PROPER STUDIES	((١٩٢٧
BRIEF CANDLES	((١٩٣٠
MUSIC AT NIGHT	((١٩٣١
THE OLIVE TREE	((١٩٣٦

وفي ادب الرحلات سجل هاكسلي في الادب الانجليزي لونا جديدا يسرد الاحداث ويربطها بالطابع الثقافي والحضري للديار التي زارهـا. ومن هذه الكتب ما يلي :

ALONG THE ROAD
TESTING PILATE
BEYOND THE MEXICO BEY

وقد توطدت صداقة هاكسلي مع الكاتب العبقري البريطاني الاخـر ((د. هـ. لورنس)) وكان لهاكسلي فضل في تعريف الوسط الادبي المحافظ في بريطانيا بعبقرية لورنس رغم الثورة الفكرية واللغوية والتعبيرية التي كانت في انتاج ((لورنس)) مما استعصى على الوسط البريطاني استمزاجه او قبوله . (فقد ظلت بعض كتب لورنس ممنوعة من النشر والتداول في بريطانيا الى ما قبل عام او عامين فقط) .

وقبيل الحرب العالمية الاخيرة هاجر هاكسلي الى امريكا وانشغـل فترة من الزمن في انتاج المسرحيات التمثيلية او السينمائية : الاصيل منها والمقتبس مثل :

JANE EYRE
ALICE IN WONDERLAND
SMILE

وسرعان ما نفر هاكسلي من هذا الجو الفني ونزع الى دراسة الصوفية والتصوف والى التعمق في صميم المشاكل السياسية والانسـانية التي جاءت بها الحرب العالمية الاخيرة . فانتج ما يلي :

- BRAVE NEW WORLD
- POINT COUNTERPOINT
- EYLESS IN GAZA
- WHAT COULD BE DONE ?
- THE DOORS OF PERCEPTION
- THE PERENNIAL PHILOSOPHY

وفي الكتاب الاخير على وجه التخصيص حمل هاكسلي لواء الدعوة الى الصوفية والتصوف والقوالب البوذية منها خاصة . وكان له الفضل في انتشار هذه النزعة بين عدد من الكتاب الناشئين في امريكا.

ولكن سرعان ما ابت طلاقة العقل عند هذا المفكر العميق ان تتقبل الحلول الصوفية لمشاكل الحياة . فقد وجد أن التصوف عمل سلبي يعد بالحلول ولكنه لا يحققها . وترك هاكسلي الصوفية الى غير رجعة.

ومن القصص التي كتبها هاكسلي في موطنه الامريـكي الجديد ما يـلي :

AFTER MANY A SUMMER
TIME MUST STOP
APE AND ESSENCE

وكان اخر انتاج جدي لهذا الاديب العالم كتاب ((الادب والعلم)) LITTERATURE AND SCIENCE وقد صدر قبل شهرين من وفاته . والكتاب رمز اصيل للرسالة التي حملها هاكسلي طول حيـاته رسالة الادب والعلم وعلاقتهما بمشاكل الانسان .

كاتبة ارجنتينية تكشف المزيد من شخصية لورنس

يبدو ان هذا السيل من البحوث والدراسات عن لورنس ودوره في ثورة العرب لا حـد لـه . فقد صدر في بريطانيا هذا العام وحده ثـلاث دراسات جديدة ، وفي اميركا دراستان .

وآخر ما تناقلته الاوساط المغرمة بلورنس ((وهي وفيرة)) دراسة جديدة اصدرتها كبرى الاديبات في الارجنتين الانسة ((مرغريتا اوكامبو)) وقد نقلت الى الفرنسية وعنها الى الانجليزية ـ حيث ضمان للمؤلف في سعة الوصول الى اكبر عدد من عشاق لورنس .

وهذه الدراسة الارجنتينية تتركز حول قوة ((الارادة)) عند لورنس وفقدان الجذور الدينية القديمة عنده .

فقد تمادى لورنس في التغلب على مواطن الضعف البشري في ارادته وعزمه واهدافه فاستطاع ـ كما تقول المؤلفة ـ ان ينسجم في غير عناد مع طبيعة الصحراء ومع طبائع المناخ العربي البدوي الذي اختلط به وزامله وأحبه حبا جما .

وتعتقد المؤلفة ان قوة الارادة هذه عند لورنس لو صاحبها ايمان دبني اصيل (في أي معتقد او مذهب) لاستطاع لورنس ان يبعد عن نفسه غلواء الشك وغلواء النقمة والشعور بالخطيئة ونكث العهود وما الى ذلك من النكسات التي اصابت علاقة لورنس بالثورة العربية وآمالها وبمواقف الاستعمار البريطاني بعد ذلك منها .

ولو توافقت وتجانست ارادة لورنس مع طرف اصيل من ايمان ثابت لكان من السهل ـ عند المؤلفة ـ ان يرتفع لورنس الى ـ صفوف القديسين .

فوضى التدبير في ظل الحكم المطلق

صدر كتاب في بريطانيا وآخر في الولايات المتحدة الامريكية يلقيان اضواء جديدة على اسطورة الدقة والتدبير وحتمية المصير في ظل الحكم المطلق . وكلا المؤلفين من الدارسين المتخصصين في التاريخ الاوروبي المعاصر ـ وعلى الاخص تلك الحقبة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الاخيرة .

اما الكتاب البريطاني وعنوانه :

HITLER'S Pre - War Policy and Military Plans

ومؤلفه هو ا.م. روبرتسون قيصر على ان هتلر لم يرسم لالمانيا أية خطة مدروسة لحتمية المصير في الصراع الالماني مع القارة الاوروبية . وان كل هذا القول الذي يسبغ على ديكتاتورية هتلر طابع الدقة والتنظيم واحتساب الخير والشر في فلسفة الحكم والسلوك السياسي والعسكري لم يكن الا هراء ـ كما تشهد بذلك هذه الوثائق التي تجمعت لدى المؤرخين الان عن الحقائق (لا الاطياف) في العهد الهتلري .

والواقع ان في بريطانيا مدرسة تاريخية يتزعمها استاذ الدراسات التاريخية في جامعة اكسفورد ((البروفسور أ.ج.ب. تايلر)) لا تعطي هتلر أي حظ من الكفاءة والمقدرة وحذق التدبير وبعد النظر كما هو مفروض ان يكون في طبيعة الحكم المطلق خصوصا اذا كان يستمتع بشعبية واسعة كما كان يستمتع هذا الديكتاتور النازي .

وفي بريطانيا ايضا يجادل هذه المدرسة التاريخية استاذ آخر ((من جامعة اكسفورد ايضا)) هو البرتو ـ تروفر ـ روبر ، فيؤكد في سعة المصادر والوثائق والتفسير التاريخي ان هتلر كان شديد الدقة مكتمل الوعي والحذق في كل خطواته السياسية والعسكرية وان الظروف القاهرة وحدها هي التي ادت الى فشل التجربة النازية .

واصحاب هذه النظرة يفرقون بين المخطط العام للحكم والسلوك في ظل الديكتاتورية وبين حذافير التدبير واجراءات السعي والبت . ويقولون ان الحكم المطلق مغرم في اكثر الحالات في خلق فلسفته الخاصة لما يجب ان يكون في مجرى الحياة القومية ـ فلسفة يشد ايمانها بما تعتقد انه حق وصواب وتحاول ان تصوغ الاحداث تبعا لذلك في قوة السلطان المقتدر . فاذا طرأ على هذه الاجراءات ما يعرقل نجاحها فالخطأ ليس في دقة التدبير وانما في الاطار العقائدي والفلسفي الذي تدور فيه .

ويقول مؤلف هذا الكتاب ان الحكم الديكتاتوري لا يرتكب اخطاء صغيرة وانما فشله دائما في قصوره عن ادراك الحق او الباطل في الاطار العام للنظام الديكتاتوري .

اما الكتاب الامريكي وعنوانه ALLIANCE AGAINST HITLER ومؤلفه وليام ايفانس سكوت فهو دراسة تفصيلية للتحالف الفرنسي ـ السوفييتي في السنوات السابقة لحروب هتلر . فقد ذعر الفرنسيون من هذه السرعة الفائقة التي تم النصر بها للنازية في احياء القوة الالمانية عام ١٩٣٣ وما بعد ، فاسرعت الحكومة الفرنسية للتحالف مع ستالين بحكم ان الشيوعية خصم لدود للنازية وان فرنسا ستضمن على الاقل سندا في روسيا السوفييتية يحميها من خطر التوسع النازي .

وكما يعلم الجميع فقد نكث السوفييت هذا العهد الفرنسي ـ الروسي وتحالفوا مع هتلر في عام ١٩٣٩ وتركوا فرنسا عرضة للغزو النازي .

وهنا مرة اخرى يستنتج المؤرخ عقم الاطمئنان الى القول الذي يؤكد ان الديكتاتور يعرف دوما اصول التصرف . فتحالف ستالين مع فرنسا عام ١٩٢٥ كان مدفوعا بخوف عميق من الخطر النازي وايمان منطقي بان من الخير لروسيا السوفييتية ان تجد في فرنسا حليفا يشاركها النقمة على النازية . وسواء اكان ستالين مخادعا ام غشاشا في تحالفه مع الفرنسيين ثم عكوفه عن هذا التحالف فان العقل الديكتاتوري لم يكن ـ في هذه الحالة وحالات عديدة مشابهة لها ـ يدرك بالضبط حقائق الاشياء ولم يكن يلتزم بمخطط اوبرنامج مدروس رغم اسطورة الحذق والدهاء وعمق التدبير التي تقال عن ستالين .

المسرح القومي الجديد في بريطانيا

واخيرا وبعد حوالي ١٥٠ عاما من صامت الدعوات لدى اهل الفن المسرحي في بريطانيا تحققت امنيتهم في مولد ((المسرح القومي)) وخصصت الدولة له بعض الموارد وقسطا من الطمانينة لا تتارجح تبعا لرواج التذاكر وقلق الروائيين والممثلين من عقم المغامرات المالية والتجارية في اخراج المسرحيات الكلاسيكية التي لا تقوى على منافسة المستجد من الادب الفكاهي والغنائي الذي يستأثر الان بالطاقة الكبرى في الانتاج وفي شعبية الاقبال .

والواقع ان بريطانيا بالذات ((على عكس ما هو في امريكا مثلا)) لا حق لها ان تشكو من كساد المسرح الكلاسيكي . فأدب شكسبير يجد دوما مجاله في الوسط البريطاني في كل موسم وفي اكثر القطاعات الريفية التي تنافس لندن احيانا في عشقها للفن المسرحي .

الا ان دعاة المسرح القومي لبريطانيا يصرون على ان في الميراث ما يفرض تفرغا كليا للمسرح الكلاسيكي لا تعرقله مشاكل التمويل او دلال شباك التذاكر .

وهكذا كان .

وقد اختير لادارة المسرح الناقد الشاب ((تاينان)) وهو ابرز قلم فني في حاضر الثقافة الانجلو سكسونية يعالج المسرح هذه الايام ومقالاته في مجلة ((الابزرفر)) البريطانية و ((النيويوركر)) الامريكية شاهد على رفعة هذا اللون من النقد والتوجيه .

وقد تطوع الممثل البريطاني المعروف ((لورنس اوليفييه)) في الاشراف على الاخراج والادارة الفنية .

والذين تسنى لهم (ككاتب هذه السطور) ان يشهدوا افتتاحية المسرح القومي بلندن في ((هاملت)) او في ((العم فانيا)) يطأطئون الرأس لرفعة التمثيل والاخراج وجدية التعبير في الديكور وفي الالقاء وفي عمق التفسير لضمير المؤلف ورسالته ـ عمق لا يمكن ان يعبر عنه الا هذا النفر الممتاز من الممثلين البريطانيين الذين يتميزون (مثل اوليفييه وجيلجود وماكس ادريان وغيرهم) بثقافة حضرية واسعة .

دايلان توماس تحت المجهر



دايلان توماس



كاتلين توماس

* * *

الشاعر (ديلان توماس DYLAN THOMAS) اسطورة عند بعض عشاق الشعر الانجليزي المعاصر رغم ان الشاعر قد توفي قبل عشرة اعوام فقط في سكرة حادة في حي الفنانين في نيويورك حيث كان يلقي مقطوعات من قصائده . فقد كانت حياة هذا الشاعر الانجليزي « الواقع انه من مقاطعة ويلز المعتزة بعصبتها القبلية واللغوية » نموذجا لما يروق للناس ان يكون عليه الشاعر : ثورة في السلوك والفكر واباحيةفيالاخلاق وتحلل من اكثر القيم المتعارف على صيانتها بين الناس .

وبقيت اسطورة « توماس » راسخة في حلقـــات الادب والشعـر الانجليزي اذكاها بضعة كتب صريحة وضعتها زوجته بعد وفاته وصفت فيها مزيدا من شذوذه (وشذوذها ايضا كمـا شهدت به في غرامها مـع ملاحي السفن في موانىء ايطاليا !) .

وللشهرة ثمنها ولا مفر لاصحابها ان يثور حولهم جدل . وهكذا كان لتوماس . فقد قص له النقاد البريطانيون ثوبا ادبيا ضيقا (انتاج توماس ضئيل فقد مات في مستهل العقد الثالث من عمره) بينما ناصره النقاد والامريكان على اعتبار انه من الرومانطيقيين الاوائل في هذا العصر المادي الصرف .

وقد اعلنت ثلاث جامعات امريكية تخصيصها فصولا موسمية طويلة لدراسة شعر توماس بينما رفضت دور النشر البريطانية اعادة طبعديوانه على اعتبار انه لا يضمن الرواج .

وقد اخذت زوجته تعد دراسة ذاتية عنه الا انها اشتكت بانهـا لا تمتلك وسائل او مخطوطات صالحة للاقتباس في تراث زوجها . وناشدت الزوجة عشيقات زوجها في مختلف ارجاء العالم الانجلو سكسوني بـان يزودنها برسائله اذا كن لا زلن يحتفظن بها . وقد ردت احـدى هـذه الخليلات فقالت « ان توماس كان مشغولا اكثر الوقت في عملية الحبفلم يجد الوقت للتعبير الكتابي عنه » . ووافقت الزوجة على هذا الوصف!..

واخيرا صدر كتاب الزوجة بعنوان :

NOT QUITE POSTHUMOUS LETTERS TO MY DAUGHTER.

« لابنتي طالما انا حية » .

وتقول الزوجة انها « حين يقال بان توماس لم يكن افحل شعـراء الدنيا ــ فانا لا اصدق هذا القول دقيقة واحدة ــ فان من صميم الاسىان زوجي لم يكن انانيا ولا فاقدا لرقة الشاعر والا فانه لو بقي لتفوق علـى الخليقة » .

والزوجة « واسمها كاتلين توماس » تصر على ابنتها بان : « مهمـا فعلت فلا تقربي الفن والفنانين » وتوصيها بان تعاشر الخبازين والحدادين ــ وخصوصا الحدادين !

وبين الزوج والزوجة في هذا الثنائي الادبي قبس من تاريخ الشعر والشعراء في عصوره القديمة ــ ثورة على الفكر وعربدة في الســـلوك وانطلاق يأكل الحياة حلوها وحامضها في نهم وسرعة لا تعبأ بشيء.

اسرائيل وبن غوريون

وعلى حديث فوضى التدبير في ظل الحكم المطلق استرعى الانتباه هذا الكتاب الجديد الذي نشرته المطابع الامريكية مؤخرا لحاخام السياسة والايديولوجية والحرب ايضا في اسرائيل دافيد بن غوريون . وعنـوان الكتاب : « اسرائيل : سنوات التحدي » .

والمفروض في هذا الكتاب ان يكون سردا للتدبير الصهيوني فـي اغتصابه لديار العرب . والكتاب واحد من عشرات تصدرها المطابع الغربية في سيل جارف من الوان الترغيب والترهيب والغش او الزهو الـذي يتحكم فيعقلية اقطاب الحركة الصهيونية ــ ودافيد بنغوريونفيطليعتهم.

وهنا ايضا في قراءتك لهذا الكتاب تدرك مدى الصحة في السلوك الديكتاتوري « فعقلية بن غوريون وسلوكه في القيادة الاسرائيلية طابعهـا الحكم المطلق وان اتخذ قوالب الديمقراطية ستارا باليا لذلك ».

فليس في اجراءات القيادة الصهيونية وتدابيرها لغزو فلسطين مجال لاخطاء صغيرة . فقد توضب كل شيء على وجه دقيق يؤيده ويؤازره كل دماغ او خبرة او قوة توفرت لانصار الحركة الصهيونية فـي عـالم الشرق والغرب . انما الخطأ الاكيد في فلسفة الحركة الصهيونية انهـا « كالنازية او الشيوعية » تستند في جذورها الى خطأ كبير وهو انكيان اسرائيل في هذا الاقليم العربي لا يمكن ان يكتب له البقاء لانه نشـاز في هذا الطابع العربي العنيد لهذا الاقليم الذي اصر على الاحتفاظ بطابعه هذا رغم تعدد الغزوات في فترات الضعف المحلي .

ويبدو ان بن غوريون يدرك ذلك في دخيلة النفس . فكتابه الجديد دعوة سافرة الى توطيد الصلة الروحية والثقافية والمذهبية بين تـراث اسرائيل وتراث البوذية الهندية . لعل بن غوريون يطمح من وراء ذلك الى خلق جسر بين اسرائيل وبين الهنود يتخطى هذا الحاجز العربي . وطالما ان جذور القومية الصهيونية هي في حضارة الغرب « رأسمالية كانت ام ماركسية » فلا بأس من ان تتوطد القومية « والمصالح » الاسرائيلية مـع الهند على اعتبار انها خصم لعروبة الاسلام في القارة الهندية ــ او هكذا يظن بن غوريون في تتلمذه السطحي على الفلسفة البوذية .

مشكلة اللغة القومية عند الهنود

وفي الوقت الذي يصبو اليه بن غوريون (وعديدون غيره فيالشرق والغرب) الى لون من الوصال الروحي والثقافي بالحضارة الهنديةالمعاصرة تثور في البرلمان الهندي نفسه حملات شعواء على فقـدان الجـذور والمؤهلات لقيام لغة قومية هندية واحدة في عهد الحكم الذاتي وفي هذه الرفعة السياسية «الاصلية او الزائفة» التيتتوفر للدولة الهنديةالحديثة.

فلغة التخاطب والحكم عند اكثر اولياء الامر والقادة في الهند لا تزال باللغة الانكليزية . فليس هناك لسان واحد يعطى للاستقلال والوحدة الهندية طابعا قوميا اصيلا .

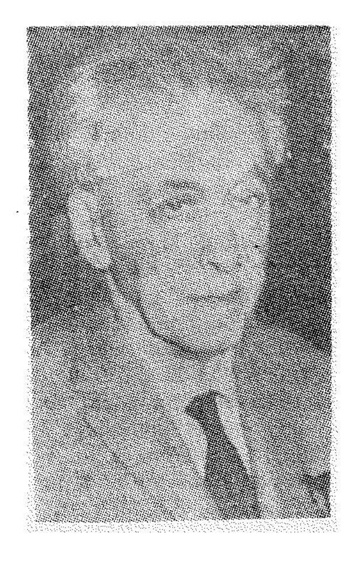
فالمسعى الجدي لاحلال اللغة الهندوكية مكان اللغة الانكليزية كلغـة التخاطب والتدريس والثقافة القومية باسرها ــ هذا المسعى لا تزالتفرضه عقبات جسام . فلا اولو الامر انفسهم (بما فيهم جواهر لال نهرو) قادرون على التعبير السليم باللغة القومية (فثقافة اكثرهم هي الانكليزية) ولا ثروة اللغة الهندوكية نفسها قادرة على مواجهة حاجات العصر . هـــذا فضلا عن ان تعدد اللهجات واللغات في مختلف القطاعات والولايات التي تتألف منها الهند اليوم ــ هذا التعدد واسع ومتشعب . فليس في الجو

او في حاضر الاستعداد الهندي ما يستطيع التغلب عليه .

ولذا يجد عدد كبير من نواب الامة الهندية ومثقفيها غضاضة في الاصرار على ابقاء اللغة الانكليزية لغة الحكم والتخاطب في الهند ـ وتعميمها لتصبح اللغة القومية الشاملة للقارة الهندية باسرها. فاللغة الهندوكية نفسها ليست مفهومة او مقروءة او صالحة للاستعمال سوى عند فئة قليلة جدا من بين مئات الملايين من سكان الهند . وبالقياس فان اللغة الانكليزية اكثر انتشارا من اية لهجة او لغة محلية اخرى واسرع هضما لدى اكثر الهنود .

عودة ((الروح))

في حاضر الادب السوفياتي



***

في زاوية متواضعة من الصفحات الاخيرة لمجلة الادب السوفيتي ((نوفي مير)) NOVY MIR اعلان صغير يعد القراء بنماذج جديدة من نتاج (ايليا اهرنبرغ) و (فيكتور نيكراسوف) و (كونستانتين باوستوفسكي) و (الكسندر ياشين) في مستهل العام الجديد .

وفي ايام ستالين كانت هذه النبذات الاعلانية ميزان الرضى او النقمة على اهل الفن والادب ، الا ان حاضر الادب السوفياتي في هذه الحقبة من عهد خروتشيف قد عدل ذلك الميزان خصوصا بعد ان فرضت اقلام روسية نقية نفسها على حفظة الثقافة والادب في شتى وسائل المواصلات الفكرية بما فيها قراءة الشعر ونماذج النثر في الحدائق العامة وحرم الجامعات او تهريب نتاج الفكر الى حيث يتوفر له النشر خارج البلاد كما حدث فعلا في بعض مؤلفات (باسترناك) وفي غضبات الشاعر الشاب (يفتوشنكو) وفي انتاج (روزديستافينسكي) حيث نمت في الضمير والعلانية ((شعوبية)) صريحة تجادل بعض اصول الفقة والسلوك الماركسي مما لم تقو الاقلام والنفوس على الجهر به في الحقبات السابقة من الحكم السوفياتي.

والنبأ في مجلة ((نوفي مير)) عن عودة اهرنبرغ ورعيله من رجال الادب السوفياتي المخضرم الى خطوة النشر في معقله الحكومي قد ينطوي على مدلول جديد في مرونة عهد خروتشيف وتراجعه عن ذلك الانذار الخطير الذي وجهه خروتشيف في الربيع المنصرم محذرا اهل الفن والادب في روسيا من الشعوبية في المفهوم التقليدي للماركسية ـ اللينينية كما ينطبق على الانتاج الفكري وعلى قوالب الادب والفن . وكان من جراء ذلك ان توقف (اهرنبرغ) عن نشر فصول جديدة في ترجمته الذاتية وحذف اسمه من قائمة المساهمين في تحرير مجلة ((نوفي مير)) .

وجاءت بوادر العفو عن ((شعوبية)) اهرنبرغ منذ اسابيع قليلة حين رتب له اهل الحل والربط المشاركة في مؤتمر لاهل القلم عقد آنئذ في لينينغراد حضره طائفة من رجال الادب الاجانب . وقد عقب ذلك ظهور مقالات متواصلة لاهرنبرغ في الصحف الحكومية اليومية تعزز موقف خروتشيف من عناد الصين في تفسيراتها العقائدية للفكر والسلوك الماركسي ازاء مضي الاتجاه السوفياتي في مبدأ التعايش مع النظم الاخرى . ويتساءل بعض المعنيين بشؤون الثقافة السوفياتية هل عودة ((الروح)) الى مجرى الحياة الادبية هناك اجراء ذرائعي رهين بظروف طارئة ام هو عكوف نهائي عن صرامة القيود التي تقيد الانتاج السوفياتي؟

الدولة والادب في بولنده

يبدو ان موجة الانطلاق من قيود الفكر والتعبير في حاضر الادب البولندي التي جادت بها الدولة من العامين الاخيرين على الكتاب والمثقفين في بولنده تواجه الان نكسة جدية .

فقد جاءت الانباء ان الكاتب المعروف (ولاديسلاو ماتوين (WLADYSLAW MATWIN) قد طرد او استقال من سكرتارية الحزب الشيوعي في بولنده . ولهذه الاستقالة مغزى في حرية الادب والفن هناك لان هذا الكاتب كان زعيم الجناح في الحزب الذي يجاهد في سبيل مزيد من حرية التعبير للمثقفين في مختلف المجالات .

وجاء ايضا ان مجلتي (نوفا كولتورا NOVA KULTURA) و (برزجلاد كولتورالني PREZGLAD KULTURALNY) المعروفتين بجرأتهما في العامين الماضيين على نشر بعض نماذج الادب الثائر على عتيق الفكر الستاليني ـ هاتين المجلتين الثقافيتين قد اغلقتا ـ واستعاضت السلطات عنهما بمجلة مطواعة هي مجلة ((كولتورا KULTURA))

... وفي اسبانيا

انذر وزير الارشاد والاعلام في مدريد حفظة الثقافة والكتاب والفنانين الاسبان بان ((الدولة قد منحتهم حرية الابتكار والابداع لا حرية التدمير)) . وقد جاء انذار هذا الوزير اثر تلقيه عرائض الشكوى من عدد كبير من الاساتذة والكتاب والفنانين ينعون فيها على الدولة الاسبانية قسوتها في قمع حركة الاضراب التي قام بها عمال مناجم الفحم في الشمال الاسباني.

والمعروف ان هذا الوزير ((السنيور مانويل فراجا ايريبارني)) وهو كاتب معروف كان قد وعد حين تولى وزارة الاعلام الاسبانية عام ١٩٦٢ بانه سيسعى لرفع الرقابة او تلطيفها عن حرية التعبير .

... وفي البرتغال أيضا

القت السلطات البرتغالية القبض على القصصي والصحفي المعروف الدكتور (اورباتو ترافاريس روديكيس) لتحديه الحكم المطلق في بعض مقاطع قصته الجديدة ((المنفي القلق)) .

((مدرسة الشمس)) قصة اسبانية من الادب المعاصر

الادب الاسباني المعاصر في ظل الحكم المطلق لا يزال يجد منافذه الوحيدة لحرية الانطلاق في معالجته هذه الحقبة القصيرة من الحرب الاهلية بين الشيوعيين والفاشيين التي سبقت الحرب العالمية الاخيرة.

و ((مدرسة الشمس)) احد نماذج هذا الادب الاسباني المعاصر وهي من تأليف القصصية ((آنا ماريا ماتوتي)). وهي على لسان فتاة في الخامسة عشرة داهمتها احداث الحرب الاهلية وهي في رعاية جدتها في قرية نائية نالها بعض ما نال سائر البقاع الاسبانية من اذى الحرب الاهلية.

والقصة دراسة في تطور الطباع والمواهب ودخائل النفس لدى ثلاثة من الاحداث ـ شابين وفتاة كان من المقدر لهم لولا ويلات الحرب الاهلية ان ينشأوا على اسس فاضلة كما ينشأ الاحداث في الظروف الهادئة. الا ان مناخ الثورة قد حطم وافسد المواهب فاستسلم الشابان للخديعة والكذب والنفاق واستسلمت الفتاة ايضا لمثل هذا على انه امر مسلم به لا يتقبل الروية او الجدل او الاصلاح .